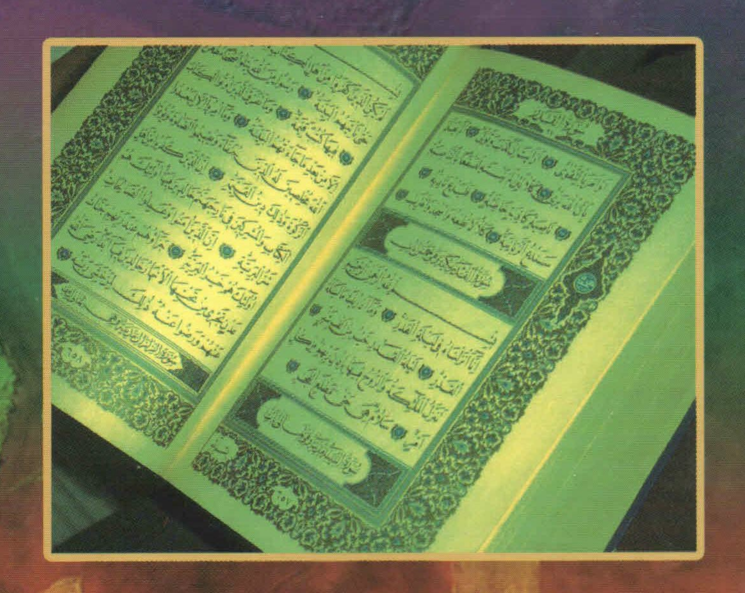
التفسير الموضوعي

بين النظرية والتطبيق

▪ دراسة نظرية تطبيقية مرفقة بنماذج ولطائف التفسير الموضوعي ▪



الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي



دار النفائس

للنشر والتوزيع

التفسير الموضوعي
بين النظرية والتطبيق

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ



العبدلي/ مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ ٦ ٠٠٩٦٢
فاكس: ٥٦٩٣٩٤١ ٦ ٠٠٩٦٢
Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM
www.al-nafaes.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن باب «تفسير القرآن» لا يمكن أن يُغلق، لأن القرآن رسالة حية حتى قيام الساعة، ومهمة مستمرة حتى قيام الساعة، ولا يزال المسلمون يُقبلون على القرآن حتى قيام الساعة، يتلونه ويتدبّرونه، ويفسرونه ويؤولونه، ويطبقونه وينفذونه، ويتحركون به ويعيشون في ظلاله.

وهذا معناه أن تظهر تفاسير للقرآن في كل فترة، وأن يضيف العلماء في كل عصر أبعاداً وآفاقاً ومضامينَ جديدةً إلى التفسير، وأن يقدِّموا مناهج وأسساً جديدة، يضيفونها إلى مناهج التفسير السابقة.

لقد ركز العلماء السابقون على التفسير التحليلي، وظهرت مئات التفاسير التحليلية للقرآن، قدّم فيها أصحابُها الكثيرَ من معاني القرآن وأحكامه وعلومه وحقائقه، جزاهم الله خيراً.

وظهر في العصر الحاضر منهج جديد في التفسير، هو «التفسير الموضوعي»، وأعجب به العلماء والباحثون، والقراء والدارسون، قُدِّم فيه الكثير من موضوعات القرآن وعلومه ومعانيه وحقائقه، وصدرت عنه دراسات عديدة، تلقاها الباحثون والدارسون بحيوية وتفاعل.

وأضيف التفسير الموضوعي إلى أنواع التفسير الأخرى: التفسير الإجمالي، والتفسير التحليلي، والتفسير المقارن، والتقت أنواع التفسير الأربعة على خدمة كتاب الله العظيم.

وبما أن «التفسير الموضوعي» حديثٌ معاصر، فلم يتكلم المفسرون السابقون عن قواعده وخطواته وألوانه، ولكن العلماء والباحثين المعاصرين أقبلوا عليه، يدرسونه ويقعِّدونه، ويتحدثون عن قواعده وأسسه وكيفيته.

وأقرّت مادة «التفسير الموضوعي» في الدراسات الجامعية الإسلامية، في الجامعات الإسلامية، وفي كليات الشريعة والدعوة، وكانت هذه المادة لطلبة المرحلة الجامعية الأولى «البكالوريوس»، والمرحلة الجامعية الثانية «الماجستير».

وأصدر الأساتذة الجامعيون دراسات عن التفسير الموضوعي، قدَّموا فيها ما هداهمُ الله إليه من قواعدَ وخطوات، وأوردوا في دراساتهم تطبيقاتٍ عملية من موضوعات القرآن، جزاهم الله خيرَ الجزاء.

من هذه الدراسات:

١- مباحث في التفسير الموضوعي، لأستاذنا الدكتور مصطفى مسلم. وقد دَرَّسَنا الدكتور مصطفى مسلم مادة «التفسير الموضوعي» في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، عندما كنت أدرسُ في مرحلة الماجستير عام ١٩٧٧.

٢- المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبدالستار السعيد.

٣- البداية في التفسير الموضوعي، للدكتور عبدالحي الفرماوي.

٤- المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر.

٥- التفسير الموضوعي بين كفتي الميزان، للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم.

وقد دَرَّست مادة «التفسير الموضوعي» في كلية الدعوة وأصول الدين بعَمان، وفي كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، ودعت الحاجة إلى إعداد هذه الدراسة عن التفسير الموضوعي.

دراسة التفسير الموضوعي (الأكاديمية) يجب أن تتناول جانبين: الجانب النظري والجانب التطبيقي، ولذلك جعلتُ هذه الدراسة في قسمين:

القسم الأول: الدراسة النظرية.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية.

هدفتُ من الدراسة النظرية تقرير قواعد منهج علميٍّ موضوعي للبحث في التفسير الموضوعي، ووضْعَ ضوابط تضبط السير فيه، حتى لا يكون الأمر فوضى، يقول فيه من شاء، ما شاء، كما شاء، فميدان التفسير الموضوعي هو القرآن، والبحث في القرآن ليس كالبحث في أي موضوع أو كتاب آخر، ولا بدّ له من شروط وقواعد وآداب خاصة، حتى يكون البحث مما يليق بكتاب الله عز وجل.

بدأت الدراسة النظرية بتمهيد موجز، تحدثت فيه عن التفسير والتأويل والفرق بينهما، وعن المراحل الأربعة التي مرّ بها «تفسير القرآن»، منذ الصحابة، وحتى العصر الحاضر. وهذا التمهيد لتذكير القارئ بالنَّسَبِ العريق للتفسير الموضوعي، بين يدي دخوله عالَمَ التفسير الموضوعي الرحيب.

ثم ذكرتُ موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير الأخرى، وتحدثتُ عن تعريف التفسير الموضوعي، وأهمِّ الدراسات التنظيرية عنه، وأشرت إلى بدايات التفسير الموضوعي عند السابقين.

وبيَّنتُ الصلة بين التفسير التحليلي «التفسير الموضعي» وبين التفسير الموضوعي، والفروق بينهما، وركّزت على أنهما متكاملان، وبينهما مرحلية تكاملية حتمية.

ثم تكلمت عن أهمية التفسير الموضوعي، وعن أسباب ظهوره في العصر الحديث، ومظاهر كونه «تفسيرَ المستقبل»، وأن الأبحاث حوله ما زالت في بداياتها، وستشهدُ الأجيال المسلمة القادمة الكثير من الدراسات والأبحاث القيمة عنه، وسيكون للتفسير الموضوعي دورٌ كبير في حلِّ مشكلات المسلمين، وفي مواجهة الجاهليّين، وفي استئناف الحياة الإسلامية، وإعادة الخلافة الراشدة.

انتقلتُ بعد ذلك للحديث عن ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة، ومنهجية بحث كل لون منها، والخطوات المرحلية المتدرجة للسير في كل واحد منها، وهذا هو صلب وأساس الدراسة النظرية.

ذكرت أن أنواع التفسير الموضوعي ثلاثة: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، والتفسير الموضوعي للموضوع القرآني، والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

ثم بينت الخطوات المرحلية المتدرجة التي لا بد من السير بها عند بحث أي لون من هذه الألوان.

وختمت هذا القسم ببيان قواعد منهجية يجب مراعاتها، والانطلاق منها في أي دراسة موضوعية علمية قرآنية.

أما القسم الثاني وهو الدراسة التطبيقية، فقد قدَّمتُ للقراء ثلاثة نماذج وأمثلة تطبيقية، ليقفوا عليها بعد معرفتهم للمنهج والطريقة، وقديماً قال العلماء: بالمثال يتضح المقال.

قدمت مثالاً تطبيقاً على كل لون من ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة:

التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: بحثت في مادة «جَهْل» في القرآن، باعتبارها مصطلحاً من مصطلحات القرآن، وسِرْتُ في ذلك وفق الخطوات المرحلية التي بينتها في القسم الأول.

قمت بجولة تفسيرية قرآنية مع هذه المفردات القرآنية لمادة «جهل»، وهي: تجهلون. يجهلون. الجاهل. الجاهلون. جهول. جهالة. جاهلية. وقدَّمت في ذلك الدلالات واللطائف والاستنتاجات.

التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: بحثت فيه «الشورى في القرآن»، باعتبارها موضوعاً من موضوعات القرآن، وتحدثت فيه عن معنى الشورى، ثم وقفت مع آيات القرآن التي أوردت اشتقاقات مادة «شور» وهي: أشارت. تشاور. شورى. شاورهم.

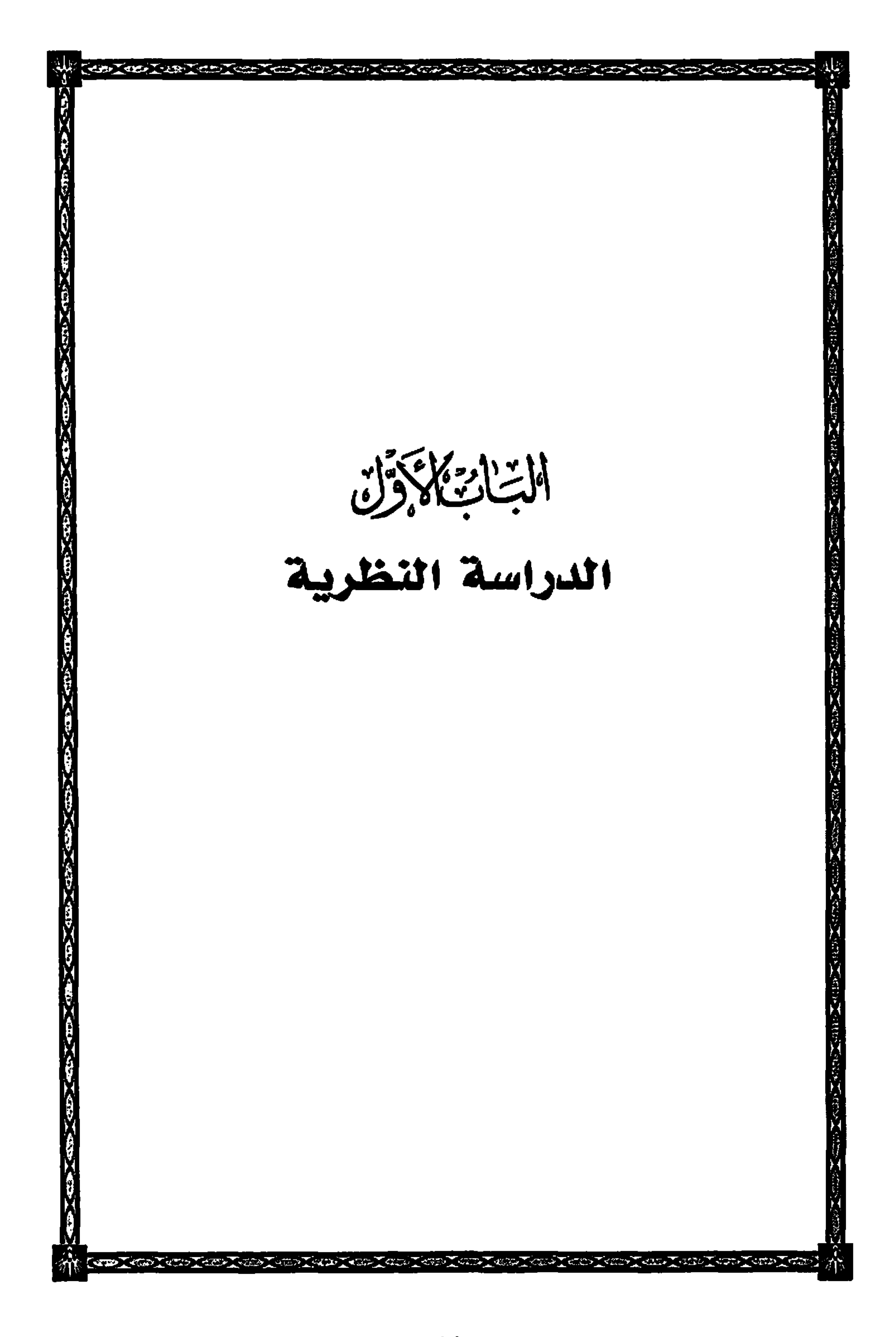
ثم عرضت مجموعة من الوقائع التي ظهرت فيها الشورى – في جانبيها الحسن والسيىء – في القصص القرآني.

التفسير الموضوعي للسورة القرآنية: قدمتُ فيه دراسة موضوعية لسورة محمد ﷺ - سورة القتال - وفق المنهج والطريق المبينة في القسم الأول من هذه الدراسة.

وأقدِّم هذه الدراسة للباحثين والدارسين، والمتدبرين للقرآن، الراغبين في تدبُّره وتحليله وفهمه، وتفسيره تفسيراً موضوعياً، عسى أن تقدِّم لهم بعض النفع والعون والفائدة.

وأتوجَّه إلى الله بهذه الدراسة المنهجية الموضوعية، راجياً منه حسن القبول والجزاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. صلاح عبدالفتاح الخالدي
الأحد ١٧/ ١٢/ ١٤١٦هـ
٥/ ٥/ ١٩٩٦م



الباب الأول

الدراسة النظرية

المبحث الأول
التفسير والتأويل

المطلب الأول
التفسير في اللغة والاصطلاح

التفسير مصدر، على وزن «تفعيل»، فعله الثلاثي «فَسَر» والفعل الماضي من المصدر «تفسير» مضعَّف بالتشديد، وهو «فسَّرَ».

والجذر الثلاثي للكلمة هو: الفَسْرُ.

قال أحمد بن فارس في مقاييس اللغة: «الفَسْرُ: كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه. تقول: فسَرْتُ الشيء، وفسَّرْتُه»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «الفَسْرُ: إظهار المعنى المعقول...، والتفسير في المبالغة كالفَسر»[2].

وقال ابن منظور في لسان العرب: «الفسْرُ: البيان. يقال: فَسَر الشيءَ وفَسَّرَه، أي: أبانه، والفَسْرُ: كشفُ المغطَّى.

والتفسير: البيان. وهو: كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل»[3].

وقال أبو البقاء الكفَويّ في الكليات: «التفسير: الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل».

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٤: ٥٠٤.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣٦.

(٣) لسان العرب لابن منظور، ٥: ٥٥.

قال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لَبْسٌ وخفاء، فيُؤْتَى بما يزيله ويفسِّرُه..»[1].

إن المعنى الأصليّ لمادة «فسر» هو: البيان والكشف والتوضيح والإظهار.

وكل تصريفات واشتقاقات الكلمة ترجع إلى هذا المعنى الأصلي الجامع.

إذن: تفسير الكلام هو: بيان معناه، وإظهاره وتوضيحه، وإزالة إشكاله، والكشف عن المراد منه.

وإضافة المصدر «تفسير» إلى «القرآن» تجعل لهذا المركب الإضافي «تفسير القرآن» معنى خاصاً محدداً، يُلحظُ فيه تحقُّقُ المعنى الأصلي لمادة «فسْر» لكنه يخصِّص هذا المعنى بالقرآن الكريم.

وللعلماء والمفسرين عدة تعريفاتٍ للمركب الإضافي «تفسير القرآن» لا يعنينا استعراضُها في هذه العجالة.

نختار منها تعريفين:

الأول: تعريف الزركشي، قال: «التفسير: عِلْم يُفهم به كتاب الله، المنزَّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه...»[2].

الثاني: تعريف محمد الطاهر بن عاشور. قال: «التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسّع..»[3].

والخلاصة: عندما نريد أن نعرِّف تفسير القرآن نقول:

تفسير القرآن: علم يتمُّ به فهمُ القرآن، وبيانُ معانيه، والكشفُ عن أحكامه، وإزالةُ الأشكال والغموض عن آياته.

---

(١) الكليات لأبي البقاء: ٢٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ١:١٣.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور، ١:١١.

المطلب الثاني
التأويل في اللغة والاصطلاح

التأويل مصدر، على وزن «تفعيل» وفعله الماضيُّ رباعي مضعّف، وهو: أوَّل.

والجذر الثلاثي للكلمة هو: «أوْل».

قال ابن فارس عن معنى هذا الجذر الثلاثي:

«أوْل: أصلان، هما: ابتداء الأمر، وانتهاؤه.

من استعماله في الابتداء قولك: الأوَّل. وهو مبتدأ الشيء.

ومن استعماله في انتهاء الأمر قولك: الأيّل. وهو الذكَرُ من الوُعول، وسمي أيّلاً، لأنه يؤول إلى الجبل وينتهي إليه، ليتحصّن فيه.

وقولهم: آلَ، بمعنى: رجع.

وآلُ الرجل: أهل بيته. وسُمّوا بذلك لأن مرجعهم ومآلهم في الانتهاء إليه، كما أن مرجعه ومآله إليهم، لأنهم ابتداؤُه.

ومن هذا الباب «الأوْل»، لأنه بمعنى الانتهاء والمرجع.

وتأويل الكلام: هو عاقبته، وما يؤول وينتهي إليه..» [1].

وقال الراغب الأصفهاني عن الأول:

«الأوَّل: الرجوع إلى الأصل.

والتأويل هو: ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً.

ومن ردِّ الشيء إلى غايته في العلم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ١:١٥٨-١٦٢ باختصار.

ومن ردّ الشيء إلى غايته في الفعل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]..»[1].

إذا كان المعنى الأصليُّ الجامعُ للأوْل هو الردّ والرجوع إلى الأصل، فإن تأويل الكلام هو: ردّ معانيه وإرجاعها إلى أصلها الذي تُحمل عليه، وتنتهي إليه.

وحتى نعرف معنى «تأويل القرآن»، وانطلاقاً من كلام الراغب بأن التأويل هو: رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً، فإننا نجد أن تأويل الكلام له معنيان، وردّه إلى غايته المرادة منه له صورتان:

المعنى الأول: ردُّ الكلام إلى حقيقته العلمية، وذلك بإعادته إلى أصله ودلالته بحسن فهمه، وهذا ردّ علمي.

المعنى الثاني: ردّ الكلام على حقيقته العملية، وذلك بأدائه وفعله، وهذا انتهاء به إلى غايته الفعلية. وهذا ردّ عملي.

وأقدِّمُ الخلاصة النافعة التي لخّص فيها أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات صور التأويل العامة في الكلام.

قال: «إن الكلام إذا وُقفَ به عند المعنى الظاهر، كانت الغاية منه هذا المعنى الظاهر. وعندها يكون المراد بالتأويل هو التفسير.

وإذا كان المراد به تحقُّقُه في عالم الواقع إن كان خبراً، أو تحقيقه إن كان طلباً، كانت هذه هي الغاية منه، وهذا غير التفسير.

وإذا تجاوزنا المعنى الظاهر إلى المعنى غير الظاهر، كانت الغاية المرادة من الكلام المعنى غيرَ الظاهر، لدلالة القرينة على ذلك، كان هذا تأويلاً وليس تفسيراً، باصطلاح المتأخرين، ويمكن أن يدخل في التفسير باصطلاح السلف»[2].

---

(١) المفردات: ٩٩.

(٢) التعريف بالقرآن الكريم، لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١٠٨.

وعندما نستعمل مصطلح «تأويل القرآن» فإننا نقصره على الردّ والتأويل العلمي، ولا نريد به الردّ والتأويل العمليّ الفعلي.

وعندها يمكن أن نعرِّف مصطلح «تأويل القرآن» بهذا الاعتبار.

فنقول: تأويل القرآن: علم يتم به حُسْن فهم القرآن، وإزالة اللبس والإشكال عن بعض آياته، وذلك بردها إلى الغاية المرادة منها، وحملها على الآيات الأخرى التي لا لبس فيها ولا إشكال.

المطلب الثالث
الراجح في الفرق بين التفسير والتأويل

تفسير آيات القرآن هو: فهمها، وبيان معانيها.

وتأويل آيات القرآن هو: إزالة ما فيها من غموض وإشكال، وفهمها فهماً صائباً، وتأويلها تأويلاً صحيحاً، واستنباط لطائفها ودلالاتها، واستخراج حقائقها وإشاراتها.

ولما أراد المفسرون التفريق بين التفسير والتأويل، اختلفوا في ذلك اختلافاً بيِّناً، وسجّلوا في ذلك أقوالاً عديدة، لا مجال لإيرادها كلها في هذه العجالة.

ونكتفي بإيراد ما نراه ونرجحه في التفريق بينهما.

الراجحُ أن حُسْن فهم القرآن، وفِقْه معانيه، لا بد أن يكون على مرحلتين متتابعتين.

المرحلة الأولى: تفسير القرآن.

المرحلة الثانية: تأويل القرآن.

في المرحلة الأولى يقوم المفسر بتفسير ألفاظ وكلمات القرآن، ويعتمد في تفسيره على الروايات والأقوال المأثورة، ويورد ما في معنى الآية من آيات أخرى، وأحاديث صحيحة، وأقوال للصحابة والتابعين، وأسباب نزول، وناسخ ومنسوخ، وتوجيهِ قراءات، وإعرابٍ وشواهدَ شعرية

وهو في عمله هذا يفسّر ظاهر الآية، ويورد المعنى القريب المتبادر منها، ويعتمد على العلم الصحيح في ذلك، ولذلك يفسر الآية من باب الجزم والقطع.

وعمله في هذه المرحلة يحقق معنى التفسير الذي سبق أن أوردناه، لأنه يوضِّح ويُظهر ويُبيِّن، ويقدِّم المعنى الظاهريّ للآيات.

فإذا أراد أن ينتقل إلى المرحلة الثانية، ويقوم بتأويل القرآن، فإنه ينظر في القرآن، على ضوء معلوماته التفسيرية، التي حصّلها في المرحلة الأولى.

عندما يُؤوِّلُ القرآن، فإنه يُمعن النظر في الجمل والتراكيب والآيات. ويعتمد في هذا النظر على تدبره وإعمال عقله، وتنفذُ نظراتُه إلى باطن الآية، ويلتفتُ إلى لطائفها وإشاراتها وإيحاءاتها، ويستخرج حقائقَها ودلالاتها، ويلحظ المعنى البعيدَ غير المتبادر للذهن، ويزيل ما عليها من لبس أو اشتباه، ويحلُّ ما تثيره من غموض أو إشكال.

وعملُ المؤوِّل في هذه المرحلة عملٌ ذاتي، وتأويلاتُه التي يقدّمها هي ثمرةُ تدبّره للقرآن، وشخصيته فيما يقدمه بارزةٌ بينة.

وهو في هذه المرحلة، يحقق معنى التأويل الذي سبق أن أوردناه، لأنه عندما يقدم تأويلاته، فلا بد أن يردها إلى معلوماته التفسيرية، ويرجع بها إليها، فإن تعارضت تأويلاته مع معلوماته التفسيرية ألغاها، لأنها تكون في هذه الحالة تأويلات خاطئة.

إن المؤوِّل يصحح لنفسه بعدما يُؤَوِّل، وينظر في تأويله على ضوء تفسيره، ويعيد تأويلَه إلى تفسيره.

ولهذا اعتبرنا التأويل مرحلة ثانية، تأتي بعد التفسير، وتُبنى عليه، ولا تُعتمد إلا إذا رُدّت إليه، باعتباره هو الأصل والمرجع.

إننا لا نجيز لأحد أن يقوم بتأويل القرآن، قبل أن يُحسن الاطلاع على تفسيره، وإلا فكيف يحقق المرحلة الثانية التأويلية قبل المرحلة الأولى التفسيرية؟ إنه إن فعل ذلك يكون قد هجم على تأويل القرآن، بدون علم، وهذا منهيٌّ عنه في الإسلام.

المطلب الرابع
الدليل على هذا التفريق بينهما

التفسير والتأويل مرحلتان متعاقبتان، ويجب رد التأويل إلى أصله وهو التفسير.

والتأويل علم يفتح الله به على أصحابه، وفهم يؤتيه الله لهم.

وإذا كان التفسير يعتمد على الاطلاع والمعرفة، والقراءة والرواية، فإن التأويل يعتمد على الموهبة والملكة والتدبر، وهذه لا تتيسر لكل مفسر، ويتفاوت أهل التأويل فيها تفاوتاً كبيراً.

كل مؤوِّل لا بد أن يكون مفسراً ليصحَّ تأويله، لكن لا يستطيع كل مفسر أن يكون مؤولاً، فهذا فضل خاص، يهبه الله لمن يشاء من عباده.

كل مؤوِّل مفسر، وليس كل مفسر مؤولاً!! .

والدليل على أن التأويل علم يهبه الله لمن يشاء من عباده، ويستطيع العالم تعلُّمه وإتقانه، ما رواه أحمد في مسنده: عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة، فوضعتُ له وضوءاً من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله، وضع لك هذا عبدالله بن عباس.

فقال ﷺ: «اللهم فقّهه في الدين، وعلمه التأويل»[1].

وقد استجاب الله دعاء رسول الله ﷺ فمنّ على ابن عباس رضي الله عنهما بتعلُّم تأويل القرآن، إضافة إلى علمه بتفسيره، وسبَقَ الصحابةَ في هذا العلم، حتى سمي «ترجمان القرآن».

لم يكن كل الصحابة مؤوِّلين للقرآن، وإن كانوا جميعاً يعلمون تفسيره. وكان ابن عباس من السابقين السابقين، الذي تميّزوا بتفسير القرآن وتأويله معاً.

روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، عن سعيد بن جبير، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضَهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخِل هذا معنا، ولنا أبناءٌ مثله؟ .

فقال عمر: إنه من قد علمتم.

فدعا ذات يوم. فأدخله معهم.

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط وفريقه، ٥:١٥٩، حديث رقم: ٣٠٣٢.

فما رُئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُريهم.

قال: ما تقولون في قول الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ ؟ [النصر:١].

فقال بعضهم: أُمِرْنا نحمدُ الله ونستغفرُه، إذا نصرنا وفتح علينا.

وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً.

فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ .

فقلت: لا.

قال: فما تقول؟ .

قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ، أعلَمَه له. فقال له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»[1].

لقد أجرى عمر ﷺ امتحاناً للصحابة في تأويل سورة النصر، وذلك ليُريهم تفوّق وفضل ابن عباس عليهم.

قام الصحابة المسؤولون بتفسير سورة النصر تفسيراً ظاهرياً، حيث وضّحوا معناها المتبادر للذهن، فالله عز وجل يأمر رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، عندما يمنّ عليه بالنصر والفتح.

وكلامهم في معنى السورة صحيح تماماً، لكنه تفسير لها ليس إلا.

أما ابن عباس، فإنه يعرف هذا المعنى التفسيريَّ للسورة، لكنه لم يبقَ عنده، وإنما انتقل منه للمرحلة الثانية، وهو تأويل السورة.

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٩٧٠.

إن حياة الرسول ﷺ على الأرض، مرتبطة ارتباطاً مباشراً بهذا الدين، فبما أن هذا الدين لم يتم انتصاره وانتشاره في بقاعه الأولى، لذلك ما زال في عمر الرسول ﷺ بقية.

أما وقد حقَّق الله لدينه النصر والفتح، وانتشر في الجزيرة العربية، فقد انتهت مهمة الرسول ﷺ التبليغية، وبهذا ينتهي عمرُه في هذه الدنيا.

وبما أن سورة النصر نازلة بعد مجيء نصر الله والفتح، وقدوم الوفود مبايعين لرسول الله ﷺ ، فإنها تخبر أنَّ عمر الرسول ﷺ على الأرض قد انتهى! .

هذه النظرة التأويلية الفاحصة، غابت عن باقي الصحابة، بينما أحسن التقاطَها ابنُ عباس وأميرُه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنهم.

إن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا مجردَ مفسّرين لسورة النصر، بينما كان ابن عباس رضي الله عنهما مؤوِّلاً لهذه السورة!! [1] .

(١) انظر إن شئت دراستنا القرآنية المفصلة: «التفسير والتأويل في القرآن» الصادرة عن دار النفائس.

المبحث الثاني
مع حركة التفسير في مسيرتها التاريخية

أنزل الله القرآن الكريم، بلسان عربي مبين، وجعله ميسراً سهلاً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

ولهذا كان الصحابة يعرفون معظَمَ معاني القرآن، وما خفي عليهم معناه وغمضَ عليهم تفسيره، يسألون عنه رسول الله ﷺ ، فيجيبُهم على سؤالهم، ويبين لهم ما يحتاجون إليه.

وكان علماء التفسير من الصحابة والتابعين يبيّنون للناس معاني آيات القرآن، ويفسرونه لهم.

واستمرت حركة التفسير متقدمةً في مسيرتها التاريخية، على مدار القرون والأجيال، وامتلأت مكتبة التفسير بالتفاسير المختلفة، على اختلاف تياراتها ومناهج أصحابها.

ونحب هنا أن نتكلَّم بإيجاز عن مراحل حركة التفسير في مسيرتها التاريخية.

لقد مرت حركة التفسير بأربع مراحل. وفيما يلي تعريفٌ بكل مرحلة، ومناهج التفسير فيها، مع ذكر نماذج وعينات من التفاسير الممثلة لها.

المرحلة الأولى: التفسير في طور التأسيس:

هذه هي المرحلة الأساسية، التي نشأ فيها التفسير نشأة علمية صحيحة، واتصف التفسير في مرحلة التأسيس والتمهيد بالعلمي والمنهجية والموضوعية.

وتمثل هذه المرحلة حركة التفسير في القرون الخيرية الثلاثة الأولى، التي شهد لها الرسول ﷺ بالخيرية، والتي تمثل الأجيالَ الثلاثة الأولى، المشهودَ لها بالفضل والخير: جيلَ الصحابة، وجيلَ التابعين، وجيل أتباع التابعين.

بدأت هذه المرحلة التأسيسية بالتفسير على يد رسول الله ﷺ ، حيث كان يفسر للصحابة ما كانوا يحتاجونه من معاني الآيات، ويوضح لهم ما غَمَض عليهم من دلالاتها وأحكامها.

وتفسيره النقلي ﷺ قليل جداً، أوردته كتب الحديث والسنن والمسانيد والتفسير بالمأثور.

وبعد الرسول ﷺ جاء دور الصحابة وتفسيراتهم للقرآن، وكان الصحابة لا يُكثرون من التفسير، ولا يتوسعون فيه، ولا يفسرون القرآن كله على حسب ترتيب المصحف.

وكانت أشهر مدارس التفسير زمن الصحابة أربعة:

١- مدرسة التفسير بمكة: وإمامها حَبْرُ الأمة وترجمان القرآن، وأعلم الصحابة بالتفسير، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

٢- مدرسة التفسير بالمدينة: وإمامها الصحابي أبي بن كعب الأنصاري ﷺ .

٣- مدرسة التفسير بالكوفة: وإمامها الصحابي عبدالله بن مسعود ﷺ .

٤- مدرسة التفسير بالشام: وإمامها أبو الدرداء، عويمر بن عامر ﷺ .

وحمل تلاميذ ابن عباس رسالة التفسير من بعد جيل الصحابة، فظهر أعلام المفسرين من التابعين، في مقدمتهم تلاميذ ابن عباس، مثل مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وظهر من علماء التفسير في عصر التابعين: عطاء، وقتادة، والحسن البصري.

وجاء مفسرون أعلام بعد هؤلاء مثل: السدي الكبير، ومقاتل، وابن جريج.

كما جاء بعدهم علماء دوّنوا تفاسير كاملة، فسّروا بها كل القرآن، منهم: يحيى ابن سلام البصري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء.

وكان تفسير «مجاز القرآن» لأبي عُبيدة، و«معاني القرآن» للفراء، من التفاسير الأساسية البيانية، التي اعتمد عليها الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره.

ونلاحظ أن التفسير في هذه المرحلة التأسيسية كان يعتمد على الإيجاز والاختصار، ولم يكن المفسرون يتوسعون في التفسير، أو يُسْهبون في ما يوردونه من أقوال، ويقدمون من مباحث.

وقد برز في هذه المرحلة خطان واضحان بارزان في التفسير:

الخط الأول: خط التفسير بالمأثور، وإيرادِ ما جاء في تفسير الآية من أحاديث صحيحة وأقوال للصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ويمثل هذا الخط المفسرون: الحسن البصري، والسدي الكبير، ويحيى بن سلام البصري، والإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح.

الخط الثاني: خط التفسير البياني اللغوي، حيث كان المفسر يتحدث عن معاني كلمات الآيات، وعن فقه اللغات فيها، وعن الشواهد الشعرية لها. ويمثل هذا الخط نتاجُ العلماء الثلاثة: ابن قتيبة، وأبو عُبيدة، والفراء.

وكان بين علماء التفسير الذين يمثلون التيارين والخطين نوع من النفور والتنافس!!.

المرحلة الثانية: التفسير في طور التأصيل:

بعد أن تأسس التفسير في المرحلة السابقة تأسيساً متيناً، ونشأ نشأة منهجية صحيحة، انتقل إلى الطور الثاني، الذي هو خطوة منطقية موضوعية، وهو التأصيل الموضوعي لعلم التفسير، ليكتسب الأصالة الدقيقة الثابتة.

ومرحلة تأصيل علم التفسير كانت في نهاية القرن الثالث، وقام بالتأصيل العلمي المنهجي لهذا العلم إمامُ المفسرين بدون منازع، محمد بن جرير الطبري.

لا ننسى أن التفسير قبل ابن جرير الطبري كان يتنازعه تياران متنافسان:

تيار التفسير اللغوي، وتيار التفسير الأثري.

وقلما كان المفسر يقدم اجتهاداته واستنباطاته من الآيات، وصاحب التفسير اللغوي كان لا يلتفت إلى الأقوال المأثورة في التفسير، وصاحب التفسير الأثري كان لا يلتفت إلى المسائل اللغوية.

فلما جاء الإمام الطبري جمع بين التيارين السابقين: التفسير اللغوي والتفسير الأثري، وأضاف لهما استنباطاته وتوجيهاته ونظراته.

وهو بعمله هذا أرسى دعائم منهج متفرّد في التفسير، يمكن أن نسميه «المنهج الجامع»، وفسّر الطبري القرآن كله، سورة سورة، وآية آية، وجملة جملة، وفقَ هذا المنهج الجامع.

ولقد قام المنهج الجامع الأصيل في التفسير على ثلاث أسس منهجية موضوعية، يمكن ملاحظتُها في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

الأول: تفسير القرآن على أساس فقه اللغة، ببيان معاني الكلمات والجمل والآيات، وتقديم تحليلات وتوجيهات بيانية بلاغية لغوية، والاستشهاد بالشواهد الشعرية، وإجراء نقاشات لغوية مع أئمة اللغة والبيان.

وقد استفاد الطبري من «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، و«معاني القرآن» للفراء، وكانت استفادته من كتاب الفراء أكثر.

الثاني: تفسير القرآن على أساس الأقوال المأثورة، حيث كان الطبري يفسر القرآن بالقرآن، ثم بحديث رسول الله ﷺ، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم بأقوال أتباع التابعين.

وكان يورد هذه الأقوال بأسانيدها المكرَّرة، ويُجري حولها نقاشات، ويرجح المناسب منها.

وقد جمع في تفسيره معظم ما قاله العلماء من قبله من الأقوال المأثورة في التفسير، بحيث كان تفسيره «مستودعاً» لهذه الأقوال.

الثالث: تقديم استنباطاته وتأويلاته وآرائه المستمدة من الآيات، حيث كان يقوم بتدبر الآيات، ويمعن النظر في معانيها، ويستخرج منها بعض ما توحي له من معانٍ واستنباطات ودلالات.

ونلاحظ أن هذه الخطوة الثالثة منه، تأتي في ترتيبها المناسب، حيث كان يسبقها ثمرة علمه اللغوي البياني، ثم ثمرة علمه الروائي الأثري، فتأتي استنباطات الطبري نتاجاً

علمياً موضعياً منهجياً، وتكون صادرة عن خلفية علمية منهجية، ولهذا كان معظمها صحيحاً صائباً.

هذه الأسس الثلاثة: اللغة، الأثر، الاستنباط، هي التي أصّل بها الإمام الطبري دعائم منهجه الفريد: «المنهج الجامع في التفسير»، وعلى أساس هذا المنهج العلمي قام الإمام الطري بتأصيل التفسير تأصيلاً علمياً منهجياً، واستقرّ التفسير على يدي الإمام الطبري.

ولأجل هذا كان الإمام الطبري هو رائد المنهج الجامع في التفسير وهو وحده الذي يمثل التفسير في طور التأصيل، ولهذا كان إمامَ المفسرين بدون منازع.

وعلى كثرة المفسرين الذين جاؤوا بعد الطبري ووصلتنا تفاسيرُهم، فإننا لا نجدُ أحداً منهم يوازي الطبري أو يماثله، وبقي الطبري رائداً سابقاً لمن جاء بعده من المفسرين!! .

المرحلة الثالثة: التفسير في طور التفريع:

انتقل المفسرون الذين جاؤوا بعد الطبري بالتفسير إلى التفريع والتنويع، فبينما كان الطبري يؤَصّل للتفسير، ويُرسي دعائم المنهج الجامع في التفسير، فقد سار المفسرون اللاحقون في مسارٍ جديد، ويا ليتهم نسجوا على منوال الطبري، واقتدوا به، والتزموا منهجه، وجمعوا في تفاسيرهم بين اللغة والأثر والاستنباط، بتنسيق وتكامل.

صار المفسرون يتوسعون ويستطردون في تفاسيرهم، ويوردون الكثير من المسائل والمباحث، التي لا تتصل بالتفسير اتصالاً وثيقاً، وبهذا انتقل المفسرون من التأصيل المنهجي إلى «التفريع التثقيفي».

وبينما كان الطبري يفسر وفق «المنهج الجامع» القائم على اللغة والأثر والاستنباط، كان المفسرون اللاحقون يفسرون وفق «المنهج الغالب» في التفسير.

لقد كان كل مفسر يفسر القرآن وفقَ العلم الذي مهر فيه، والتخصص الذي تميز به، فالمتخصص في اللغة غلب على تفسيره مباحث اللغة والبيان، والمتخصص في الفقه

والأحكام غلب على تفسيره هذا اللون، والمتخصص في الأثر والرواية غلب هذا اللون على تفسيره، والمتخصص في المباحث العقلية والكلامية، غلبت هذه المباحث على تفسيره.

وبذلك تحوّل التفسير من المنهج الجامع إلى المنهج الغالب، وبذلك انتقل التفسير من طور التأصيل إلى طور التفريع.

لا يعني هذا أن المفسرين كانوا مخطئين في هذه الوجهة التي اتجهوا بالتفسير إليها، أو أنهم كانوا جُناةً جنَوا على التفسير، فقد كانوا مجتهدين في سيرهم، وكانوا أهلَ علم ومعرفة، جزاهم الله على جهودهم واجتهاداتهم خير الجزاء. إنما نحن نرصد حركة التفسير في مسيرتها التاريخية.

هذه المرحلة طالت تاريخياً، وامتدت عدة قرون، حيث استمرت من بداية القرن الرابع - لأن الطبري توفي سنة ٣١٠هـ - حتى بداية العصر الحديث، أي أن مدة هذه المرحلة حوالي عشرة قرون.

أشهر تيارات ومدارس التفسير في هذه المرحلة خمسة:

١- مدرسة التفسير بالمأثور: حيث كان يغلب على تفاسير مفسري هذه المدرسة إيراد الأقوال المأثورة، سواء كانت أحاديث، أو أقوال صحابة، أو تابعين، أو علماء سابقين.

وكان مفسِّرو هذه المدرسة يُكثرون من هذه الأقوال، ويفرِّعون فيها، ولم يلتزموا بإيراد ما صحّ منها.

ومن التفاسير التي تمثل هذه المدرسة: الدرُّ المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي، وبحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، والكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي، وفتح القدير للشوكاني.

٢- مدرسة التفسير البياني: حيث كان يغلب على تفاسير مفسري هذه المدرسة التحليلات البيانية واللغوية والبلاغية، وكانوا يتوسعون في هذه المباحث، ويكثرون من المناقشات حولها، ويستطردون استطراداتٍ بعيدة أحياناً، وقلّما كانوا يتحدثون عن الروايات والأقوال المأثورة.

ومن التفاسير التي تمثل هذه المدرسة: الكشاف للإمام الزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان، والدرُّ المصون للسمين الحلبي.

٣- **مدرسة التفسير العقلي، أو بالرأي المقبول**: حيث كان يغلب على تفاسير مفسري هذه المدرسة المباحث العقلية، والمسائل الكلامية، وكان المفسرون يفرِّعون وينوِّعون ويستطردون ويتوسعون في هذا الميدان، على حساب الميادين الأخرى.

ومن التفاسير التي تمثل هذه المدرسة: التفسير الكبير للإمام الرازي، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للقمي النيسابوري، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي.

٤- **مدرسة التفسير الفقهي**: حيث كان يغلب على تفاسير مفسري هذه المدرسة القضايا الفقهية، وما تقرره من أحكام شرعية، وكانوا يقفون طويلاً أمام الآيات التي تتضمن الأحكام، ويذكرون المذاهب الفقهية المختلفة في فهم هذه الآيات، واستنباط الأحكام منها، وحُجَجَهم في ذلك الاستنباط، وكان كل مفسر ينتصر لترجيحات مذهبه الفقهي.

ومن التفاسير التي تمثل هذه المدرسة: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي المالكي، وأحكام القرآن لابن العربي المالكي، وأحكام القرآن للجصاص الحنفي، وأحكام القرآن لإلْكِيَا الهراسي الشافعي.

٥- **المدرسة القريبة من المنهج الجامع**: كان مفسرو هذه المدرسة قريبين من المنهج الجامع في التفسير، الذي أسسه الإمام الطبري، وكانوا يجمعون في تفاسيرهم بين الأسس الثلاثة المنهجية، اللغة، الأثر، الاستنباط.

لم يجمعوا بين هذه الأسس كما جمع الطبري، ولم ينسقوا بينها كما نسّق الطبري، وإنما حاولوا الاقتداء بالطبري، وبذلوا في هذا جهداً جيداً، فاقتربوا من منهج الطبري الجامع.

ولذلك اعتبرنا هذه المدرسة قريبة من المنهج الجامع، وإن لم تلتزم به وتمثله تماماً.

ومن التفاسير التي تمثل هذه المدرسة: جامع التفسير للإمام الراغب الأصفهاني، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، وزاد المسير لابن الجوزي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.

المرحلة الرابعة: التفسير في طور التجديد:

بقي المفسرون يفرِّعون ويتوسعون في تفاسيرهم، كل وفق المدرسة التي انتمى إليها، وعلى أساس التخصص الذي مهر فيه، وبقوا يفسرون على أساس المنهج الغالب في التفسير، حتى جاء العصر الحديث.

ونرى أن التفسير في العصر الحديث قد انتقل إلى مرحلة جديدة، وهي مرحلة «التجديد».

ونعني بالتجديد في التفسير، التجديدَ الصحيح السليم، المنضبطَ بالضوابط العلمية، الملتزمَ بالأسس المنهجية، التجديدَ القائم على الإبداع والتحسين والجِدَّة، ولا نعني به الخروجَ على القواعد والضوابط والأسس، والانفلات والفوضى، والقولَ في القرآن وفقَ الهوى، وتحريفَ معاني الآيات ودلالاتها، لتوافق مقررات الغربيين أو الشرقيين.

يبدأ العصر الحديث في التفسير بظهور الإمام محمد عبده، الذي أرسى أسس المدرسة العقلية الاجتماعية في التفسير، وقد نخالفه في بعض توجهاته وأفكاره في مدرسته التفسيرية، وقد نراه مخطئاً في بعضها، لكننا نسلم أن محمد عبده قد أحدث هزة وتجديداً في الطرق السابقة في التفسير، وكان لمحمد عبده تلاميذ في التفسير، أخذوا منهجه والتزموا به، مع بعض إضافات منهم، وفي مقدمة هؤلاء، الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ أحمد مصطفى المراغي.

وبدأ العمل الحركيُّ الدعوي الإسلامي بعد إلغاء الخلافة الإسلامية، وصارت هناك حركات عاملة في حقل العمل الإسلامي، وانتمى إلى هذه الحركات علماء ومفكرون، وقدّم بعضهم تفاسير رائعة للقرآن الكريم، وكان في مقدمة هؤلاء سيد قطب في تفسيره الرائد: في ظلال القرآن.

ومن التفاسير المعاصرة التي فيها تجديد وتطوير وإضافات: محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي، وتفسير القرآن الحكيم – المشهور بتفسير المنار – لمحمد رشيد رضا، لكنه لم يتم تفسيره، حيث توقف به عند تفسير سورة يوسف.

ومن هذه التفاسير المعاصرة أيضاً: تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والأساس في التفسير لسعيد حوّى.

لكن أهم التفاسير المعاصرة، التي فيها جدَّة وإضافة: تفسر المنار لرشيد رضا، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب.

وإذا كان لنا أن نشير إلى أهم التفاسير التي لا يستغني عنها طلبةُ العلم، الناظرون في القرآن، فإننا نختار أهم تفسير في كل مدرسة، مما سبق الحديث عنه.

أهم التفاسير هي: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، والكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والتحرير التنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب.

المبحث الثالث

أنواع التفسير وموقع الموضوعي منها

يجب أن نفرق بين مدارس التفسير وتياراته وبين أنواع التفسير، فمدارس التفسير – التي تكلمنا عنها في المبحث السابق – هي مناهج المفسرين في تفسيرهم لكتاب الله.

أما أنواع التفسير فهي الخطط والتفصيلات والأساليب التي عرض المفسرون تفاسيرهم من خلالها، وطبّقوا مناهجهم عليها.

أنواع التفسير أربعة:

الأول: التفسير الإجمالي: وهو تفسير يقوم على الإجمال والإيجاز والاختصار، حيث يقوم المفسر بتفسير القرآن كله، لكن يقدم المعنى الإجماليَّ للآيات، بدون توسع أو تفصيل، أو تطويل في التحليل، وبدون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه.

ومن التفاسير الإجمالية للقرآن: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي النيسابوري، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وتفسير الجلالين للسيوطي والمحلي، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف.

الثاني: التفسير التحليلي: حيث يقف المفسر أمام كل آية، ويقوم بتحليلها تحليلاً موسعاً مفصلاً، ويتحدث أثناء التحليل عن مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل، في العقيدة واللغة والنحو والبلاغة، وفي الروايات والأخبار والقراءات، وفي الأحكام والتشريعات، وفي الخلافيات والمناقشات والأدلة والبراهين.

ويقدم المفسر في ذلك ثقافة موسوعية منوعة شاملة.

هناك تفاسير متوسطة الحجم والكم، مثل تفسر الزمخشري، وتفسير البيضاوي، وتفسير النسفي، وتفسير ابن جُزَيّ الغرناطي.

وهناك تفاسير مفصلة أكثر، مثل تفسير ابن كثير، وتفسير ابن عطية، وتفسير أبي السعود، وتفسير القاسمي.

وهناك تفاسير موسّعة كبيرة الحجم، مثل تفسر الطبري، وتفسير الرازي، وتفسير الآلوسي، وتفسير البقاعي، وتفسير ابن عاشور.

ويجمع بين هذه التفاسير كلها، أنها تفاسير تحليلية، على اختلاف مناهجها والمدارس التي انتمى لها مفسِّروها.

الثالث: التفسير المقارن: يقوم الباحث فيه بإجراء مقارنات بين عدة مفسرين، على اختلاف مناهجهم، حيث يجمع بين تفسيرهم لسورة قصيرة، أو مجموعة آيات، أو موضوع من موضوعات الإيمان أو الفقه أو اللغة، وذلك ليتعرّف على منهج كل مفسر، وطريقته في تناول موضوعه ومدى التزامه بمنهجه وسيره على خطوات طريقته، ثم يقارن بينه وبين المفسرين الآخرين في ذلك، ثم يعرض عمل هؤلاء المفسرين على الميزان الصحيح، في تحديد أحسن طرق التفسير.

وبعد هذا التعرف وهذه المقارنة يسجل النتيجة التي خرج بها، فيحكم لهذا المفسر أو عليه، يحد موقعه بين المفسرين الآخرين.

وهذه المقارنة لا تشمل تفسير القرآن كله، لأن هذا غير وارد، إنما تكون خاصة بسورة قصيرة، أو موضوع معين.

قد نقارن بين الزمخشري والرازي والقمي والبيضاوي والنسفي وأبي السعود والآلوسي في تفسيرهم لآيات زيادة الإيمان، أو آيات رؤية الله في الآخرة، وقد نقارن بين الطبري والرازي والزمخشري وابن كثير في الآيات التي تتحدث عن صفة العلو لله، أو عن استوائه على عرشه، أو عن السحر، أو عن أحكام الصيام.

الرابع: التفسير الموضوعي: وهو الذي سنتحدث عنه في المباحث التالية:

والفرق بين التفسير الموضوعي والأنواع الثلاثة السابقة، أن الثلاثة السابقة تعتمد على تفسير القرآن كاملاً، آية آية، سورة سورة، وفق ترتيب المصحف، بينما يهتم الموضوعيُّ بمتابعة الموضوع الخاصّ، والبقاء معه، وعدم الخروج عنه إلى موضوعات أخرى.

المبحث الرابع
تعريف التفسير الموضوعي وأهم المؤلفات فيه

المطلب الأول
تعريف التفسير الموضوعي

«التفسير الموضوعي» مركّب من كلمتين.

أما «التفسير» فقد سبق أن تكلمنا على تعريفه، فهو علم يختص بحُسْن فهم معاني القرآن، وبيانها وتوضيحها.

وأما «الموضوعي» فإنه نسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق من الوضع.

«والوضْعُ: جعْلُ الشيء في مكانٍ ما، سواء كان ذلك معنى الحطِ والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان..» .

الأول: وَضْعٌ ماديّ حسيّ، ومنه: وَضْعُه على الأرض، بمعنى حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

الثاني: وضع معنوي، ومنه: الوضيع، وهو الدنيء المهان الذليل، الذي قعدت به همته أو نسبه، فكأنه ملقى على الأرض، موضوع عليها، لا يفارق موضعه الذي التصق به.

والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مغادرته.

وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين، وموضوع محدد من موضوعات القرآن، يبقى معه، ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ منه[1].

---

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لأستاذنا الدكتور مصطفى مسلم: ١٥.

مصطلح «التفسير الموضوعي» مصطلح معاصر، استخدمه المفسرون والباحثون المعاصرون، وأطلقوه على الأبحاث والدراسات التي تتناول موضوعاً من موضوعات القرآن

وبما أنه مصطلح معاصر، فقد أورد من كتبوا فيه عدة تعريفات له، منها ما هو مختصر، ومنها ما هو مطوّل، ومنها ما ينطبق على لون من ألوان التفسير الموضوعي، ومنها ما ينطبق على أكثر من لون.

وقد أورد أستاذنا الدكتور مصطفى مسلم خمسة تعريفات معاصرة لهذا المصطلح.

ومالَ الأستاذ مسلم إلى ترجيح التعريف الذي يقول: «التفسير الموضوعي: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية، من خلال سورة أو أكثر»[1].

ومن التعاريف التي أوردها الأستاذ مسلم:

«وعرَّفه بعضهم بقوله: هو جَمْع الآيات المتفرقة في سور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد، لفظاً أو حكماً، وتفسيرُها حسب المقاصد القرآنية».

إن التفسير الموضوعي علم، له قواعد وأسس وأصول، وله منهج وطريقة يلتزم بها الباحث. وسنفصل ذلك فيما بعد إن شاء الله.

يقوم الباحث بجمع الآيات التي تبحث في موضوع واحد، أو مصطلح واحد، من مختلف السور، سواء كانت هذه الآيات تتحدث عن نفس المصطلح، أو تتحدث عن مصطلحات وألفاظ مقاربة له، وهذا معنى قوله: «لفظاً أو حكماً».

وبعد ذلك يقوم الباحث بتفسير هذه الآيات تفسيراً موضوعياً وليس تفسيراً تحليلياً، وذلك حسب المقاصد القرآنية، ليحققَ مقاصد القرآن وأهدافه الأساسية، من خلال بحثه الموضوعي في تلك الآيات.

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي: ١٦.

المطلب الثاني
أهم المؤلفات في التفسير الموضوعي

بما أن التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وبما أن الكلام عن طبيعته وأهميته وطريقة السير فيه معاصر، لذلك كانت المؤلفات التي تتحدث عنه معاصرة.

ونعني بها تلك المؤلفاتِ التي تبحث في مناهج البحث في التفسير الموضوعي.

ومن أهم المؤلفات المعاصرة في التفسير الموضوعي:

١- مباحث في التفسير الموضوعي: لأستاذنا الدكتور مصطفى مسلم. وقد طبعته دار القلم بدمشق عام ١٩٨٩.

٢- المدخل إلى التفسير الموضوعي: للدكتور عبدالستار فتح الله السعيد، وقد طبعته دار الطباعة والنشر الإسلامية في مصر.

٣- البداية في التفسير الموضوعي: للدكتور عبدالحي الفرماوي، طبع في مصر عام ١٩٨٤.

٤- الفتوحات الربانية في التفسير الموضوعي: للدكتور الحسيني أبو فرحة، طبع في مصر عام ١٩٨٧.

٥- دراسات في التفسير الموضوعي: للدكتور أحمد العمري طبع في مصر.

٦- دراسات في التفسير الموضوعي: للدكتور زاهر عواض الألمعي، طبع في الرياض.

٧- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: للدكتور أحمد السيد الكومي، والدكتور محمد أحمد قاسم، طبع في مصر.

٨- المدرسة القرآنية: لمحمد باقر الصدر، طبع في بيروت.

٩- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم، طبع في عمان عام ١٩٩١.

ولعل من أجود هذه المؤلفات كتاب الدكتور مصطفى مسلم، وكتاب الدكتور عبدالستار السعيد.

ونلاحظ أن كلّ مؤلِّفٍ من المؤلفين الأفاضل كان يقسم مؤلَّفه عن التفسير الموضوعي إلى قسمين:

القسم الأول: يقدم فيه دراسة نظرية منهجية، يتحدث فيه عن تعريف التفسير الموضوعي، وأهميته، وألوانه، ومناهج بحثه.

والقسم الثاني: تطبيقي، يورد فيه نماذج وأمثلة وتطبيقات عملية، على موضوعات ومصطلحات وسور القرآن الكريم.

المبحث الخامس

التفسير الموضوعي بين السابقين والمعاصرين

قلنا: إن «التفسير الموضوعي» مصطلح معاصر، وحَقْلُ بحث معاصر، قام به العلماء والباحثون المعاصرون في تدبرهم للقرآن.

وهذا يعني أن العلماء والمفسرين السابقين لم يبحثوا في التفسير الموضوعي، بالطريقة المعروفة لنا في هذا العصر.

بدايات التفسير الموضوعي عند السابقين:

إن عدم بحث السابقين للتفسير الموضوعي بالطريقة المعاصرة، لا يعني أن لا يكون للتفسير الموضوعي بداياتٌ عندهم.

فهناك بعض النظرات لبعض علماء التفسير في آيات القرآن، تصلح أن تكون نواةً للتفسير الموضوعي، وأن تكون لبناتٍ أولية، وبداياتٍ تمهيدية، توصِل إلى هذا العلم عند علماء العصر الحاضر.

ويمكن أن نرصد البداياتِ التالية، التي تصلح أن تكون لبناتٍ تمهيدية لهذا العلم المعاصر:

أولاً: تفسير الرسول ﷺ لبعض آيات القرآن:

وذلك جواباً منه على أسئلة الصحابة، حيث كان يصوِّب لهم فهمَهم للآية، أو يزيل لهم إشكالاً حولها، وكان في جوابه ﷺ يفسر القرآن بالقرآن، حيث يستشهد بآية أخرى في توضيح معنى الآية موضوع السؤال.

من الأمثلة على ذلك ما رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: لما نزل قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟

فقال ﷺ : «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣]» [1].

فالرسول ﷺ أزال اللبس عن آيةِ سورة الأنعام، بذكر آية سورة لقمان.

لقد حمل الصحابةُ الظلمَ على المعصية، وهم يعلمون أنهم غيرُ معصومين، فإذا كان الظالم، أي: العاصي لا ينجو، فلن ينجوَ أحد من الصحابة.

فذكر لهم الرسول ﷺ آيةَ سورة لقمان التي تخصصُ الظلمَ في هذا الموطن بالشرك، لأن لقمان قال لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾.

فالمراد بالظلم في آيةِ سورة الأنعام هو الشرك.

إن هذا التفسير من رسول الله ﷺ ، هو تفسير للقرآن بالقرآن، وهو لَبنة من لَبناتِ التفسير الموضوعي اللاحقة.

ثانياً: ابن عباس يجمع بين آيات متعارضة في الظاهر:

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ:

فقد قال الله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]. وقال الله: ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات:٢٧]. وقال الله: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ [النساء:٤٢].

وقال الله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] فقد كتموا في هذه الآية.

وقال الله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٢٧-٣٠].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢٤) (١٩٧) في كتاب الإيمان.

فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض. وقال الله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت:٩-١١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء.

وقال الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦] وقال الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨]، وقال الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤] فكأنه كان، ثم مضى.

فقال ابن عباس: «قوله: «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» في النفخةِ الأولى، وقوله: «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» في النفخة الثانية.

وإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، عند ذلك يقول المشركون: تعالوا نقول: «والله ربنا ما كنا مشركين». فيختم الله على أفواههم. فتنطق أيديهم، عند ذلك يعرفون أن الله لا يُكتم حديثاً، وهذا قوله: «ولا يكتمون الله حديثاً».

وخلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحْوها بأن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجِمال والآكام وما بينهما، في يومين آخرين.

فذلك قوله: «والأرض بعد ذلك دحاها» وقوله: «خلق الأرض في يومين»، فجُعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين.

وقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» إن الله سمى نفسَه بذلك، وذلك قوله، وهو لم يزل كذلك، فإن الله لم يُرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد.

فلا يختلف عليك القرآنُ، فإن كُلاً من عند الله.. »[1].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة، قبل الحديث (٤٨١٦).

ونقل ابن حجر في شرح هذا الأثر أن الذي سأل ابن عباس عن هذه الآيات هو نافع بن الأزرق، رأس الخوارج الأزارقة.

كما نقل ابن حجر قول نافع لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ. أي: تشكل وتضطرب، لأن بين ظواهرها تدافعاً.

فقال له ابن عباس: ما هذا؟ شكٌّ في القرآن؟

فأجاب نافع: ليس بشكّ، ولكنه اختلاف.

فقال له ابن عباس: هاتِ ما اختلف عليك.

وقد وضّح ابن حجر خلاصة الأسئلة والأجوبة، فقال:

«وحاصل ما وقع السؤال عنه أربعة مواضيع:

الأول: نفي المساءلة يوم القيامة، وإثباتها.

الثاني: كتمان المشركين حالهم، ثم إفشاؤه.

الثالث: خلق السموات والأرض، أيهما كان أولاً.

الرابع: الإتيان بحرف «كان» الدال على الماضي، مع أن الصفة لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس:

عن الأول: أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث: أن الله بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوّة، ثم خلق السماء فسوّاها في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

وعن الرابع: بأن «كان» وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أن الله لم يزل كذلك..» [1].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٨: ٥٥٧-٥٥٨.

وقد أطلنا في ذكر الأسئلة الموجهة لابن عباس، وجوابه عنها، وجمْعه بين الآيات المتعارضة في الظاهر، ليعلم القارئ أن الصحابة كانوا على علم أصيل بتأويل القرآن، وتوجيه المتشابه من آياته، وعلى قدرة في الجمع بين هذه الآيات، عندما يتحتم ذلك عليهم، وتوجه الأسئلة بذلك إليهم.

إن هذه الواقعة بين نافع بن الأزرق وابن عباس مثال واضح على البدايات الصحيحة للتفسير الموضوعي زمن الصحابة وإن لم يكن بالطريقة المعروفة لنا في العصر الحاضر! .

ومع اعتمادنا لتوجيه ابن عباس رضي الله عنهما لتلك الآيات، إلا أن هذه الآيات تقبل وتحتمل توجيهاً آخر، ليس هذا موضع تقريره! .

ثالثاً: إفراد بعض علوم القرآن بمؤلفات خاصة:

خطا علماء التفسير خطوة أخرى، أبعد من الخطوة السابقة، وهي تمهيد للتفسير الموضوعي بالمفهوم الذي نعنيه.

حيث قام بعض العلماء بجمع الآيات القرآنية، التي تندرج ضمن مبحث من مباحث علوم القرآن وإفراد مؤلف خاص بها.

فقد ألّف قتادة بن دعامة السدوسي كتاباً في الناسخ والمنسوخ في القرآن، وتوفي قتادة في (١١٨هـ). كما ألّف أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (توفي في ٢٢٤هـ) كتاباً في الناسخ والمنسوخ أيضاً. وألّف يحيى بن سلام البصري (توفي في ٢٠٠هـ) كتاباً في الأشباه والنظائر. وألّف أبو عبيدة معمر بن المثنى (توفي في ٢٠٩هـ) كتاباً في مجاز القرآن. وألّف علي ابن المديني (توفي في ٢٣٤هـ) كتاباً في أسباب النزول. وألّف ابن قتيبة (توفي في ٢٧٦هـ) كتابه في تأويل مشكل القرآن. وألّف أبو بكر السجستاني (توفي في ٣٣٠هـ) كتاباً في غريب القرآن. وألّف أبو بكر الجصاص الحنفي (توفي في ٣٧٠هـ) كتاباً في أحكام القرآن. وألّف الراغب الأصفهاني (توفي ٤٢٥هـ تقريباً) كتاباً في مفردات ألفاظ القرآن. وفي القرن السادس ألّف إلْكِيَا الهرّاسي الشافعي (توفي في ٥٠٤هـ) كتاباً في أحكام القرآن. وألّف القاضي أبو بكر بن العربي المالكي (توفي في ٥٤٣هـ) كتاباً في أحكام القرآن.

وفي القرن السابع ألّف العز بن عبدالسلام (توفي في ٦٦٠هـ) كتاباً في مجاز القرآن.

وفي القرن الثامن ألّف ابن القيم (توفي في ٧٥١هـ) كتاباً في أقسام القرآن.

وهكذا تتابع العلماء على التأليف في موضوعات خاصة من علوم القرآن على مدار القرون، وهذه المؤلفات تصلح أن تكون لَبناتٍ في التفسير الموضوعي، وإن لم تكن من التفسير الموضوعي بالمعنى الذي نريده[1].

دراسات قرآنية معاصرة:

أقبل الباحثون والكاتبون المعاصرون على القرآن الكريم، ووقفوا أمام موضوعاته وقفاتٍ مطوَّلة، وألفوا عدداً من الدراساتِ القرآنية المعاصرة، وكثرت هذه الدراسات القرآنيةُ المعاصرة كثرةً ملحوظة، وما زالت هذه الدراسات القرآنيةُ تتابع! .

ولعل الظرفَ الخاصَّ الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر، هو الذي دفعَ المفكرين والباحثين إلى الإقبال على القرآن، والكتابة في موضوعاته.

إن من أبرز سمات هذا العصر أنه شهد التآمر على الخلافة الإسلامية وهدْمَها، وهجمة أعداء الإسلام من الصليبيين واليهود وغيرهم على الإسلام والمسلمين، وغربة الأجيال الجديدة من المسلمين عن مبادئ الإسلام وحقائق القرآن، وانتشار أفكارٍ مناقضة للقرآن بين المسلمين، ووجود حركاتٍ ودعوات وجماعات إسلامية تعمل على استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

هذه السماتُ دفعت بالعلماء والباحثين إلى الإقبال على القرآن، وإصدار دراسات قرآنية حوله.

وعندما نتكلم عن الدراسات القرآنية المعاصرة، القريبةِ من التفسير الموضوعي الذي نتكلم عنه، فإننا نعني تلك الكتبَ والدراسات الخاصة بموضوعاتٍ وأفكارٍ

---

(١) انظر في هذا الموضوع كاب: المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار السعيد: ٢٨-٣٣.
وكتاب مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم: ١٧-٢٢.

وحقائق وتوجيهات القرآن، والتي تدور حول القرآن، ولا تخرج عنه إلى باقي مصادر الإسلام الأخرى، كالحديث والفقه والعقيدة والتاريخ واللغة، وغير ذلك.

إذا بقي الكاتب مع القرآن وحقائقه فإن دراسته تكون دراسة قرآنية، أما إذا خرج الكاتب إلى الحديث أو العقيدة أو الفقه أو التاريخ، فإن دراسته تكون دراسة إسلامية، وليست دراسة قرآنية، لأنه يتلكم عن الإسلام بمفهومه الأشمل، وليس عن القرآن بمفهومه وموضوعه الأخص.

ولهذا نقرر أن الدراسات الإسلامية العامة الشاملة ليست دراسات قرآنية خاصة، وليست قريبة من التفسير الموضوعي، مع أنها صورة من صور الفكر الإسلامي المعاصر!.

من الدراسات القرآنية المعاصرة – وهي كثيرةٌ جداً – على سبيل المثال: «الإنسان في القرآن» و«المرأة في القرآن » لعباس محمود العقاد. ومنها «التفسير العلمي للآيات الكونية» لحنفي أحمد، ومنها «اليهود في القرآن» لمحمد عزة دروزة، ولعفيف طبارة. ومنها «خصائص التصور الإسلامي» و«مقومات التصور الإسلامي» و«معالم في الطريق» لسيد قطب. ومنها «ظاهرة النفاق في القرآن» لعبدالرحمن حبنكة الميداني. ومنها «متشابه القرآن دراسة موضوعية» للدكتور عدنان زرزور. ومنها «الإنسان في القرآن الكريم» للدكتور محمد لطفي الصباغ. وهكذا.

هذه الدراسات القرآنية ليست نماذج لدراسات تمثل التفسير الموضوعي، لأنها لا تسير على الخطة النموذجية للتفسير الموضوعي، ولا تلتزم بالمنهج الموضوعي للتفسير الموضوعي، ولهذا تعتبر دراسات قرآنية نافعة، تبحث عن بعض موضوعات القرآن، وتعرض بعض حقائق وتوجيهات القرآن!! .

لم يؤلف السابقون في التفسير الموضوعي:

من خلال هذا المبحث «التفسير الموضوعي بين السابقين والمعاصرين» ظهر لنا أن المفسرين والعلماء السابقين لم يبحثوا في التفسير الموضوعي، باعتباره علماً محدداً، له منهج وطريقة وخطة، مع أن بعض الباحثين اعتبروا بعض دراسات السابقين من باب التفسير الموضوعي.

قال الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابه «التفسير والمفسرون» عن التفسير الموضوعي عند السابقين: «وكذلك وُجِدَ من العلماء من ضيّق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة.

فابن القيم – مثلاً – أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن، سمّاه «التبيان في أقسام القرآن». وأبو عبيدة أفرد كتاباً للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني أفرد كتاباً في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس أفرد كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن، وأبو الحسن الواحدي أفرد كتاباً في أسباب نزول القرآن، والجصاص أفرد كتاباً في أحكام القرآن

وغير هؤلاء كثير من العلماء، الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن، يجمعون ما تفرق منه، ويُفردونه بالدرس والبحث..» [١].

ومع أن الدكتور الذهبي يعتبر تلك الدراسات القرآنية من التفسير الموضوعي، إلا أنها تدخل ضمن الدراسات في علوم القرآن، كما سبق أن أوردناها، وإذا جاز لنا قبولها ضمن التفسير الموضوعي، مع كثير من التساهل والتجوّز، فإنها تكون من التفسير الموضوعي، بمعناه العام الشامل القرآني، وليس بمعناه الخاص العلمي المنهجي.

ولهذا نحن مع أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات في تعقيبه على كلام الدكتور الذهبي السابق: «ولكن حتى هذه الكتب المؤلفة في موضوع واحد من موضوعات علوم القرآن، فإنها تنهج نفس المنهج التحليلي، الذي أشرنا إليه، وهو الكلام في جزيئات الآية، من لغة وصرف ونحو وبلاغة، وما إلى ذلك...

فإذا نظرنا إلى وحدة الموضوع، الذي يجمع الآيات المتعددة من سور مختلفة، أمكننا أن نعتبر مثل هذا العمل نوعاً من التفسير الموضوعي، مع شيء من التجوز.

وإذا نظرنا إلى الطريقة التي تُحلل فيها الآيات إلى جزئياتها، أمكننا أن نعتبر هذا من قبيل التفسير التحليلي..» [٢].

---

(١) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، ١:١٤٨-١٤٩.

(٢) التعريف بالقرآن الكريم، لأستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات، على الآلة الكاتبة: ١٤١.

وخلاصة هذا المبحث أن التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وأن البحث والكتابة فيه من باب تلبية حاجات مسلمي هذا العصر، وأن السابقين لم يعرفوه بالصورة التي نعرفها نحن الآن، وأنهم كانوا مشغولين بالتفسير التحليلي وفقَ ترتيب الآيات والسور في المصحف، وهذا لا يعيبهم، ولا يُنقص قدرَهم، لأنهم حققوا حاجات مسلمي عصرهم، ولا نطالبهم أن يرتقوا لمستوى حاجاتنا المتجددة!! .

المبحث السادس
بين التفسير الموضعي والتفسير الموضوعي

المطلب الأول
التفسير الموضعي والموضوعي

ذكرنا سابقاً أن التفسير من حيث مناهج وطرق المفسرين ينقسم إلى أربعة أقسام، وهي: التفسير التحليلي، والتفسير الإجمالي، والتفسير المقارن، والتفسير الموضوعي.

ويمكن أن نصنف هذه الأقسام الأربعة تصنيفاً آخر، أكثر شمولاً، فنجعل الأقسام الثلاثة الأولى مندرجة تحت عنوان جامع، وهو التفسير الموضعي، ونجعله مقابلاً للتفسير الموضوعي.

التفسير من حيث مناهجُ المفسرين نوعان: تفسير موضعي، وتفسير موضوعي:

التفسير الموضعي: «هو الذي يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم، متتبعاً ترتيب الآيات في سورها. وهذا اللون قد يكون بالمأثور، أو بالرأي المحمود، وقد يكون تحليلياً عند التفصيل، أو إجمالياً عند الاختصار، وقد يكون مقارَناً، إذا اتّبع المفسر منهج الموازنة.

والتفسير الموضوعي: هو الذي يلتزم فيه المفسر «موضوعاً» لا موضِعاً بعينه، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها، ويقيم منها بناءً متكاملاً، يقرر موقف القرآن من قضية ما..»[1].

التفسير التحليلي والإجمالي والمقارَن موضعي، لأن المفسر يبقى في موضع واحد لا يتجاوزه، ولا يتعدّاه إلى موضع آخر إلا بعد أن يكمله، فهو يبقى مع سورة البقرة حتى يأتي على تفسيرها، وعندما يقف مع «الوحدة الأولى» منها يبقى معها، ولا ينتقل إلى

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار السعيد: ١٧-١٨.

الوحدة الثانية إلا بعد الانتهاء منها، وعندما يفسر آية من آياتها فإنه لا يتجاوزها إلى الآية التالية إلا بعد الانتهاء من تفسيرها.

ولهذا صحّ إطلاق اسم «التفسير الموضعي» على هذا النوع من التفسير. وكل التفاسير السابقة – على مدار قرون التاريخ الإسلامي – هي من هذا اللون من التفسير، بحيث يمكن اعتبارها تفاسير «موضعية» للقرآن.

أما التفسير الموضوعي فهو المقابل للتفسير الموضعي، لأن الباحث أو المفسر، لا يبقى في موضع واحد من القرآن، سورةً أو وحدةً أو درساً أو آية، وإنما يأخذ الموضوع الذي يبحثه، ويقوم بجولة موضوعية، في السور والآيات، ويتعرف على كيفية معالجة السور المختلفة والآيات العديدة لهذا الموضوع، وهو في بحثه هذا لا يلتفت إلى أي موضوع آخر! .

ويمكن أن نطلق على التفسير الموضعي اسماً آخر، وهو التفسير التجزيئي. بينما نطلق على التفسير الموضوعي اسم التفسير التوحيدي.

قال الشيخ محمد باقر الصدر في كتابه «المدرسة القرآنية» عن التفسير التجزيئي: «ونعني بالاتجاه التجزيئي: المنهج الذي يتناول المفسِّر ضمن إطاره القرآن الكريم آيةً فآية، وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف.

والمفسر في إطار المنهج يسير مع المصحف، ويفسِّر قطعاته تدريجياً...»[1].

وقال الصدر عن التفسير التوحيدي:

«الاتجاه الثاني: نسميه الاتجاهَ التوحيديَّ أو الموضوعي في التفسير.

هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آيةً فآية، بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية، لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية..»[2].

---

(١) المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر: ٩.

(٢) المرجع السابق: ١٢.

ووجه تسمية التفسير الموضعي بالتجزيئي أن المفسِّر يقوم بتجزيء الآية، وتقسيمها إلى عدة جمل، ثم يتكلم على جُملها جملةً جملة، وقد يتكلم على كلماتها كلمةً كلمة.

ووجه تسمية التفسير الموضوعي بالتوحيدي أن المفسر يوحِّد الآيات المختلفة، التي تتحدث عن موضوع واحد، ويجمع بينها، ويستخرج حقائقها وإيحاءاتها المختلفة، بعد هذه النظرة التجميعية التوحيدية.

والخلاصة أن التفسير التحليلي قد يسمى التفسير الموضعي، وقد يسمى التفسير التجزيئي، وأن التفسير الموضوعي قد يسمى التفسير التوحيدي.

المطلب الثاني
الفرق بين التفسير الموضعي والموضوعي

الأَوْلى أن نسمي التفسير التحليليَّ التفسيرَ الموضعي، وأن نسمي التفسير المقابلَ له التفسير الموضوعي.

هناك فروق بين التفسير الموضعيِّ والتفسير الموضوعي، يمكن أن نذكر بعضها:

١ - المفسِّر في التفسير الموضعي ينظر في القرآن وسورِه وآياته، يبدأ منه، ويبقى معه، وينتهي به، يجلس أمام القرآن، ويتلقى منه، ويستمع إليه، ويسجل ما يتلقاه ويأخذه منه.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي يبدأ من الواقع الذي يعيش فيه، ويدرك حاجات الأمة والإنسانية في عصره، على مختلف جوانبها، حاجاتِها الفكرية والنظرية والعلمية والسلوكية والإنسانية والحضارية والسياسية والاقتصادية، وغير ذلك.

وبعدما يعي هذه الحاجات الواقعية، ويُحسِن تشخيصَها واستيعابَها، يتوجَّه إلى القرآن، ليتفاعلَ معه، ويتعلَّم منه، ويعرفَ رأيه في هذه الحاجات والقضايا الواقعية المعاصرة.

يجلس الباحث في التفسير الموضوعي أمام القرآن، جلسة إيجابية فاعلة، يحاور القرآن، ويستنطقه ويسأله، ويطلب من القرآن رأيه الإيجابيّ الصادقَ الصائب في القضايا والموضوعات، التي يعيشها الناس في واقعه وعصره، ويأخذ من القرآن حقائقه اليقينية القاطعة.

وبعد ما يتلقى عن القرآن الإجاباتِ العلمية الموضوعية الصائبة، يقوم بترتيب هذه الإجابات، ويقدمها لأمته، ليُصلحوا واقعَهم على أساسها.

إن الباحث في التفسير الموضوعي دائم الربط بين الواقع الذي تعيشه الأمة وبين القرآن، وهو يريد إصلاح الواقع على هذْيِ موضوعاتِ القرآن، ويدرك الأبعاد الواقعية للموضوعات القرآنية[1].

إن المفسر في التفسير الموضعي لا يلتفت لواقع أمته، ويبقى مع الآيات القرآنية شارحاً مفسِّراً محللاً مفصلاً.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي يُحسن الصلة بين الواقع وبين القرآن، ويدرك إيحاءات القرآن الواقعية، ويُصلح الواقع على هدْي القرآن، فهو يبدأ من حُسْن تشخيص حاجات الواقع، وينتهي إلى حُسْن تقديم العلاج القرآني لهذا الواقع! .

٢- المفسِّر في التفسير الموضعيِّ التحليلي يكتفي بتحليل الآيات وجُمَلها وتراكيبها، واستخراج دلالاتها التفصيلية الجزئية.

بينما المفسر في التفسير الموضوعي، يجمع بين هذه المدلولات التفصيلية، وينسّق بينها، ويَصل بين جزئياتها المفردة، وبين الكل العام الجامع لها، ويستخرج من مجموعها نظرية قرآنية واقعية متكاملة! .

يجمع المفسِّر في التفسير الموضوعي بين الدلالات التفصيلية المتفرقة عن النبوة، أو عن السنن الربانية، أو عن الحاكمية، أو عن العبادة، ليستخرج منها نظرية قرآنية متكاملة متناسقة عن النبوة، أو عن السنن الربانية، أو عن الحاكمية، أو عن العبادة.

أي أن التفسير الموضعي هو التمهيد واللَّبنات الأولى المتفرقةُ للتفسير الموضوعي المتكامل!![2].

(١) انظر: بيان الشيخ محمد باقر الصدر لهذا الفرق في المدرسة القرآنية: ١٨-٢٦.

(٢) انظر: المدرسة القرآنية للصدر: ٢٧.

٣- المفسِّر في التفسير الموضعي يقدم للمسلمين علماً تفسيرياً نظرياً، ومعلومات تفسيرية ثقافية، ومجالات علمية متنوعة، في العقيدة والحديث واللغة والبلاغة والنحو والفقه، وغير ذلك.

بينما المفسِّر في التفسير الموضوعي يقدم للمسلمين فكراً وحضارة، وحلولاً قرآنية لمشكلات واقعية، وحقائق قرآنية عن قضايا اجتماعية وحضارية.

فالعلاج والشفاء في التفسير الموضوعي أهم وأدق وأشمل.

٤- إذا كان التفسير الموضعيُّ التحليلي يخدم الآية والجملة والمفردة القرآنية، فإن التفسير الموضوعيَّ يخدم مهمة القرآن ورسالته ووظيفته في حياة المسلمين.

ويزيد تفاعل المسلمين مع القرآن، وقناعتهم بحقائقه، ودعوتهم إليه.

إن التفسير الموضوعي هو الذي يتناسب مع مقاصد القرآن وأوّلياته، ومنطلقاته الأساسية، ويخدمها، ويُحسن عرضها والدعوة إليها.

المطلب الثالث

الموضعي والموضوعي: مرحلتان متكاملتان

ليس معنى كلامنا عن الفروق بين التفسير الموضعي والتفسير الموضوعي، وتقريرنا أن التفسير الموضوعيَّ هو المتفقُ مع مقاصد القرآن وحاجات العصر الحاضر، ليس معنى هذا أن نزهدَ في التفسير التحليلي الموضعي، أو أن نتركه باعتباره تفسيراً تقليدياً، كان يناسب المسلمين السابقين، لكنه لا يناسب عصرنا! .

إن من يقول بهذا مخطئ، لا يُحسن فهم القرآن، ولا يعرف تفسيره! .

وإن من يخوض في التفسير الموضوعي بدون علم بالتفسير الموضعي، سيقع في أخطاء لا محالة، وسيحرِّف معاني وموضوعات القرآن.

إن التفسير الموضعيَّ شرطٌ للتفسير الموضوعي، وهو تمهيد له، فلا بد أن يسبقه.

إن النوعين من التفسير - الموضعي والموضوعي - مرحلتان متكاملتان، وخطوتان متتابعتان متدرِّجتان.

لا يجوز أن نخطو الخطوة الثانية، بمعزل عن الأولى، ولا يجوز أن نصل إلى المرحلة الثانية دون تحصيل المرحلة الأولى.

يجب على من أراد الخوض في التفسير الموضوعي أن يحقق ويُحصِّل التفسير الموضعيَّ أولاً، وأن يتمتع بعلمٍ تفسيريٍّ تحليلي، وأن يقرأ في كتب التفسير الموضعي، على اختلاف تياراتها ومدارسها.

وبعد أن يتمكن من هذه المرحلة، ويتزوّد من هذا الزاد، يخطو الخطوة الثانية، وينتقل إلى المرحلة الثانية، فينظر في موضوعات القرآن وحقائقه، مستصحباً علمَه التفسيريَّ التحليلي.

وعندما يجمع آياتِ موضوعه المختلفة، لا بد أن يطلع على تفسيرها عند أمهات كتب التفسير التحليلي الموضعي، مثل تفاسير: الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وسيد قطب.

وذلك ليكون فهمه للآيات وإيحاءاتها صائباً، وتدبُّرُه لها صحيحاً.

القرآن نزل بلسان عربي مبين فصيح معجز، فكيف يدرك موضوعاتِه، ويفهم حقائقَه، ويقف على حلوله وعلاجاته، من لم يفهم لغة القرآن وبلاغته وأساليبَ تعبيره؟ ومن لم يقف على المأثور الصحيح في تفسيره؟ ومن لم يتعلم معاني غريبه وأسباب نزول آياته. والناسخ والمنسوخ فيه؟ .

إن المفسر في التفسير الموضوعي لن يكتب في هذه الجوانب التفسيرية التحليلية، ولن يقدمها ضمن بحثه الموضوعي القرآني، ولن يُشغِل قُرّاءَه بهذه التحليلات والتفصيلات، لكنه يطلع عليها، ويعرفها، ويجعلها عدة ووسيلة له في حُسْن إدراك حقائق وموضوعات القرآن! .

قال الشيخ الصدر حول هذه المسألة: «إذن: فالتفسير الموضوعي في المقام هو أفضل الاتجاهين في التفسير.

إلا أن هذا لا ينبغي أن يكون المقصود منه الاستغناء عن التفسير التجزيئي، هذه الأفضلية لا تعني استبدال اتجاه باتجاه، وطرح التفسير التجزيئي رأساً، والأخذ بالتفسير الموضوعي.

وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه، لأن التفسير الموضوعي ليس إلا خطوةً إلى الأمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي، ولا معنى للاستغناء عن التفسير التجزيئي باتجاه الموضوعي.

إذن فالمسألة هنا ليست مسألة استبدال، وإنما هي مسألةُ ضَمٍّ الاتجاه الموضوعي في التفسير إلى الاتجاه التجزيئي، يعني افتراض خطوتين: خطوة هي التفسير التجزيئي، وخطوة أخرى هي التفسير الموضوعي..» [1].

(١) المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر: ٣٧-٣٨.

المبحث السابع
أسباب ظهور التفسير الموضوعي ومدى أهميته

بيّنا فيما سبق أن التفسير الموضوعي – بالمفهوم العلمي المنهجي الموضوعي – علم تفسيريٌّ معاصر، لم يبحث فيه السابقون على هذه الطريق، وأنه يلبي حاجات المسلمين المعاصرة، وذكرنا أنه يجب أن ينطلق من التفسير الموضعي ويتمّمه، فهما متكاملان، وليسا متغايرين أو متناقضين.

إن التفسير الموضوعيَّ هو «تفسير المستقبل»، وما زال البحث فيه في بداياته الأولى، سواء في الجانب النظري التقعيدي المنهجي، أو في الجانب التطبيقي الميداني العملي.

المطلب الأول
أسباب ظهور التفسير الموضوعي المعاصر

مع كثرة التفاسير السابقة، إلا أنها لم تأتِ على كل معاني القرآن، ومع جهود علمائنا المفسرين السابقين الجليلة، ونظراتِهم النافذة الثاقبة في القرآن، إلا أنهم لم يستوعبوا كلَّ ما في القرآن.

لقد أخذوا من القرآن ما أخذوا من كنوز وجواهر ولآلئ، وبقي القرآن بحراً زاخراً بالكنوز واللآلئ والجواهر، ومهما اغترف العلماء اللاحقون من مَعين القرآن، فإنه يبقى غنياً غامراً، وكما قال عنه علي بن أبي طالب ﷺ: «لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدِّ».

كم ترك علماؤنا السابقون لنا من معاني ودلالات وميادين القرآن، مع نفاسة وأصالة ما قدّموا لنا! وكم سنترك نحن للأجيال القادمة من هذه المعاني والدلالات، وكم سيتركون هم لمن بعدهم منها!! .

ينطبق على كل العلماء في تعاملهم مع القرآن القول القائل: كم ترك الأول للآخر! .

و«كم» هنا هي التكثيرية الخبرية، وليست الاستفهامية! .

ويمكن أن نستخلص هنا أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي:

١- الطبيعة العامة لهذا العصر، حيث شهد تحكم «الجاهلية» في العالم، وقيادتها للبشرية، وانتفاش الكفر، وانتشار الأفكار والآراء الجاهلية الكافرة، ووصول هذه الأفكار إلى عقول ومجتمعات المسلمين، وقيام الكفار بتصعيد الغزو الفكري ضد المسلمين.

فدعت هذه الحاجة المفكرين والعلماء الإسلاميين المعاصرين إلى التوجه إلى القرآن وتدبره، لاستخراج حقائقه ودلالاته، التي يتم بها تفنيد الأفكار والمبادئ الغازية الجاهلية ومواجهتها، ووقاية المسلمين من شرورها.

وهذا حُسْنُ إدراك من المفكرين المعاصرين لمهمة القرآن الجهادية، في مواجهة الأفكار الجاهلية، المتمثلة في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

٢- الوضع العام المحزن للمسلمين في هذا العصر، حيث شهد العصر الحديث انحسار الإسلام عن واقع المسلمين، إذ تم القضاء على الخلافة الإسلامية، وأقصي الإسلام عن الحكم والتوجيه، ونشأت مناهج الحياة في بلاد المسلمين على أسس غير إسلامية، وأصبح الإسلام غريباً في مؤسسات ومجتمعات المسلمين.

وقد دفعت هذه الظاهرة الدعاة العلماء إلى العودة إلى القرآن، ودعوة المسلمين إلى الالتزام به، وتطبيق توجيهاته ومبادئه في حياتهم.

ولذلك قاموا بدراسة موضوعات القرآن، وتقديمها للمسلمين، ليفهموها ويستوعبوها، ثم ليترَبَّوا عليها، ويلتزموا بها.

٣- مواكبة التطور العلمي المعرفي في هذا العصر، حيث شهد العصر الحديث توجه العلماء والباحثين إلى مزيد من التخصص الدقيق، والتعمق المنهجي العلمي، وتجميع الجزئيات المتفرقة في «أطر» عامة موحدة.

لم يعد المفكرون المعاصرون مهتمين بالتفصيل والتجزيء، وتناول المسائل العلمية والموضوعات الفرعية، بصورة فردية، منعزلة عن مثيلاتها، وإنما صاروا مهتمين بالتصنيف الموضوعي الشامل للمسائل والقضايا.

لذلك أقبل المفكرون المسلمون على القرآن، ونظروا فيه هذه النظرة التوحيدية التجميعية، ولاحظوا مقاصده العامة، واستخرجوا منه الموضوعات العامة الموحدة، وقدّموا هذه الدراسات في التفسير الموضوعي.

٤- إصدار أعمال علمية موضوعية عامة، تتعلق بالقرآن وألفاظه وموضوعاته، ساعدت هذه الدراسات المعجمية العلمية الباحثين في القرآن، وسهلت عليهم استخراج الموضوعات القرآنية من السور والآيات.

بعض هذه المعاجم العلمية صدر عن مستشرقين غربيين، مثل كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» للمستشرق الألماني «فلوجل». وكتاب «تفصيل موضوعات القرآن» للمستشرق الفرنسي «جول لابوم». وكتاب «المستدرك» على كتاب لابوم، للمستشرق الفرنسي إدوار مونتيه.

وبعض هذه المعاجم صدر عن باحثين مسلمين، أو مجامع عربية، مثل كتاب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبدالباقي. وكتاب «معجم الأدوات والضمائر في القرآن» للدكتور إسماعيل عمايرة والدكتور عبدالحميد مصطفى السيد، وهو تكملة لمعجم عبدالباقي. وكتاب «معجم ألفاظ القرآن الكريم» الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة. وكتاب «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» لمحمد عبدالخالق عضيمة.

وكل هذه المعاجم سهلت على الباحثين الوقوف على موضوعات القرآن، ومعرفة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الموضوع الواحد، في أسرع وقت، واستقصاء هذه الآيات.

ولذلك ساعدت هذه المعاجم على إصدار الدراسات الموضوعية القرآنية.

٥- التفات أقسام التفسير في الدراسات العليا في الكليات الشرعية والجامعات الإسلامية، إلى أهمية الدراسات الموضوعية القرآنية، وتوجيه الأساتذة المشرفين طلابهم إلى

الكتابة في التفسير الموضوعي، والبحث في الموضوعات القرآنية. وقد صدرت عن الباحثين في هذه الأقسام دراسات منوعة في الرسائل الجامعية، تتفاوت في قيمتها العلمية، لكنها بدايات جيدة مشجعة! [1].

المطلب الثاني
مدى أهمية التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي هو تفسير هذا العصر، وهو تفسير المستقبل أيضاً، وله أهمية كبرى عند المسلمين، وحاجتهم إليه ماسة.

وهذا التفسير الموضوعي يحقق للمسلمين فوائد عديدة، من حيث صلتهم بالقرآن الكريم، وتَعرُّفهم على مبادئه وحقائقه، ومن حيث تشكيل تصوراتهم وتكوين ثقافاتهم، ومن حيث عملُهم على إصلاح أخطائهم، وتكوين مجتمعاتهم، ومن حيث حسن عرض القرآن والإسلام على الآخرين، والوقوف أمام الأعداء والمخالفين! .

وفيما يلي بيان مدى أهمية التفسير الموضوعي لنا:

١ - التفسير الموضوعي من العوامل الأساسية في حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وتقديم الحلول لها على أساس القرآن، فمن المتفق عليه أن مسلمي هذا العصر يعانون من مشكلات خطيرة عديدة، ومن المتفق عليه أيضاً أن حل هذه المشكلات أساساً في القرآن. وعندما يبحث الباحثون في التفسير الموضوعي، فإنهم يقدمون للمسلمين الحلول القرآنية لمشكلاتهم العديدة.

٢- التفسير الموضوعي وسيلة ضرورية منهجية لتقديم القرآن تقديماً علمياً منهجياً لإنسان هذا العصر، وإبراز عظمة هذا القرآن، وحسن عرض مبادئه وموضوعاته، واستخدام المعارف والثقافات والعلوم المعاصرة وسيلة وأداة لهذا العرض.

٣- التفسير الموضوعي كفيل ببيان مدى حاجة الإنسان المعاصر إلى الدين عموماً، وإلى الإسلام والقرآن خصوصاً، وإقناعه بأن القرآن هو الذي يحقق له حاجاته ومتطلباته.

---

(١) انظر: بعض هذه الأسباب في «المدخل إلى التفسير الموضوعي» للسعيد: ٣٤-٣٩.

٤- يقوم العلماء والباحثون بالوقوف أمام الأعداء، وتفنيد أفكارهم الجاهلية، وذلك عن طريق التفسير الموضوعي.

٥- يتم عرض أبعاد ومجالات وآفاق جديدة لموضوعات القرآن، عن طريق التفسير الموضوعي، وهذه الأبعاد الجديدة لموضوعات القرآن تزيد إقبال المسلمين على القرآن، وتوثق صلتهم به.

٦- بالتفسير الموضوعي تظهر الحيوية الواقعية للقرآن، وتتحقق المهمة العلمية الحركية للقرآن، فلا ينظر الباحثون إلى موضوعات القرآن على أنها موضوعات قديمة، نزلت قبل خمسة عشر قرناً، وإنما يعرضونها في صورة علمية واقعية، تناقش قضايا ومشكلات حية، وتهتم بمسلمين أحياء متحركين. وهذا هو البُعد الحي للقرآن الكريم.

٧- التفسير الموضوعي يتفق مع المقاصد الأساسية للقرآن، ويحقق هذه المقاصد والأوليات القرآنية في حياة المسلمين.

٨- التفسير الموضوعي أساس تأصيل الدراسات القرآنية، وعرضها أمام الباحثين عرضاً قرآنياً علمياً منهجياً، وتصويب هذه الدراسات، وحسن تخليصها مما طرأ عليها من مشارب وأفكار غير قرآنية.

٩- التفسير الموضوعي يعيد توثيق الصلة القرآنية لمختلف العلوم الشرعية الإسلامية، ويعرض هذه العلوم الشرعية على أساس توجيهات وحقائق القرآن، وبه يتم إلغاء كل ما لا يتفق مع القرآن من هذه العلوم.

من هذه العلوم: العقيدة، والبلاغة، والنحو، والتاريخ، والقصص، والأحكام الشرعية، والأحوال الشخصية.

ومنها أيضاً: علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة والحضارة.

١٠- بالتفسير الموضوعي يتم تقديم مناهج الدعوة والحركة والإصلاح، ويتعرف الدعاة والعاملون للإسلام على حقائق القرآن في فقه الدعوة والجهاد والتغيير.

١١- التفسير الموضوعي أساس التأصيل القرآني للعلوم والموضوعات والمعارف الإنسانية والحضارية المختلفة، التي يُقبل عليها المثقفون في هذا العصر، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، والثقافة، والحضارة، والإنسانية، والتقدم.

ويقدم الباحثون للمثقفين المعاصرين رؤية قرآنية موضوعية واضحة لهذه العلوم المعاصرة، ويكون هذا من أهم الوسائل الموضوعية العلمية في الدعوة إلى الإسلام والقرآن! .

١٢- بالتفسير الموضوعي يتم توسيع دلالات ومضامين الآيات القرآنية، وإضافة الأبعاد والمعاني الجديدة إليها، التي قد لا يلتفت لها السابقون من المفسرين، ولا يجدها القارئ في كتب التفسير الموضعي.

١٣- بالتفسير الموضوعي ينفذ الباحثون أمر الله لهم بتدبر القرآن، وإمعان النظر فيه، وإحسان فقه وفهم نصوصه وتأويلها.

١٤- بالتفسير الموضوعي يصل الباحثون إلى الغاية من الآيات والموضوعات القرآنية والتفاسير السابقة الموضعية التحليلية هي وسيلة إلى هذه الغاية، وتمهيد لهذه النتيجة.

١٥- التفسير الموضوعي هو الوسيلة المنهجية العلمية للارتفاع بمستوى التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين، فمن خلال البحث في موضوعات القرآن يقوم الباحث برياضة عقلية عملية، يشحذ بها ذهنه، ويمرِّن بها عقله، ويدرب بها نظراته، وبذلك يرتقي في عالم التفكير الموضوعي، فيكون مفكراً قرآنياً، وباحثاً موضوعياً.

١٦- الدراسات والمؤلفات في التفسير الموضوعي محدودة، وحجمها صغير، عندما تقاس بالمجلدات في التفسير الموضعي التحليلي، فيمكن إصدار كل موضوع قرآني في كتاب، وهذا أدعى إلى الإقبال عليه، وقراءته بيسر، واستيعاب أفكاره.

كذلك يسهل الأمر في التفسير الموضوعي على المؤلف نفسه، فيمكنه خلال فترة زمنية محددة إعداد دراسة متكاملة حول موضوع قرآني معين، وإذا أتمه انتقل إلى موضع آخر جديد، بينما لا يتحقق هذا له إذا أراد تفسير القرآن كله تفسيراً تحليلياً موضعياً، وقد يموت هذا العالم قبل الانتهاء من تفسيره التحليلي!! [1].

---

(١) انظر بعض هذه النقاط في: المدخل إلى التفسير الموضوعي للسعيد: ٤٠-٥٥. و: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم: ٣٠-٣٣.

المبحث الثامن
ألوان التفسير الموضوعي

ألوان التفسير الموضوعي ثلاثة:

١- التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.
٢- التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.
٣- التفسير الموضوعي للسورة القرآنية[1].

وفيما يلي تعريف بكل لون من هذه الألوان الثلاثة، مع التمثيل له بأمثلة من دراسات المعاصرين.

المطلب الأول
التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

يختص هذا اللون بالمصطلحات والمفردات القرآنية، حيث يختار الباحث لفظاً من ألفاظ القرآن، ورد كثيراً في السياق القرآني، فيتتبعه في السور والآيات، ويلحظ اشتقاقاته، وتصاريفه المختلفة، وينظر في الآيات التي أوردته مجتمعة، ويستخرج منها الدلالات واللطائف والحقائق.

ومصطلحات القرآن التي تصلح لهذا اللون من التفسير الموضوعي كثيرة، مثل: السلم، الجهاد، الأمة، العدل، الأمانة، المنافقون..

وعند علمائنا السابقين بدايات تصلح أن تكون «لَبنات» أولية، لهذا اللون من التفسير الموضوعي، يمكن للباحث المعاصر أن يستفيد منها، ثم يضيفَ عليها إضافات كثيرة.

---

(١) انظر كلام الدكتور مصطفى مسلم لهذه الألوان في «مباحث في التفسير الموضوعي»: ٢٣-٢٩.

وفي مقدمة هؤلاء الإمام الراغب الأصفهاني، في كتابه الفذ «مفردات ألفاظ القرآن». ومنهم الخطيب الدامغاني في «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن». والسمين الحلبي في «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ».

ويعتمد الباحث في إحصائه واستقرائه لاشتقاقات وتصريفات المصطلح القرآني على «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لمحمد فؤاد عبدالباقي.

ومن الأمثلة على هذا اللون، الدراسات التي أصدرها أستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات، لبعض مصطلحات القرآن. مثل: «الخلافة في الأرض»، و«الذين في قلوبهم مرض». وجعل الدكتور فرحات دراساته تحت عنوان «بحث قرآني وضرب من التفسير الموضوعي».

وعندما نلقي نظرة على مباحث كتاب «الأمة في دلالتها العربية والقرآنية» للدكتور أحمد حسن فرحات، فإننا ندرك طريقة بحث هذا اللون من التفسير الموضوعي.

لقد اختار الدكتور فرحات بحث مصطلح «الأمة» في القرآن، فنظر في ورود «الأمة» في الآيات القرآنية، ثم ذهب إلى كتب اللغة، لاستخراج معنى الأمة منها.

وتكلم في هذا الموطن عن المباحث التالية: أصل المعنى اللغوي للأمة، الاشتقاق اللغوي، الأمة بمعنى الجماعة، الأمة بمعنى الدين، الأمة بمعنى الرجل المنفرد، الأمة بمعنى الحين أو الزمن، نظرة جديدة تربط هذه المعاني.

ثم نظر الدكتور فرحات في استعمال القرآن لمصطلح الأمة، وتكلم عن المباحث التالية: الأمة في القرآن بمعنى الجماعة، وقد عرض القرآن ستة أصناف من الجماعات، كل صنف يُطلق على أفراده أمة، واستشهد الدكتور على هذا بآيات القرآن: الجماعة من كل حي، الجماعة من الناس، الجماعة من الناس على دين واحد، الجماعة من الناس التي لها رسول واحد، الجماعة المسلمة المتبعة لمحمد ﷺ، الجماعة من العلماء.

ثم تكلم عن الأمة في القرآن بمعنى الملة والدين، وبمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له، وبمعنى الحين أو الزمن، واستشهد على كل ذلك بآيات القرآن.

ثم انتقل الدكتور فرحات للحديث عن المعنى الإسلامي للأمة، وتوفر المعنى القرآني والإسلامي في الأمة التي شكّلها الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار في المدينة. واستخلص من ذلك حقائق بارزة.

وعرّج الدكتور بعد ذلك على العناصر الأربعة لتكوين الأمة في المفهوم الغربي، وهي: العرْق، والأرض، والتاريخ، واللغة. ونقد هذه العناصر نقداً إسلامياً علمياً، وبيّن سر استبعاد الغربيين للدين في تكوين الأمة.

وختم الدكتور فرحات بحثه ببيان تحقق معاني وأبعاد «الأمة» في القرآن، في الأمة المسلمة، التي أخرجها الله للناس، وجعلها الأمة الوسط، فصارت هي الترجمة العملية الواقعية للأمة، كما عرضها القرآن.

إن كتاب الدكتور أحمد حسن فرحات «الأمة في دلالتها العربية والقرآنية» هو خير مثال للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.

وقد بدأتُ إصدار سلسلة لهذا اللون من التفسير الموضوعي، حيث أخصص لكل حلقة من السلسلة مصطلحاً من مصطلحات القرآن، أقوم فيه بتفسير ذلك المصطلح تفسيراً موضوعياً.

أصدرتُ الحلقة الأولى من هذه السلسلة بعنوان «التفسير والتأويل في القرآن» فسّرتُ فيها مصطلح «التأويل في القرآن» تفسيراً موضوعياً. وفي النية متابعة إصدار حلقات أخرى من هذه السلسلة، ومن الله أستمد العون والتوفيق.

المطلب الثاني

التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

هذا اللون من التفسير الموضوعي يهتم بموضوعات القرآن العامة، حيث يختار الباحث أحد هذه الموضوعات، وينظر في آيات القرآن التي عرضته، ويستخرج منها الدلالات المختلفة.

يختار الباحث الموضوع الذي له أبعاد واقعية إصلاحية، أو مجالات علمية تصورية، أو آفاق تربوية مسلكية، وللمسلمين المعاصرين حاجات ماسة إليه.

وعندما يختار الباحث موضوعه القرآني، يعلم أنه ببحثه له يقدم خدمة علمية وتربوية وثقافية ودعوية للمسلمين المعاصرين، ويساعد على حل مشكلاتهم، ومعالجة أمراضهم، والنهوض بمستواهم.

وموضوعات القرآن التي لها هذه السمة، وتحقق هذه الغاية، كثيرة، منها: نظام الحكم من خلال القرآن، الظلم والظالمون كما تحدث عنهم القرآن، الصبر في القرآن، طريق الدعوة في القرآن، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، وغير ذلك.

وهناك فرق بين هذا اللون وبين اللون السابق:

فالباحث في التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني يبقى مع المفردة القرآنية التي اختارها، ويتابع معناها في معاجم اللغة، واشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن، ويلاحظ ما طرأ على وضع هذه اللفظة القرآنية من تغييرات في آيات القرآن ويحاول أن يعلل ذلك، ثم يستخرج لطائف ودلالات من سيره مع هذا المصطلح القرآني، ويلتفت إلى الدلالات العامة ذات الأبعاد الواقعية التي تهم مسلمي هذا العصر.

أما الباحث في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، فإن بحثه أعم وأشمل من الأول، وميدانه في البحث أوسع، ووقفاته الفكرية معه أكثر، ومعالجته الواقعية لحاجات ومشكلات أمته من خلاله أوضح.

إنه ينظر في الآيات التي عرضته، والآيات الأخرى التي عرضت ألفاظاً أخرى قريبة منه، والآيات التي عرضت موضوعات تتصل به، أو تساعد على توضيحه، ويتوسع في هذه الجوانب، على حساب التحقيقات اللغوية والبيانية، واللطائف البلاغية والأسلوبية.

من أوضح الأبحاث التي تمثل هذا اللون من التفسير الموضوعي كتاب «الصبر في القرآن الكريم» للدكتور يوسف القرضاوي، وقد اعتبره الدكتور القرضاوي «من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم» كما جاء في صفحة العنوان.

جعل الدكتور القرضاوي كتابه في خمسة فصول:

الفصل الأول: حقيقة الصبر في القرآن الكريم: تحدث فيه عن ورود الصبر في آيات القرآن، وعن أنواع الصبر، وضرورته للمؤمنين، وحكمة أمر الله رسوله بالصبر، والبواعث على الصبر، وما هو الصبر المحمود الجميل.

الفصل الثاني: مجالات الصبر في القرآن، عرض فيه ستة مجالات للصبر عرضها القرآن: الصبر على بلاء الدنيا، الصبر على مشتهيات النفس، الصبر على طاعة الله، الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، الصبر حين البأس، الصبر في مجال العلاقات الإنسانية.

الفصل الثالث: منزلة الصبر والصابرين في القرآن الكريم، تحدث فيه عن: اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا في الإسلام، التنويه بمكانة الصابرين عند المؤمنين، وترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر.

الفصل الرابع: شخصيات صابرة ذكرها القرآن الكريم: تحدث فيه عن أربع شخصيات صابرة، وهم: أيوب، ويعقوب، ويوسف، وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الخامس: ما يعين على الصبر، قدم فيه سبع وسائل تعين الصابر على الصبر، وهي: معرفة طبيعة الحياة الدنيا، معرفة الإنسان طبيعة نفسه، اليقين بحُسْن الجزاء عند الله، اليقين بالفرج، الاستعانة بالله، الاقتداء بأهل الصبر والعزائم، الإيمان بقدر الله وسنّته.

لقد قام الدكتور يوسف القرضاوي في تفسيره الموضوعي «الصبر في القرآن» بجولة في آيات القرآن، بقي فيها مع آيات الصبر، ناظراً فاحصاً محللاً متدبراً، ولم يخرج عن موضوع الصبر إلى غيره.

ومعالجة موضوع الصبر على أساس القرآن ضرورية لمسلمي هذا العصر، لأنه بالصبر الجميل المحمود، يمكن حل كثير من مشكلاتهم وقضاياهم. ولهذا قدم الدكتور القرضاوي في كتابه خدمةً جليلةً لهم، جزاه الله خيراً.

ومن الدراسات الموضوعية المعاصرة التي تمثل هذا اللون من التفسير الموضوعي، كتاب «الضالون كما يصورهم القرآن» لعبدالمتعال الجبري، و«ظاهرة النفاق وخبائث

المنافقين» لعبدالرحمن حبنكة، و«الوسطية في ضوء القرآن» و«العهد والميثاق في القرآن» كلاهما للدكتور ناصر العمر.

وقد أصدرتُ بعض الدراسات القرآنية من سلسلة «من كنوز القرآن» التي يمكن أن تكون من هذا اللون من التفسير الموضوعي، مثل: «الشخصية اليهودية من خلال القرآن» و«حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية» و«مع قصص السابقين في القرآن».

المطلب الثالث
التفسير الموضوعي للسورة القرآنية

يختار الباحث في هذا اللون من التفسير الموضوعي سورة من القرآن الكريم، وينظر فيها نظرة موضوعية متدبرة، ويقف مع آياتها وقفة مطولة، ويتعرف على موضع السورة ومقاصدها وأهدافها، وعلى الخطوط الرئيسية التي تجمع مختلف موضوعاتها الفرعية، ويخرج من ذلك بتحليل موضوعي موسع، ودراسة موضوعية متكاملة، تبدو معها تلك السورة وحدة موضوعية متناسقة.

ومن المعلوم لنا أن كل سورة من القرآن تعتبر وحدة موضوعية موحدة، ولها شخصية فريدة خاصة، وتعالج موضوعاً رئيسياً أساسياً، تندرج معه عدة موضوعات جزئية فرعية.

وقد كان لبعض المفسرين السابقين استشراف لهذا اللون من التفسير الموضوعي، وإدراك للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ولهم بعض التحليلات والتعبيرات حول هذا الموضوع، لكن لم يبحثوا الموضوع بمنهجية علمية، ولا على أسس موحدة، ولا يضيرهم هذا، لأننا نفهم نتاجهم وجهودهم وفق مقاييس عصورهم، ولا يجوز أن نحاكمهم إلى مقاييس عصرنا، وأن نطلب منهم ما نطلبه من علماء عصرنا.

من الذين استشرفوا الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية الإمام الزمخشري، والإمام فخر الدين الرازي والإمام القُمّي النيسابوري.

لكن أكثر المفسرين السابقين إدراكاً لهذا وتعبيراً عنه، المفسر الإمام برهان الدين البقاعي، صاحب التفسير الفريد: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور». والذي اختصره في كتابه: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور».

لقد كان البقاعي مؤمناً بأن القرآن كله وحدة واحدة، وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة، وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكوِّن فيما بينها وحدة واحدة للسورة، وقد أدار تفسيره «نظم الدرر» على هذا الأساس، وقدّم تحليلات رائعة.

إن البقاعي رائد في هذا اللون من التفسير الموضوعي عند السابقين، وإن كانت تحليلاته - على روعتها ونفاستها - دون مستوى ما عند المفسرين المعاصرين.

ومن المفسرين المعاصرين الذين قالوا بالوحدة الموضوعية للسورة، محمد رشيد رضا في تفسير المنار، ومحمد الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، وسعيد حوى في تفسيره: الأساس في التفسير.

لكن القول بالوحدة الموضوعية لسور القرآن، كان أبرز ما يكون عند مفسرين رائدين، الأول سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»، والثاني المعلم الهندي عبدالحميد الفراهي في تفسيره: «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» الذي توفي قبل إتمامه حيث لم يفسِّر منه إلا بعض السور.

وقد عرض المعلم الفراهي نظريته في نظام القرآن في ثلاث كتب:

الأول: في مقدمة تفسيره: «نظام القرآن» وهي مقدمة هامة جداً.

الثاني: في كتابه الفريد: «دلائل النظام».

الثالث: في كتابه الفذ: «التكميل في أصول التأويل».

وللمعلم عبدالحميد الفراهي تحليلات لطيفة في السور التي فسّرها، وله آراء سديدة في الوحدة الموضوعية للقرآن.

أما تحليلات سيد قطب للسور القرآنية، وبيانه لموضوعاتها الرئيسية، فإنها في غاية الروعة والنفاسة.

عندما تقرأ تعريف سيد قطب الموضوعي للسور القرآنية، تجد عنده آراء ونظريات، وتحليلات وتطبيقات، لا تجدها عند غيره من المفسرين السابقين والمعاصرين. وأبرز ما يكون هذا في الطبعة المنقحة من «الظلال» التي وصل فيها إلى نهاية سورة الحجر.

يتكلم سيد قطب في الطبعة المنقحة من الظلال على موضوع السورة الأساسي، وعلى خطوطها الأساسية، وعلى موضوعاتها الفرعية، وعلى جو نزولها، وحالة المجتمع الإسلامي وقت نزولها، وعلى أهداف السورة ومقاصدها، وعلى شخصيتها المستقلة، وعلى طريقتها في تقرير حقائقها، وعرض موضوعاتها.

فما أن ينتهي القارئ من تقديم سيد قطب للسورة حتى يكون قد تعرّف على السورة، وأدرك وحدتها الموضوعية.

وممن لهم مساهمة في محاولة إدراك الوحدة الموضوعية للسورة الأستاذ عبدالحميد طهماز، الذي أصدرت له دار القلم بدمشق سلسلة «من موضوعات سور القرآن». وقد أصدر من هذه السلسلة اثنتين وعشرين حلقة، تكلم فيها عن اثنتين وعشرين سورة.

إن محاولة الأستاذ طهماز جيدة، وإن لم تكن وفق المنهج الذي نريده، والطريقة التي نرتضيها.

وللأستاذ الشيخ محمد الغزالي محاولة في التفسير الموضوعي للقرآن حيث أصدر ثلاثة كتب في ذلك تحت عنوان: «التفسير الموضوعي للقرآن»، استعرض فيها سور القرآن كلها، لكنه كان استعراضاً في غاية الإيجاز والاختصار، وكلامه لا يخرج عن كونه تلخيصاً موجزاً لموضوعات السورة، وليس تفسيراً موضوعياً لها، وهي محاولة مشكورة منه على كل حال.

ومن الذين درسوا بعض سور القرآن دراسة موضوعية، الدكتور محمد حسن باجودة في كتابه «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف». والدكتور أحمد نوفل في كتابه: «تفسير سورة يوسف». والدكتور ناصر العمر في كتابه «تفسير سورة الحجرات» والأستاذ عبدالرحمن حبنكة في كتابه: «تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع».

وأذكرُ بعض الموضوعات التي طرقها الأستاذ حبنكة في تدبره لسورة الفرقان، وتفسيره الموضوعي لها:

بدأ دراسته الموضوعية لسور الفرقان، بمقدمات عامة، تحدث فيها عن موضوع السورة، وعناصره الأربعة، و«وَزَّعَ» آيات السورة على هذه العناصر الأربعة لموضوعها العام. ثم تحدث عن جوّ نزول السورة، وتطور مواقف المشركين في مكة تجاه عناصر موضوع السورة الأربعة، منذ البعثة وحتى نزول سورة الفرقان.

وانتقل بعد ذلك إلى دراسة السورة، حيث قسّمها إلى ثلاثة عشر درساً، واستعرض هذه الدروس واحداً واحداً، وذكر آيات كل درس، وفسّر كل آية تفسيراً تحليلياً شاملاً، وموضوعياً مفصلاً، وكان نَفَسُهُ طويلاً في تحليلاته اللفظية ووقفاته الموضوعية، حيث استوعبت معظم الكتاب (٢٥-٣٥٣).

ولما فرغ من ذلك أعد ثمانية ملاحق للسورة، سجل في ستة منها خلاصة موضوعية للسورة:

الملحق الأول: شجرة موضوع السورة، وقد أعدّ فيه جداول خطوط السورة، بدقة وعناية، وبيّن آيات كل جدول، وكانت الخطوط التي رسمها أربعة

الملحق الثاني: سجل فيه بلاغيات وأدبيات وفنيات في السورة، وتحليلات موضوعية لطيفة لآيات السورة، كلها ذات طابع بياني بلاغي عام.

الملحق الثالث: ما تقدمه السورة من بيان مقرون بالحجة والبرهان، سواء في الاحتجاج للحق، أو في نقد الباطل.

الملحق الرابع: استخلص فيه سبعة أساليب دعوية تربوية، عرضتها آيات السورة، على أساس منهجها في الدعوة والتربية.

الملحق الخامس: في ما يجب أن يأخذ به ويتزود به الداعي إلى الله، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وقد استخلص من آيات السورة تسع وسائل لذلك.

الملحق السادس: ما عرضته آيات السورة في أدب الرسول ﷺ مع ربه.

الملحق السابع: تحدث فيه عن عقيدة مشركي العرب حول توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، مستنبطاً من القرآن. عرض فيه ست نصوص من آيات القرآن كلها من غير سورة الفرقان.

وأرى أن هذا الملحق السابع مقحم على سورة الفرقان، فلماذا عرضه مع ملاحق السورة؟ .

الملحق الثامن: تحدث فيه عن اعتراض الأمم على بشرية الرسل، وردّ القرآن على ذلك.

وهو مثل السابع مُقْحَم على سورة الفرقان.

المبحث التاسع

الخطوات المرحلية للسير في التفسير الموضوعي

قلنا: إن التفسير الموضوعي ثلاثة ألوان: تفسير موضوعي للمصطلح القرآني، وتفسير موضوعي للموضوع القرآني، وتفسير موضوعي للسورة القرآنية، وقد تكلمنا عن هذه الألوان في الفصل السابق، وعرفنا بكل واحد، وشرحناه، وعرضنا الأمثلة عليه.

وكلامنا الآن عن الخطوات المرحلية المتدرجة التي لا بد أن يسلكها الباحث في كل لون من هذه الألوان.

الخطوات المرحلية:

إن البحث في التفسير الموضوعي أمر علمي، ولا بد أن يسير وفق خطة علمية، وطريقة مدورسة، وأن تكون خطوات الباحث فيه مرحلية مبرمجة متناسقة.

نقول هذا ونطلبه من الباحث، لأن التفسير الموضوعي علم شريف، يتعلق بأشرف كتاب، وهو القرآن الكريم، فلا بد أن يتصف عمل الباحث فيه بالعلمية والمنهجية والموضوعية.

لقد عرض بعض الأساتذة المؤلفين خطوات السير في التفسير الموضوعي تحت عنوان: «منهج البحث في التفسير الموضوعي» واعتبروا هذه الخطوات منهجاً، وهذا مما يؤخذ عليهم.

إنهم لم يفرقوا بين المنهج وبين الطريقة، بل إن بعضهم اعتبر المنهج هو الطريقة.

فها هو الدكتور عبدالستار السعيد يصرح قائلاً: «نعني بالمنهج الطريقة، أو الخطوات التي ينبغي اتباعها، والتقيد بها...» [1].

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي للسعيد: ٥٦.

يجب أن نفرق بين المنهج والطريقة في الأبحاث العلمية المنهجية، ومنها الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره وتأويله.

إن المنهج هو: القواعد الأساسية التي ينطلق منها الباحث في نظره للقرآن، وتعامله معه، وقيامه بتفسيره وتأويله، وهذه القواعد ضوابط تضبط عمله كله، بخطواته ومراحله، وتصبغ جهده كله بصبغتها.

أما الطريقة فهي: تطبيقه لتلك القواعد التي حكمته وقيدته، وكيفية مراعاته لها، والتزامه بها. هي الخطوات العلمية التي خطاها ونفذها في تدبره للقرآن، هي كيفية تناوله التفصيلي لموضوعه القرآني.

وبعبارة أخرى نقول: المنهج في البحث العلمي القرآني أشبه ما يكون بالمخطط الهندسي، الذي يضعه المهندس الخبير على الورق، والطريقة أشبه ما تكون بعملية تنفيذِ ذلك المخطط على الأرض من قِبَل المهندس المنفذ، وبناءِ العمارة التي وضع لها المخطط، ويقوم المهندس المشرف بمراقبة العمل، وملاحظة مدى التزام المنفذ بالمخطط الذي أمامه.

هكذا يكون إدراك الباحث القرآني لقواعد منهجه الموضوعية، ثم هكذا يكون التزامه بتلك القواعد، أثناء سيره في بحثه، وتطبيقه لمنهجه، فالمنهج غيرُ الطريقية، وليس الأمر كما قاله الدكتور عبدالستار السعيد والدكتور مصطفى مسلم، وغيرهما، جزاهما الله خيراً.

وكلامنا هنا عن الطريقة، وليس عن المنهج، وسوف نشير إلى بعض قواعد المنهج فيما بعد.

إن طريقة سير الباحث في التفسير الموضوعي لها خطوات مدروسة.

وهذه الخطوات مرحلية متدرجة متتابعة، يلتزم بها الباحث خطوةً خطوة، ولا يجوز أن ينتقل إلى خطوة إلا بعد استكمال سابقتها، ولا يجوز أن يقدم خطوة تالية على خطوة سابقة.

خطوات عامة للألوان الثلاثة:

هناك خطوات مرحلية عامة، مشتركة بين الألوان الثلاثة، ولا بد من مراعاتها والالتزام بها في كل لون منها، ومن هذه الخطوات:

١- أن يسجل الباحث أهدافه التي يريد تحقيقها من بحثه، لأنه لا بد لكل بحث علمي منهجي موضوعي من أهداف وبواعث تدفع إليه، ولا تكفي في هذا الأهدافُ العامة، كأن يقول: أريد أن أخدم القرآن، أو أنفع المسلمين، أو أبحث في العلم. بل لا بد من أهداف خاصة تناسب موضوع بحثه.

٢- أن يحدد الباحث مدى الحاجة المعاصرة إلى بحثه، والجوانب الضرورية التي سيغطيها، والمشكلات التي سيعالجها.

٣- أن لا يكون عند الباحث غرض مسبق يريد ترسيخه من خلال القرآن، وأن لا يكون له مقرر فكري مسبق يريد الاستشهاد له من القرآن، إنه إن فعل ذلك سيحرف المصطلحات والآيات القرآنية لتخدم غرضه، وتشهد لفكرته.

على الباحث أن يدخل عالم القرآن بدون مقررات فكرية سابقة، وأن يعيش مع حقائق موضوعه القرآني بحياد، وأن يطلب من القرآن تشكيل خلفيته العلمية والعقلية والفكرية.

قد ترى باحثاً يبحث في الجهاد في القرآن ليقرر أن الجهاد في القرآن إنما هو للدفاع وردّ الاعتداء، وقد ترى باحثاً يبحث في القرآن عن الأديان السابقة، ليقرر أن اليهود والنصارى الآن مؤمنون موحدون صالحون في الجنة.

هؤلاء مخطئون في بحثهم وخطواتهم ونتائجهم، لأنهم بحثوا في القرآن بغرض ومقرر مسبق.

٤- أن يطلع الباحث على الأبحاث والدراسات القرآنية الأخرى، وأن يتأكد عدم بحث موضوعه من قِبَل باحث آخر، فإن وجد كتاباً آخر يبحث في موضوعه، بطريقة علمية منهجية، فعليه أن يتخلى عن هذا الموضوع، ويذهب إلى موضوع آخر، ويدعو لصاحب البحث المطبوع، لأنه أراحه ووفر جهده وطاقته لبحث آخر.

٥- أن يقرأ الباحثُ قراءة عامة شاملة، ويطلع على كل ما له صلة ببحثه القرآني، يقرأ في مجموعة من كتب التفسير، والكتب العامة التي تعرض جوانب موضوعه. وأن

يكتب ملاحظاته على ما يقرأ، ويرصد المراجع التي يقرأ فيها، فسوف ينتفع بهذا عندما يشرع في صياغة بحثه.

المطلب الأول
الخطوات المرحلية للسير مع المصطلح القرآني

بحث المصطلح القرآني، وتفسيره موضوعياً يتم على مرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: مرحلة البحث والجمع.

المرحلة الثانية: مرحلة الترتيب والتبويب والصياغة.

ولكل مرحلة خطواتها الفرعية المتدرجة.

أولاً: خطوات مرحلة البحث والجمع:

١- اختيار المصطلح القرآني الذي يريد بحثه، بعد تحديد أسباب هذا الاختيار. كأن يقول: أريد أن أبحث: الأمانة في القرآن، الميثاق في القرآن، الجهاد في القرآن.

٢- تحديد الجذر الثلاثي للكلمة، بأن يعيدها إلى أصلها الثلاثي. فالجذر الثلاثي للأمانة هو «أمن» والجذر الثلاثي للميثاق هو «وثق»، والجذر الثلاثي للجهاد هو «جهد» وهكذا.

٣- أخذ معنى الجذر الثلاثي من أمهات كتب اللغة ومعاجمها الأساسية.

والكتب التي لا يُستغنى عنها في هذا المقام – بل لا يستغني عنها أي باحث في أي حقل من حقول العلم – هي:

أ- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى سنة ٣٩٥هـ وقد حقق الكتاب عبدالسلام هارون، وأصدره في ست مجلدات.

ب- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل، المتوفى في حدود ٤٢٥هـ، وأحسن طبعات الكتاب، تلك الصادرة عند دار القلم، والتي حققها صفوان داوودي.

ج- معجم لسان العرب، لابن منظور، أبي الفضل جمال الدين: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، المتوفى سنة ٧١١هـ، وقد اختصر ابن منظور في اللسان أمهات المعاجم السابقة، وهي: تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، والجمهرة لابن دريد، والنهاية لابن الأثير.

د- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالدايم، المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وقد حقق الكتاب الدكتور محمد التونجي، وأصدره في أربع مجلدات.

هـ- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. المتوفى سنة ١٠٩٤هـ، وقد حقق الكتاب الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري، وصدر في مجلد الكبير.

على الباحث أن يأخذ معنى الجذر الثلاثي من هذه المعاجم الخمسة، بهذا الترتيب، وأن يعرف ماذا أضاف اللاحق على السابق من معانيها.

٤- متابعة ورود الجذر الثلاثي واشتقاقاته وتصريفاته في القرآن الكريم، وأخذ هذا من المعاجم التي عنيت بفهرسة ألفاظ القرآن.

ومن أشهر المعاجم التي عنيت بذلك:

أ- المرشد إلى آيات القرآن وكلماته، لمحمد فارس بركات.

ب- فتح الرحمن لطالب آيات القرآن. لفيض الله العلمي.

ج- معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري. لمحمد فؤاد عبدالباقي.

د- مصباح الإخوان لتحريات القرآن، ليحيى حلمي قسطموني.

ويمكن للباحث أن يستغني عن هذه المعاجم، وأن يعتمد على المعاجم التالية:

أ- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، وهو أشهر المعاجم، وأكثرها انتشاراً، وأجلها خدمة، وأحسنها ترتيباً.

ب- معجم الأدوات والضمائر في القرآن، لإسماعيل عمايرة وعبدالحميد مصطفى السيد، وهو مكمل ومتمم لمعجم عبدالباقي، خاص بالأدوات والضمائر، التي أسقطها عبدالباقي من معجمه، ولا بد أن يؤخذ المعجمان معاً.

ج- معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة، وأعدّته لجنة من كبار العلماء[1].

يقوم الباحث بعملية إحصائية شاملة لورود الجَذْر الثلاثي للمصطلح الذي يبحثه، على اختلاف اشتقاقاته وتصريفاته.

وطريقة محمد فؤاد عبدالباقي في متابعة ورود المصطلح في القرآن منهجية موضوعية معجمية.

وعرض عبدالباقي طريقته في مقدمة معجمه. فقال:

«إن الطريقة التي اتُّبعت في ترتيب مواد هذا المعجم هي طريقة الزمخشري في الأساس، والفيومي في المصباح، والتي اتبعها أصحاب المعاجم العصرية، كمحيط المحيط، وقطره، للبستاني وأقرب الموارد للشرتوني.. وهي: ترتيب أصول الكلمات على حسب أوائلها، فثوانيها، فثوالثها، فافتتح المعجم بمادة «أ ب ب» واختتم بمادة «ي و م».

والطريقة التي اتُّبعت في مشتقات الكلمة «المادة» هي: الابتداء بالفعل المجرد المبني للمعلوم، ماضيه، فمضارعه، فأمره، ثم المبني للمجهول، من الماضي والمضارع، ثم المزيد بالتضعيف، فالمزيد بحرف.. ثم باقي المشتقات، من المصدر واسم الفاعل والمفعول، فباقي الأسماء..

متَّبعاً في ترتيب كلمات كل باب من هذه الفروع نفس الطريقة التي اتبعت في ترتيب المواد الأصلية، وهي ترتيبها أيضاً حسب أوائلها فثوانيها فثوالثها، وهلم جرا...»[2].

(١) انظر الكلام عن هذه المعاجم في المدخل إلى التفسير الموضوعي للسعيد: ٣٦-٣٨.

(٢) مقدمة المعجم المفهرس لعبدالباقي. تحت عنوان «مفتاح الكتاب».

٥- ربط المعنى اللغوي للمصطلح القرآني مع الاستعمال القرآني، وملاحظة توفر المعنى اللغوي له في كل مفردات واشتقاقات المصطلح.

فعند الكلام على الجذر الثلاثي لكلمة «جهاد» وهو «جُهْدَ». لا بد أن يبين الباحث توفر معنى «جهد» الأصلي في الألفاظ القرآنية المشتقة منه، وهي: الجهاد والمجاهدة، والجُهْدُ المبذول – بضم الجيم – وجَهْدُ الأيمان – بفتح الجيم – .

٦- ربْط المصطلح القرآني مع السياق الذي ورد فيه، وبيان تناسق وتناسب هذا المصطلح مع الآية التي ورد فيها، ومع الدرس الذي وردت فيه الآية، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية للدرس.

ونعلم أن للسياق القرآني أثراً مباشراً في ورود المصطلح القرآني على الصورة التي ورد فيها، وفي تركيب حروفه ووضع حركاته، وهذا كله يؤثر على المعنى الخاص لذلك المصطلح في هذا الموضع من السياق.

فما حكمة إسناد المجاهدة إلى الوالدين الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت:٨].

وهل يمكن أن نطلق على فعلهما جهاداً؟

ولماذا قال الله في سورة العنكبوت: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت:٨] وقال في سورة لقمان: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:١٥]؟ .

فالموضوع واحد، ولكن فعل «جاهداك» تعدّى بحرف اللام في الآية الأولى «لتشرك» بينما تعدّى بحرف «على» في الآية الثانية: «على أن تشرك».

٧- ترتيب الآيات التي أوردت المصطلح موضوع البحث على حسب النزول – إنْ تَيَسَّر ذلك – ولو بالصورة العامة، كأن يقال: هذه آيات في سور مكية، وهذه آيات في سورة مدنية.

وملاحظة تطور معنى المصطلح، والإضافات عليه في الآيات المتأخرة، وملاحظة ما في الآيات من نسخ، والوقوف على أسباب نزولها، ثم معرفة القراءات الأخرى الصحيحة للمصطلح، وتوجيه كل قراءة، والفرق بين القراءات.

فعندما ينظر في كلمة «المجاهدون» مثلاً، سيرى أنها وردت في سور مدنية، ولم تنزل في سور مكية، فما الحكمة من ذلك؟ .

ثم إن «المجاهدين» لم ترد في القرآن إلا جمع مذكر سالماً، ولم تأت بصيغة المفرد «مجاهد» فما الحكمة من ذلك؟ .

٨- الاطلاع على تفسير الآيات التي أوردت المصطلح، في أمهات كتب التفسير، بأن يختار تفسيراً يمثل كل مدرسة من مدارس التفسير التي سبق أن تكلمنا عنها.

والتفاسير التي يُنصح بالاطلاع عليها هي تفاسير: الطبري، والزمخشري، والرازي، وابن كثير، وابن عاشور، وسيد قطب.

وعليه أن يجمع من هذه التفاسير ما ورد حول الآيات من أحاديث صحيحة، وأقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين، ومشاهير المفسرين.

٩- ملاحظة البعد الواقعي للمصطلح موضوع البحث، وذلك بأن ينظر في الآيات التي أوردته للوقوف على أبعادها الواقعية، وإدراك إشاراتها وإيحاءاتها الواقعية، ومدى علاجها لمشكلات مجتمعه، ومعايشة مضامينها التربوية والاجتماعية.

١٠- الوقفة المتأنية الفاحصة أمام الآيات التي أوردت المصطلح، واستخلاص دلالاتها، والالتفات إلى لطائفها، واستنباط دروسها وعبرها، وتسجيل حقائقها.

وتقديم هذا كله باعتباره نتيجة لجولته مع المصطلح القرآني، وثمرة علمية عملية تربوية لبحثه.

ثانياً: خطوات مرحلة الترتيب والصياغة:

قلنا: إن البحث في المصطلح القرآني الواحد يقوم على مرحلتين أساسيتين: مرحلة الجمع والنظر، ومرحلة الترتيب والتبويب والصياغة.

وقد تكلمنا عن عشر خطوات متدرجة للمرحلة الأولى، ونتكلم الآن عن خطوات مرحلة الصياغة.

إن المادة التفسيرية مجموعة الآن أمام الباحث، وهو يريد الآن أن يقوم بترتيبها وصياغتها.

عليه أن يتبع الخطوات المتدرجة التالية:

١- إلقاء نظرة فاحصة على المادة التفسيرية المجموعة أمامه، نظرة منهجية موضوعية، بهدف إدراك فصولها ومباحثها، وترتيبها منهجياً، واختيار عناوين مباحثها.

٢- وضع مخطط منهجي موضوعي للبحث، مفصل الفصول والمباحث، بحيث تكون هذه المباحث متناسقة، ذات عناوين واضحة معبرة.

٣- توزيع المادة التفسيرية على فصول ومباحث المخطط، ووضع مادة كل فصل على حدة، بحيث تكون مادة كل فصل معروفة محددة.

٤- البدء بصياغة وكتابة كل فصل، وعدم الانتقال إلى الفصل التالي إلا بعد الانتهاء من الفصل الذي بين يديه.

٥- الحرص على دقة الصياغة من الناحية الظاهرية والموضوعية، بحيث تكون كتابته خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية، ويضع علامات الترقيم مواضعها، من الفواصل والنقط والفقرات. والحرص على أن تتصف كتابته بالسلاسة والإشراق في التعبير، وأن يكون أسلوبه فصيحاً بليغاً معبراً.

٦- ملاحظة وضع اللطائف واللفتات في مواضعها، بحيث تكون متناسقة مع المكان الذي وُضعت فيه، ولا تكون شاذة أو ناشزة فيه.

٧- التركيز على ربط المصطلح القرآني بمقاصد القرآن وأهدافه. باعتباره كتاب هداية وتوجيه وتشريع وإعجاز، والالتفات إلى الواقع المعاصر ومشكلاته، وإظهار علاج المصطلح لها.

٨- الإخراج الفني المقبول لبحثه، من حيث المقدمة، والفصول مع مباحثها، والخاتمة، وقائمة المراجع، ومن حيث التوثيق العلمي للمادة المكتوبة، ووضع الهوامش في أسفل

الصفحات، وترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، وتشكيل الكلمات المحتاجة إلى تشكيل، وجودة الخط.

بهذا يكون البحث متصفاً بالمنهجية الموضوعية من حيث الأفكار والمضامين، ومتصفاً بالجمال الظاهري من حيث الصياغة والإخراج الفني.

إن الأبحاث والموضوعات المتعلقة بالقرآن يجب أن تقدَّم بصورة تليق بالقرآن، وما ينظر له المسلمون من قداسة وتشريف، وعلى الباحثين والكاتبين مراعاة هذه الناحية، وصبغ أبحاثهم بهذه الصبغة.

المطلب الثاني
الخطوات المرحلية للسير مع الموضوع القرآني

الموضوع القرآن هو اللون الثاني من ألوان التفسير الموضوعي، وهو أقرب الألوان الثلاثة إلى حقيقة التفسير الموضوعي، ولهذا هو أهم هذه الألوان.

وقبل أن نعرض الخطوات المرحلية للسير مع الموضوع القرآني، نحب أن نضع بين أيدي الباحثين وطلبة العلم، ما ذكره بعض من كتبوا في التفسير الموضوعي من المعاصرين.

من أهم الكتب في التفسير الموضوعي، كتاب الدكتور عبدالستار السعيد، وكتاب الدكتور مصطفى مسلم، كما ذكرنا.

وقد سجّل الكاتبان الفاضلان خطوات السير في الموضوع القرآني، وفيما يلي موجز ما ذكره كل منهما، جزاهما الله خيراً.

أولاً: الخطوات كما يراها الدكتور السعيد:

عرض الدكتور عبدالستار فتح الله السعيد هذه الخطوات، تحت عنوان «منهج البحث في التفسير الموضوعي» وقد سبق أن استدركنا على هذا العنوان، وطالبنا بالتفريق بين المنهج والطريقة.

قدم الدكتور السعيد ثماني خطوات، أجمل القول فيها أولاً، ثم فصّله بعد ذلك.

وخلاصة الخطوات التي يراها هي:

١- المعرفة الدقيقة لمعنى التفسير الموضوعي، بهدف أن يكون الموضوع القرآني الذي يبحثه مندرجاً ضمن التفسير الموضوعي فعلاً.

٢- تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديداً دقيقاً، بأن يكون موضوعاً قرآنياً فعلاً، ورد واضحاً في آيات القرآن.

٣- اختيار عنوان للبحث، مأخوذ من نفس ألفاظ القرآن، أو منتزع من معانيها، دالّ عليها.

٤- جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، واختيار جوامعها عند إرادة الاختصار.

٥- تصنيف الآيات من حيث المكي والمدني، وترتيبها أيضاً من حيث زمنُ النزول، إن تيسّر ذلك.

٦- فهم الآيات التي جُمعت، بالرجوع إلى تفسيرها في كتب التفسير، ومعرفة ما يتعلق بها من أسباب نزول أو نسخ، أو تدرج تشريع.

٧- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة، منتزعة من الآيات نفسها، وردّ الآيات إلى عناصرها، مع تفسيرها بإيجاز.

٨- التقيد التام في كل هذه الخطوات بقواعد التفسير الموضوعي، وضوابطه العلمية، من حيث البقاء مع القرآن، وتجنب الحشو والاستطراد..[1].

ثانياً: الخطوات كما يراها الدكتور مسلم:

تابع أستاذنا الدكتور مصطفى مسلم الدكتور عبدالستار السعيد في اعتبار الخطوات ضمن «منهج البحث في موضوع من خلال القرآن الكريم». والأصل أن نعتبرها ضمن الطريقة العلمية، وليس من المنهج.

وسجل الدكتور مسلم ثماني خطوات، هي:

١- اختيار عنوان للموضوع القرآني مجال البحث، بعد تحديد معالم حدوده، ومعرفة أبعاده في الآيات.

---

(١) انظر هذه الخطوات مع شرحها في: المدخل إلى التفسير الموضوعي: ٥٦-٦٦.

٢- جمع الآيات التي تبحث الموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه.
٣- ترتيب هذه الآيات حسب زمن النزول.
٤- دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية، من كتب التفسير التحليلي.
٥- تسجيل العناصر الأساسية للموضوع من خلال الآيات.
٦- تفسير الآيات إجمالياً، وذكر ما ورد في تفسيرها من أحاديث صحيحة، وأقوال للصحابة والتابعين.
٧- وضع مخطط للبحث، وفق توجيهات البحث العلمي، بتحديد منهجه في البحث، وطريقته في، وتفصيل أبوابه وفصوله ومباحثه.
٨- تحديد أهداف الباحث من بحثه، بإبراز حقائق وتوجيهات القرآن، وعرضها بأسلوب عذب مشرق..[1].

ثالثاً: الخطوات المرحلية التي نراها:

نلخص فيما يلي الخطوات المرحلية التي نراها، من أجل السير في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، وقد يكون بعضها وارداً فيما ذكره الأستاذان عبدالستار السعيد ومصطفى مسلم، لكننا نسجله من باب الترتيب المرحلي لهذه الخطوات المتدرجة:

١- اختيار الموضوع القرآني للبحث، على أن يكون موضوعاً تحدثت عنه آيات القرآن، وعرضت جوانبه وحقائقه، بحيث يجد الباحث في آيات القرآن مادة واسعة لموضعه.

كأن يبحث في: العدل في القرآن، أو: قصة إبراهيم في القرآن.

فإذا اختار باحث موضوع «انشطار الذرة في القرآن» أو «بصمات الأصابع في القرآن»!! فماذا سيجد في القرآن من ذلك؟ لن يجد إلا آية لكل موضوع! .

٢- تسجيل الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع، والأهداف التي يريد تحقيقها من خلاله، وبيان مدى الحاجة المعاصرة للموضوع، والمشكلات الإنسانية والحضارية التي يحلها من خلالها، والمضامين المعاصرة التي يضمها ويعرضها.

---

(١) انظر هذه الخطوات في: مباحث في التفسير الموضوعي. للدكتور مصطفى مسلم: ٣٧-٣٩.

٣- جمع الآيات التي تتحدث عن الموضوع، إما بألفاظ صريحة مباشرة، أو بألفاظ قريبة منها، أو بألفاظ لها اتصال بها.

فإذا أراد بحث موضوع «الرسول في القرآن»، نظر في الآيات التي تتحدث عن: الرسول. والنبي. والوحي. والتبليغ. والكتاب. والدعوة. واختار منها الآيات التي لها اتصال مباشر بالرسول.

٤- استخراج معاني الألفاظ السابقة التي اختارها، من أمهات كتب اللغة التي تحدثنا عنها سابقاً: مقاييس اللغة لابن فارس، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب، وعمدة الحفاظ للسمين، ولسان العرب لابن منظور، والكليات لأبي البقاء.

وبعد استخراج معانيها، يقوم الباحث ببيان الصلة بين هذه الألفاظ المتقاربة، ثم يربط بين هذه الألفاظ وبين الموضوع القرآني الذي يبحثه.

٥- حصر الآيات التي استعملت المصطلحات الأساسية لموضوعه، والألفاظ المقاربة لها، والاستعانة في ذلك بكتاب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» لعبدالباقي، أو «معجم ألفاظ القرآن» الذي أصدره مجمع اللغة العربية.

وملاحظة الصيغ والاشتقاقات والتصريفات المختلفة للألفاظ التي لها صلة بموضوعه، واستخراج بعض الدلالات والإيحاءات من ذلك.

٦- تسجيل ما يدور حول الآيات التي استخلصها من: أسباب نزول، ونسخ، وقراءات صحيحة، وترتيب هذه الآيات حسب المكي والمدني وزمان النزول. وملاحظة ما يتعلق بها من تدرج في التشريع، أو عموم وخصوص، أو غير ذلك.

٧- قراءة تفسير الآيات التي اختارها من أمهات كتب التفسير، كتفاسير: الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وسيد قطب.

وتسجيل ما ورد في تفسير تلك الآيات من أقوال مأثورة، تتمثل في الأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين وأعلام المفسرين.

٨- بيان الأبعاد المعاصرة للآيات، بالالتفات إلى ما تتضمنه من إشارات وإيحاءات مرتبطة بحاجات ومشكلات العصر الحاضر، وتنزيل هذه الآيات على حالة العصر، والنظر إلى قضايا ومشكلات العصر من خلال هذه الآيات.

وتسجيل كل ما يجده ويعيشه ويدركه الباحث من ذلك.

٩- استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجموعة، بذكر الدلالة المستخرجة، وبيان موطن ووجه الاستدلال. والتركيز على الدلالات ذات البُعد الاجتماعي والإنساني المعاصر.

١٠- الاطلاع على الدراسات والأبحاث القرآنية الخاصة المعاصرة، التي لها صلة بموضوعه القرآني، ومعرفة مدى ما يستفيده في بحثه من هذه الدراسات.

بهذه الخطوات العشرة المتدرجة يكون الباحث قد جمع المادة القرآنية والتفسيرية، التي تهمه في تفسيره الموضوعي، وبذلك يكون قد استكمل المرحلة الأولى الأساسية في بحثه، وهي مرحلة: جمع المادة والنظر فيها.

أما المرحلة الثانية التابعة لها، وهي مرحلة الترتيب والتبويب والصياغة، فهي لا تخرج عن الخطوات الثمانية المتدرجة، التي تكلمنا عنها عند حديثنا عن «خطوات السير في المصطلح القرآني».

إن الخطوات الثمانية التي عرضناها هناك، عند صياغة وكتابة البحث، هي نفسها الخطوات المتدرجة التي لا بد أن يلتزم بها الباحث هنا، عند تفسيره الموضوعي للموضوع القرآني[1].

المطلب الثالث
الخطوات المرحلية للسير مع السورة القرآنية

لا يرى الدكتور عبدالستار السعيد البحث في الوحدة الموضوعية للسورة في ألوان التفسير الموضوعي.

---

(١) انظر مبحث «خطوات مرحلة التبويب والصياغة» من هذا الفصل.

وفي هذا يقول: «يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى «بالنظام في القرآن» أو «الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم» أو التفسير الموضوعي بمعناه العام، كالنسخ في القرآن ونحوه، أو «علم المناسبات» لأن هذه الجوانب مع جلالتها وأهميتها، لكنها خارجة عن مصطلح «التفسير الموضوعي»»[1].

ولسنا مع الأستاذ السعيد في هذا الكلام، فقد سبق أن قررنا أن ألوان التفسير الموضوعي ثلاثة، الثالث منها هو الذي يقوم فيه الباحث بإجراء بحث علمي يقدم فيه التفسير الموضوعي للسورة.

أما أستاذنا الدكتور مصطفى مسلم فقد سجل أربع خطوات تحت عنوان «منهج البحث في التفسير الموضوعي لسورة واحدة».

والخطوات التي سجلها هي:

١- التقديم للسورة بتمهيد، يعرِّف فيه بأمور تتعلق بالسورة، من حيث أسبابُ نزولها، ومكيتها ومدنيتها، وغير ذلك.
٢- محاولة التعرف على الهدف الأساسي للسورة، والمحور الذي تدور حوله.
٣- تقسيم السورة الطويلة إلى مقاطع أو فقرات.
٤- ربط هذه المقاطع بالأهداف الأساسية للسورة[2].

الخطوات المرحلية المتدرجة التي نراها للسير في التفسير الموضوعي للسورة هي:

١- ذكر اسم السورة التوقيفي، وإذا كان لها أكثر من اسم توقيفي يذكرها، ويبين حكمة تسميتها بذلك الاسم، أو تلك الأسماء، ويلاحظ الصلة بين اسمها التوقيفي وبين موضوعها العام.

ويستعين في ذلك بكتاب «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» للإمام برهان الدين البقاعي.

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي للسعيد: ٥٧-٥٨.
(٢) انظر هذه الخطوات في: مباحث في التفسير الموضوعي: ٤٠.

٢- معرفة اسم السورة الاجتهادي، سواء أطلقه عليها علماء سابقون، أو تمكّن هو من إدراكه، والربط بين اسمها الاجتهادي وبين موضوعها.

فسورة البقرة مثلاً، اسمها التوقيفي سورة البقرة، لكن من خلال الوقوف على موضوعها العام يمكن أن نسميها سورة «الخلافة والخلفاء».

وليس هذا موطن تفصيل الصلة بين اسمها الاجتهادي وبين موضوعها.

٣- تحديد زمان ومكان نزول السورة، وهل هي مكية أو مدينة، وهل كلها مكيّ أو مدني؟ أم أن فيها آياتٍ مكية ضمن مجملها المدني، أو العكس. ومحاولة تعليل ذلك.

٤- بيان جو نزول السورة، سواء كانت مكية أو مدنية، وهل نزلت في المرحلة المتقدمة أو المتوسطة أو المتأخرة من مرحلة الدعوة الإسلامية، سواء في عهدها المكي أو عهدها المدني.

والوقوف على مظاهر قوة المسلمين وتفاعلهم مع التربية النبوية، وعلى مستوى المعركة بينهم وبين أعدائهم الكفار، في مكة أو المدينة، أو معرفة مظاهر النقاء أو الخلخلة في المجتمع الإسلامي، الذي تعالجه آيات السورة.

ويستعين في هذه الخطوة بالتقديم الرائع الذي كان يقدم به سيد قطب للسور، في الطبعة المنقحة من تفسيره «في ظلال القرن» وهي السور القرآنية حتى نهاية سورة الحجر.

٥- تحديد أهداف السورة الأساسية، ومقاصدها الرئيسية، واستخراج هذه الأهداف والمقاصد من خلال القراءة الواعية المتدبرة لآيات السورة عدة مرات، وبيان الجو العام الذي نزلت فيه، والاستدلال على كل هدف أو مقصد يسجله بمجموعة من آيات السورة.

ويستعين في هذه الخطوة بتقديم سيد قطب للسور في الطبعة المنقحة من الظلال، وبكتابي الإمام البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور». وبكتاب الفيروز أبادي: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز». وبتفسير «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور.

٦- التعرف على «شخصية» السورة، وموضوعها الرئيسي، وعمودها الأساسي، ثم التعرف على محاور السورة وخطوطها الرئيسية، وربط هذه المحاور والخطوط مع عمود السورة، والاستشهاد على ذلك بآيات السورة.

ويستعين في ذلك بكلام سيد قطب، في تعريفه بالسور، وبيانه لشخصية كل سورة منها.

٧- ربط السورة بما قبلها من السور، حسب ترتيب المصحف، من حيث التناسبُ في الموضوع العام لكل منها.

وربط السورة المفصلُ بالسورة التي قبلها مباشرة، وتسجيل مظاهر هذا الاتصال والتناسب والربط بين السورتين.

والاستعانة في ذلك بكلام البقاعي في تفسير «نظم الدرر».

٨- تقسيم السورة الطويلة والمتوسطة إلى أقسام - إن تيسر ذلك - وبيان مقدمة السورة وأقسامها وخاتمتها، وتوزيع آياتها على تلك الأقسام.

وإن لم يتيسر تقسيمها إلى أقسام، فيجب تقسيمها إلى وحدات أساسية، وذكر موضوع كل وحدة، وآياتها. وبيان الصلة بين تلك الوحدات.

٩- تقسيم الوحدة إلى دروس موضوعية، وذكر آيات وموضوع كل درس، وبيان الصلة بين آيات كل درس، ثم الصلة بين دروس الوحدة، بحيث تتكامل الدروس على تقرير موضوع الوحدة. وتتكامل وحدات السورة على تقرير موضوع السورة، وتحقيق أهدافها.

والاستعانة في ذلك بتقسيم سيد قطب في «الظلال» للسور، حيث كان يقسم السورة إلى وحدات، ذاكراً موضوع وآيات كل وحدة، ثم يقسم الوحدة إلى دروس، ذاكراً موضوع وآيات كل درس، ويبين الصلة الوثيقة بينها.

١٠- استخلاص أهم حقائق السورة، والدلالات التي تقررها، والإشارة إلى أبعاد السورة الواقعية، وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.

١١- الاطلاع على تفسير السورة في أمهات كتب التفسير، كتفاسير: الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وابن عاشور وسيد قطب، لمعرفة تفسيرها التحليلي في هذه التفاسير.

بعد ذلك تأتي مرحلة «الترتيب والتبويب والصياغة» بخطواتها الثمانية – التي سبق أن قررناها – فعلى الباحث أن يلتزم بتلك الخطوات الثمانية المتدرجة، عند صياغته للمادة العلمية التفسيرية التي جمعها.

وبذلك تبدو السورةُ موضوعَ البحث وحدةً موضوعية واحدة، ذات شخصية بارزة، وموضوع عام، وعمود واضح، وأهداف محددة.

المبحث العاشر

قواعد ومنطلقات منهجية للبحث

تكلمنا في الفصل السابق عن المراحل التي لا بد للباحث من أن يلتزم بها، والخطوات المتدرجة التي لا بد له من أن يخطوها، عند بحثه في التفسير الموضوعي. وبيّنا المراحل والخطوات لكل لون من ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة.

ونقف هنا لنتحدث عن قواعد أساسية، ومنطلقات منهجية، لا بد للباحث في أي لون من ألوان التفسير الموضوعي من مراعاتها، والالتزام بها، والانطلاق منها.

هذه القواعد والمنطلقات تعتبر منهجاً علمياً موضوعياً، وضوابط علمية منهجية، يدركها الباحث، ويؤمن بها، ويصدر عنها في دراساته الموضوعية القرآنية، وهي شروط ملزمة له، ليتصف بحثه الموضوعي بالعلمية والموضوعية، وتتصف نتائجه التي يخرج بها بالصواب والصحة، وتكون دراساته مناسبة، تليق بالقرآن الكريم! .

وقد أجاد الأستاذ الدكتور عبدالستار السعيد عندما تحدث عن خمس من هذه القواعد المنهجية، واعتبرها تنبيهات ضرورية للباحث في التفسير الموضوعي.

ونحن نورد قواعد الدكتور السعيد متبنين لها، داعين لصاحبها بالأجر والتوفيق، جزاه الله خيراً، ثم نضيف عليها قواعد ومنطلقات أخرى، من أجل تقديم «معالم منهج» علمي للتفسير الموضوعي.

القواعد والضوابط التي عرضها الدكتور السعيد هي:

١- **الالتزام التام بعناصر القرآن**: فعلى الباحث في التفسير الموضوعي البقاء مع آيات القرآن التي جمعها لموضوعه، وأن لا يخرج من ظلال القرآن إلى أي موضوع آخر، لأن دراسته قرآنية، وليست إسلامية عامة.

وإذا عاد الباحث إلى الأحاديث النبوية الصحيحة، وكلام الصحابة والتابعين، فإنه يورد المناسب من ذلك باعتباره شارحاً وموضحاً ومفسراً للآيات القرآنية التي بين يديه، وليس باعتباره مادة علمية مستقلة، تضيف عناصر جديدة إلى موضوعه القرآني.

٢- التقيد التام بصحيح المأثور في التفسير: عند عودة الباحث إلى الأحاديث وكلام الصحابة والتابعين، باعتباره شارحاً ومفسراً لآيات القرآن - كما قلنا - فيجب عليه أن يلتزم بالصحيح من ذلك، وأن يتقيد به، ولا يجوز له أن يورد حديثاً لم يصح، أو رواية لم تثبت عن الصحابة، ويفسر بهذا الضعيفِ كلامَ الله.

٣- تجنب الحشو والاستطراد في التعليق: لأن قصد الباحث في التفسير الموضوعي هو إبراز موقف القرآن من قضايا ومسائل موضوعه، وتقديم حقائق القرآن ودلالاته حول ذلك، ولذلك لا بد أن يعرضه بصورة موجزة مفيدة دالة

أما إذا استطرد الباحث إلى مناقشات ومباحث عامة، فإنه يقدم رأيه الخاص، وثقافته العامة، وبذلك يمكن أن يكون بحثه دراسة إسلامية ثقافية، لا تفسيراً موضوعياً قرآنياً.

٤- التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل: وذلك بأن لا يتعجل الباحث في إصدار أحكامه على الموضوع القرآني الذي يدرسه.

يجب على الباحث أن يكون إحصاؤه للآيات القرآنية حول موضوعه شاملاً، واستقصاؤه تاماً، فإذا أغفل آية أو آيات، فقد تفوته حقائق ضرورية له، قررتها الآيات التي أغفلها.

ويجب عليه أن يتأنى عند نظره في الآيات التي أمامه، وأن يكون تدبُّره لها عميقاً، ونظراته فيها نافذة، وأن يلاحظ لطائف استعمالاتها وتصريفاتها وتعبيرها عن الموضوع الذي يبحثه.

وعندما يخرج من الآيات بأية فكرة أو قاعدة أو كلية أو دلالة، فعليه أن يتأكد من عدم مخالفة قاعدته الكلية لآية من الآيات التي أمامه، وعليه أن يقدم الدليل على قاعدته من نفس الآيات التي ينظر فيها.

وعليه أن يترك القواعد والكليات السابقة التي تعجّل بها بعض السابقين، والتي ثبت أنها تتعارض مع آيات القرآن.

ويطيب لي هنا أن أورد كلام الدكتور عبدالستار السعيد، وثناءه على كتاب ضروري في هذا المجال، يتفق مع هذه القاعدة المنهجية، وهي: التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل.

قال الدكتور السعيد: «والغرض أن ينتبه من يتعرض للتفسير الموضوعي غاية الانتباه، ويأخذ حذره، حتى لا يقع في حكم قاصر، أو قاعدة ناقصة، أو أصل منقوض.

وأولى الناس أن «يتبينوا» وأن «يتدبروا» القرآن، هم علماؤه ومفسروه، والله يعصمنا جميعاً من الزلل، خاصة في كتابه ودينه.

ولشيخ شيوخنا العلاّمة محمد عبدالخالق عضيمة، رحمه الله تعالى، دراسات علمية جامعة - سبق أن نبهنا عليها[1] وقد نحا فيها نحواً عجيباً فريداً، تجعل من أسلوب القرآن حَكَماً في كل ما يعرض للدارس من قوانين النحو والصرف، وتسجل الظواهر اللغوية والنحوية في ضوء الأسلوب القرآني الإحصائي، بعد أن استبد بها الشعر دهراً طويلاً، وبذلك أصبحت قواعد القرآن معياراً لهذا الباب، يصحح الأخطاء القديمة، ويرد إليه ما يَجِدُّ ويُستَحدث من قضاياه..»[2].

٥- مراعاة خصائص القرآن الكريم: على الباحث في التفسير الموضوعي مراعاة خصائص القرآن البيانية والأسلوبية والتعبيرية، وخصائصه الفكرية والموضوعية. ولا يجوز له مخالفتها أو الخروج عليها.

وإذا أغفل الباحث خصائص القرآن العامة اختلّ معه البحث، واضطربت عنده النظرات، ووقع في الخطأ عند استخراج الحقائق والقواعد والدلالات.

ومن الخصائص والأصول العامة في النظر للقرآن، التي تجب مراعاتها:

---

(١) هي موسوعة الشيخ عضيمة النافعة «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» وأصدرها في أحد عشر مجلداً ضخماً، قبل وفاته عام ١٩٨٣ رحمه الله.

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي: ٧٦-٧٧.

أ- القرآن أصل الأصول العلمية كلها.
ب- القرآن هو الغاية في الإحكام والإتقان.
ج- لا تكرار ولا زيادة في الأسلوب القرآني.
د- القرآن كتاب هداية وتوجيه.
هـ- القرآن عربي اللسان.
و- براءة القرآن من المثالب والأخطاء التي وقع بها بعض العرب.
ز- الأصل في التعبير القرآني حمله على الحقيقة، ولا يقال بالمجاز إلا عند قوة الدليل. ويجب حملُ القرآن على الحقيقة في آيات العقيدة والتشريع والأخبار والقصص.
ح- ليس كل مجاز يصلح للقرآن، فالمجاز القرآني في الأسلوب والتعبير، وهو مجاز له أصل من الحقيقة في الواقع.
ط- لا ترادف في ألفاظ القرآن ومفرداته.

فعلى الباحث مراعاة هذه الخصائص العامة للقرآن، وعدم مخالفتها أو الخروج عليها، لئلا يخطئ في دراسته الموضوعية القرآنية[1].

ويمكن أن نضيف إلى تلك القواعد الخمسة بعض القواعد والمنطلقات المنهجية الأخرى.

٦- إدراك المهمة الأساسية للقرآن، وتصور مقاصده وأهدافه: فعلى الباحث أن يؤمن أن القرآن له مهمة أساسية يريد تحقيقها في حياة المسلمين.

إنه كتاب هداية يريد هداية الناس إلى الله. وكتاب تشريع وحكم يقدم للمسلمين أحكامه وتشريعاته الصائبة. وكتاب علم ومعرفة يقدم للمسلمين الحقائق العلمية والموضوعية.

كما أنه كتاب تربية وتوجيه وتهذيب وسلوك، وكتاب مواجهة للباطل، وهو يقود المسلمين في التصدي للكفار، ويعلمهم كيفية مواجهتهم والوقوف أمامهم وجهادهم.

---

(١) انظر هذه القواعد المنهجية الخمسة في: المدخل إلى التفسير الموضوعي: ٦٧-٨٦. وقد عرضناها بإيجاز وتلخيص وتصرف.

وعلى الباحث أن يجعل تفسيره الموضوعي بياناً لهذه المهمة القرآنية، وتحقيقاً لهذه المقاصد والأهداف القرآنية السامية.

٧- الثقة المطلقة بالحقائق القرآنية، وعدم الانبهار بالنتاج الجاهلي: فعلى الباحث في التفسير الموضوعي التعامل مع الموضوعات والحقائق والقيم القرآنية بالثقة المطلقة، واليقين التام، والقناعة المطلقة. إن كل ما في القرآن حق وصدق وصواب، وإن ما قاله القرآن فهو القول الذي ما بعده قول، وإن ما قرره القرآن فهو الحق الذي لا يتطرق إليه شك.

وهذا معناه التعامل مع حقائق القرآن بكل عزة وتفاعل، والشعور بأنه في غاية الثقة والاستغناء بما في القرآن عن كل ما سواه.

والانطلاق بعد هذه الثقة والاعتزاز بما في القرآن للنظر إلى النتاج الفكري الجاهلي، في مختلف ميادينه الإنسانية والاجتماعية والحضارية والدولية والفكرية، والنظر إلى هذا النتاج الجاهلي البشري على هدي حقائق القرآن، ليعرفه على حقيقته، ويزن أصحابه بالميزان الصحيح، ويضعهم في المكان الطبيعي الذي يجب وضعهم فيه.

عند ذلك لا يكون منبهراً بالنتاج الجاهلي البشري، ولا يكون مهزوماً نفسياً وشعورياً أمامه، ولا يكون شاكاً في قرآنه، متردداً في حقائق إسلامه، لأن النتاج الجاهلي يعارضها ويشكل فيها.

عند ذلك يواجه الباحث هذا النتاج الفكري بهذه النفسية الواثقة، وهذا الاعتزاز البصير، فيكشف عيوبه وسوءاته، ويدحض شبهاته وأباطيله، ويوقف الناس على مظاهر الخطأ والتزييف فيه.

ويجعل الباحث تفسيره الموضوعي معرضاً لمواجهة الأفكار الجاهلية وتفنيدها، ووسيلة لتعزيز الثقة واليقين بحقائق القرآن عند الآخرين.

٨- التركيز على الأبعاد الواقعية للموضوعات القرآنية: إن القرآن الكريم ينظم الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان، ويعالج مشكلات الناس الحياتية الواقعية.أينما حلّوا.

والقرآن ينظم حياة الناس المعاصرة، ويحل مشكلاتهم المعاصرة، والمسائل والقضايا المعاصرة لها عند القرآن حلول وتوجيهات.

وإن الآيات القرآنية ذات أبعاد واقعية، وإن الموضوعات القرآنية ذات مضامين واقعية.

والمسلم المعاصر قد يغفل هذه الأبعاد والمضامين الواقعية للآيات والموضوعات القرآنية، وقد لا يعرف أن للقرآن كلاماً وحديثاً حول هذه القضايا والمسائل التي تشغل بال الناس في هذا العصر.

وإذا تعرف المسلمون على هذه الآفاق القرآنية المعاصرة، وعاشوا في رياضه، وسعدوا بالحياة في ظلاله، وهو يوجه ويناقش ويشخص ويعالج، فإنهم يزدادون عليه إقبالاً، وبه استمساكاً، ولعلومه نشراً.

والتفسير الموضوعي وسيلة ومناسبة لنشر هذه الآفاق القرآنية ذات الأبعاد الواعية، وتقديم هذه المعلومات العلمية القرآنية الصادقة.

فعلى الباحث في التفسير الموضوعي أن يركز على إظهار وتبيين هذه الآفاق الجديدة للقرآن الكريم، وتقديم هذه الأبعاد الواقعية للآيات والموضوعات القرآنية.

٩- التزود بزاد ثقافي معاصر: على الباحث في التفسير الموضوعي أن يكون واسع الاطلاع، وغزير الثقافة. أن يكون متمكناً من العلم الشرعي والثقافة الإسلامية في مختلف حقول المعرفة، في اللغة والبلاغة والعقيدة والتاريخ والفقه والمنطق.

ثم عليه أن يكون واسع الاطلاع على الثقافات الإنسانية والاجتماعية المعاصرة، وأن يتزود بزاد ثقافي من ذلك، مثل: علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية، وأصول السياسة، وأصول الاقتصاد، وأصول الإعلام، وأسس الحضارة، والنظريات السياسية والدستورية والدولية.

إن تزوّده بزاد ثقافي في هذه الميادين والحقول الإنسانية والمعرفية المعاصرة، يوسع أفقه العلمي والثقافي، ويساعده على إدراك المضامين والأبعاد والآفاق القرآنية، التي تشير إلى هذه الميادين الثقافية.

آيات وموضوعات القرآن لها آفاق وأبعاد ثقافية، متصلة بميادين الثقافة المعاصرة، في القرآن حديث عن التاريخ، والتغيير،والحضارة، والاجتماع، وعلم النفس، والسياسة، والاقتصاد، والإعلام.

ولا يدرك حديث القرآن عن هذه الجوانب ولا يلتفت إلى هذه الأبعاد في الآيات والموضوعات، إلا باحث قرآني أصيل، تزود بزاد ثقافي معرفي في هذه الميادين الثقافية الإنسانية المعاصرة، حيث يجعل هذه الحصيلة الثقافية عنده وسيلة لإظهار هذه الجانب المؤثر في موضوعات القرآن! .

١٠ - دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة: على الباحث في التفسير الموضوعي أن لا يبحث في موضوعات القرآن بمقررٍ فكري مسبق، بأن يؤمن بفكر ما، أو يعتقد اعتقاداً ما، أو ينتمي إلى مذهب ما، وينحاز إلى ما آمن به واعتقده، ثم يدخل عالم القرآن، ليس بهدف البحث العلمي المعرفي الموضوعي المحايد، وإنما بهدف من «يوظف» القرآن لهواه ومصلحته، ومن يبحث في آيات القرآن وتقريراته عن حجة لما آمن به، ودليل لما اعتقده، فإن وجد في آية دليلاً على ذلك طار بها فرحاً، وأعطى فكرته «نسباً» قرآنياً وإن لم يجد آية تدل على ذلك – ولو من بعيد – قام بتحريف معاني بعض الآيات، وليّ أعناقها، وجرّها لتكون شاهدةً لفكرته.

إذا فعل الباحث هذا حرّف معاني الآيات والموضوعات، وجعلها «شهود زور» على ما اعتقده من أباطيل.

على الباحث أن يدخل عالم القرآن بدون مقرر مسبق، يدخله بحيادية علمية موضوعية، يتخلى عن الاختيارات الفكرية السابقة، ويقوم بجولة مع آيات وموضوعات القرآن، وهو خالي الذهن من أي فكرة تتعارض مع القرآن، ويسير مع القرآن حيث سار، ويتوجه معه حيث توجه.

على الباحث المحايد أن يطلب من القرآن «تشكيل» عقليته العلمية، وتكوين شخصيته الثقافية والمعرفية، والقرآن قادر على أن يمده بهذه الأفكار والعلوم والمعارف، وبهذا يُحسن الفهم والتلقي عن القرآن، وتقديم ما تلقاه عنه في دراساته الموضوعية القرآنية! .

الباب الثاني

الدراسة التطبيقية

الفصل الأول

النموذج الأول

التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

مع مادة جهل في القرآن

الجاهل – الجهول – الجهالة – الجاهلية

تمهيد

مادة جهل القرآن

عندما فكّرنا في نموذج للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني – وهو اللون الأول من ألوان التفسير الموضوعي – كما بيّنا أحببنا أن نسير مع مادة «جهل» في القرآن الكريم، وأن نعرضها وفق خطوات التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، التي بيّناها سابقاً.

وعندما ننظر في مفردات واشتقاقات هذه المادة في القرآن، فإننا نرى فيها الصيغ التالية:

الفعل المضارع: تجهلون. يجهلون.
اسم الفاعل مفرد وجمع: جاهل، جاهلون.
صيغة المبالغة: جهول.
مصدر سماعي: جهالة.
اسم: جاهلية.

وسوف نسير مع التفسير الموضوعي لمادة «جهل» في الاستعمال القرآني، وفق الخطوات المتدرجة التي بيناها في الدراسة النظرية.

المبحث الأول

معنى جهل في اللغة

سنطلع الآن على المعنى الأساسي والثانوي لكلمة «جهل» في اللغة.

أولاً: معناها عند ابن فارس:

قال ابن فارس في «مقاييس اللغة» عن جهل:

«الجيمُ والهاء واللام أصلان:

أحدهما: خلاف العلم.

والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة.

فالأول: الجهل نقيض العلم. ويقال للمفازة التي لا عَلَمَ بها: مَجْهَل.

والثاني: قولهم للخشبة التي يُحرّك بها الجَمْر: مِجْهَل. ويقال: استجهلت الريح الغصن: إذا حركته فاضطرب.

ومنه قول النابغة:

دَعــاكَ الهَــوى واسْــتَجْهَلَتْكَ المنــازِلُ   وكَيف تـصابي المَرْءِ وَالـشَّيْبُ شـامِلٌ؟

ومعنى: استجهَلْتك المنازل: استخفَّتْك واستفزَّتك.

والمَجْهَلَة: الأمر الذي يحملك على الجَهل»[1].

ومعنى قول ابن فارس: «الجيم والهاء واللام أصلان» أنها تُستعمل استعمالاً أساسياً في أصلين رئيسين.

الأصل الأول: الشيء الذي يناقض العلم ويقابله. وهو الجهل.

---

(١) مقاييس اللغة، ١: ٤٨٩-٤٩٠.

والأصل الثاني: الشيء الذي يعني الخفة، أو يحمل عليها.

وذكر ابن فارس بعض الاستعمالات في الأصلين المذكورين. فالصحراء تسمى «مَجْهَل» لأنها مكان واسع شاسع، ليس فيها علامة، وعندما يسير فيها الإنسان فقد يضلّ طريقه، ولا يعلم أين هو. وبهذا يكون جاهلاً قطع الطريق.

و«المِجْهَل» هي الخشبة التي يحرّك بها الإنسان الجمر، فالخشبة هي السبب في تحريك الجمر واضطرابه، وإذهاب سكونه.

والريح تستجهل الغصن، لأنها تحركه، وتزيل سكونه.

والهوى يستجهل العجوز المتصابي، لأنه يقضي على اتزانه وهدوئه ووقاره، ويجعله خفيفاً مراهقاً، مستسلماً لهواه! وهذه هي الخفة التي لا تناسب الشيب في شعره، والتقدم في عمره.

وعندما ننظر في الاستعمالين الأساسيين للجهل – عدم العلم والخفة – فإننا نراهما متكاملين، فعدم العلم يناقض الطمأنينة، وهما فرعان من فروع الجهل.

إن العلم يقود إلى الطمأنينة، والعلم يظهر على صاحبه التزاماً وسلوكاً وتطبيقاً، وهذا يمنح شخصيته الهدوء والطمأنينة، والرزانة والوقار.

أما الجهل فقد يكون بعدم العلم، وقد يكون بعدم الالتزام والانضباط، وهذا يقود إلى الخفة والطيش.

الجاهل خفيف طائش في شخصيته وتصرفاته وأقواله واهتماماته، هذا يقابل الانضباط والرزانة في شخصية العالم.

ثانياً: معناها عند الراغب:

قال الإمام الراغب الأصفهاني: «الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: خلوّ النفس من العلم، هذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يُفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمداً.

والجاهل تارة يُذكر على سبيل الذم، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذم..»[1].

الأصل في معنى الجهل هو عدم العلم، فالجاهل هو الذي لا علم عنده، لكن الإمام الراغب أورد للجهل ثلاثة استعمالات، ونرى فيها ترتيباً ومرحلية.

فالاستعمال الأول هو الأساس، وينتج عنه الاستعمال الثاني، وهذا يقود إلى الاستعمال الثالث.

فالجاهل ليس عالماً أولاً، وهذا أساس مشكلته، وعدم علمه يقوده إلى اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والإيمان بالباطل، ولو كان عالماً لما اعتقد ذلك، وهذا يقوده إلى الفعل الخاطئ، وهو ثمرة لكل ما سبق.

وقد يوصف بعضهم بالجهل على الاستعمال الثالث – وهو جهل العمل – فقط، ولا يكون موصوفاً بجهل الاعتقاد، مثل المسلم الذي يترك الصلاة.

والأصلان الصحيحان لمادة «جهل» عند ابن فارس، موجودان في كلام الراغب، فالاستعمالان الأولان للجهل عند الراغب، يتحقق فيهما الأصل الأول، وهو مقابل العلم، والاستعمال الثالث يتحقق فيه الأصل الثاني، وهو الخفة والاضطراب.

ونستخرج من كلام الراغب أن الجهل نوعان:

الأول: جهل بالاعتقاد والفكر.

والثاني: جهل بالعمل والسلوك.

ثالثاً: معناها عند السمين وابن منظور وأبي البقاء:

ومما ورد عند السمين الحلبي في «عمدة الحفاظ» إضافة على ما سبق في معنى الجهل قوله:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٠٩.

«والجهل ضربان: بسيط، ومركب. وأقبحهما الثاني: لأن صاحبه يجهل، ويجهل أنه يجهل..

.. وجَهَّلْتُه: نسبته إلى الجهل. واسْتَجْهَلْتُه: وجدته جاهلاً.

وأجْهَلْتُه: جعلته جاهلاً. واستجهَلْتُه: حملتُه على الجهل أيضاً»[1].

ونقل محقق كتاب عمدة الحفاظ الدكتور محمد ألتونجي تعليقاً من أحد النسّاخ يتعلق بمعنى الجهل، وجده في أحد نسخ الكتاب، وهو تعليق مهم.

قال المعلق: «وليس كل من لا يعلم جاهلاً بالإطلاق، ولكن الجاهل في الحقيقة هو الذي يترك طلب حد الشيء وحقّه المعتمد على غير ما هو به، ولولا ذلك لما استحق اللائمة والمذمة على جهله»[2].

أما ابن منظور فنأخذ منه الإضافات التالية على معنى الكلمة:

«التّجهيل: أن تنسبه إلى الجهل. والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير العلم.

والمَجْهَلة: ما يحملك على الجهل. ومنه الحديث: الولد: مَبْخَلة مَجْبَنة مجهلة. وفي الحديث: إنكم لتجهلون وتبخّلون وتجبّنون. أي: يحملون الآباء على الجهل بملاعبتهم إياهم.

والمعروف في كلام العرب: جَهِلْتُ الشيء إذا لم تعرفه. تقول: مثلي لا يجهل مثلك.

والجاهلية: زمن الفترة، ولا إسلام. وقالوا: الجاهلية الجهلاء من المبالغة.

وفي الحديث: «إنك امرؤ فيك جاهلية»: هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله سبحانه ورسوله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك..»[3].

---

(١) عمدة الحفاظ: ١:٤٠٧-٤٠٩ باختصار وانتقاء.

(٢) المرجع السابق، ١:٤٠٩ حاشية.

(٣) لسان العرب، ١١:١٢٩-١٣٠ باختصار وانتقاء.

وقال أبو البقاء إضافةً على ما سبق ذكره:

«الجهل البسيط: عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالِماً به.

والجهل المركّب: هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق. سمي به لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه، فهذا جهل آخر، قد تركّبا معاً.

والجهل يقال اعتباراً بالاعتقاد، والغيّ يقال اعتباراً بالأفعال. ولهذا قيل: زوال الجهل بالعلم، وزوال الغي بالرشد.

والجهل أنواع:

جهل باطل لا يصلح عذراً. وهو جهل الكافر بصفات الله وأحكامه، ومنه جهل الباغي، وجهل من خالف باجتهاده الكتاب والسنّة.

وجهل يصلح عُذراً، كالجهل في موضع الاجتهاد، والجهل في موضوع الشبهة.

وأما جهل ذوي الهوى بالأحكام المتعلقة بالآخرة، كعذاب القبر والرؤية والشفاعة لأهل الكبائر، فلم يكن هذا الجهل عذراً، لكونه مخالِفاً للدليل الواضح من الكتاب والسنّة والمعقول، لكنه لما نشأ من التأويل للأدلة كان دون جهل الكافر.

وجهل مسلم في دار الحرب لم يهاجر إلينا، بالشرائع كلها، يكون عذراً...»[1].

أما كاتبو «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فقد أوردوا الاستعمالات التالية لمادة الجهل:

«جَهِلَت القِدْر: اشتدَّ غليانها.

وجهل فلان على غيره جَهْلاً وجهالة: إذا جفاه وتسافَه عليه.

وجَهِلَ بالشيء: لم يعرفه.

وجَهِلَ الحق: أضاعه.

وأجْهلَه: جعله جاهلاً. وجَهَّله: نسبه إلى الجهل. وجاهَلَه: سافهه.

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٣٥٠ بتصرف واختصار.

واجْتَهَلَه الغضب: حمله على الجهل. وتجاهل: أظهر أنه جاهل وهو ليس كذلك.
واستَجْهَله: حمله على الجهل. واسْتَجْهَلَتِ الريح الغُصن: إذا حركته فاضطرب.
والجاهلية: ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة..»[1]..

رابعاً: خلاصة معنى الجهل:

وخلاصة الأقوال السابقة في معنى الجهل:
أنه قد يكون في الاعتقاد والفكر، وقد يكون في التصرف والفعل.
فإن كان في الاعتقاد كان الجهل مقابلاً للعلم، وضِدّاً ونقيضاً له.
وإن كان في التصرف والسلوك كان بمعنى الخفة والطيش.

والجهل بمعنى عدم العلم والمعرفة، إذا كان صاحبه غير مقصر يكون معذوراً غير ملوم، وإذا كان مقصراً كان ملوماً.

وفي كلا المعنيين للجهل: عدم العلم وعدم الاتزان، ترى الخفة والطيش وعدم الطمأنينة والاضطراب.

فالجهل الفكري يعني الخفة والطيش والاضطراب الفكري، فلا يكون الجاهل فكرياً على يقين ولا طمأنينة، وإنما يكون ضائعاً قلقاً مضطرباً.

والجهل السلوكي يعني الخفة والطيش في شخصية وأفعال وتصرفات صاحبه، فلا يكون فعله صواباً، ولا يكون هو متزناً موضوعياً.

ونستصحب هذه الخلاصة معنا، وندخل عالَمَ القرآن، لنرى صور واشتقاقات هذه الكلمة «الجهل» في السياق القرآني.

خامساً: مادة «جهل» في السياق القرآني:

وردت مادة «جهل» في القرآن في الصيغ والاشتقاقات التالية:

١ – «تجهلون»: فعل مضارع بتاء الخطاب: أربع مرات.

---

(١) المعجم الوسيط، ١:١٤٣-١٤٤.

٢- «يجهلون»: فعل مضارع بياء الغائب: مرة واحدة.

٣- «الجاهل»: اسم فاعل من «جهل» للمفرد. مرة واحدة.

٤- «جاهلون» اسم فاعل للجماعة. رفعاً ونصباً وجراً، تسع مرات.

٥- «جهول»: صيغة مبالغة مرة واحدة.

٦- «جهالة»: مصدر سماعي أربع مرات.

٧- «الجاهلية»: اسم خاص أربع مرات.

وبإحصاء مرات ورود المادة في القرآن نجده أربعاً وعشرين مرة.

وفيما يلي وقفة مطولة تحليلية مع الصيغ المذكورة أعلاه، ونظرة على السياق الذي وردت فيه كل واحدة، واستخراج لبعض اللطائف واللمحات والإشارات من ذلك.

المبحث الثاني

تجهلون – يجهلون: في السياق القرآني

لم يرد الفعل الماضي «جهل» في القرآن.

الفعل المضارع «يجهل» ورد خمس مرات. وهو في هذه المرات كلها مسند إلى واو الجماعة. ولكنه ورد على حالتين:

الأولى: مضارع بتاء الخطاب: «تجهلون»: ورد أربع مرات.

الثانية: مضارع بياء الغائب: «يجهلون»: ورد مرة واحدة.

المطلب الأول

قول موسى لبني اسرائيل: إنك قوم تجهلون

في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سورة الأعراف، أخبرت الآيات أن الله أنجى بني إسرائيل من الغرق، وأهلك فرعون وجنوده، ولما خرجوا من البحر وجدوا قوماً من الوثنيين يعبدون أصناماً لهم، فأُعجِب بنو إسرائيل بهم، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً إلهاً، مثل هؤلاء، فغضب موسى منهم، ووصفهم بالجهل.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

تشير هذه الآيات إلى الطبيعة الخاصة المنحرفة لبني إسرائيل، تلك الطبيعة المجبولة على الانحراف وعلى تقليد ومحاكاة الآخرين، والتي لا تتأثر بالآيات البينات! .

فقد أراهم الله من آياته الباهرة، الدالة على ألوهيته وحده، ما أراهم. فقد شقّ لهم البحر، وجعل لهم وسطه طريقاً يَبَساً، وأنقذهم جميعاً، ولما لحق بهم فرعون وجنوده، أطبق الله عليهم الماء وأغرقهم جميعاً.

ماذا يريدون آية بينة على وحدانية الله أكثر من هذه الآية؟ .

ولكنهم بدل أن يؤمنون بالله وحده، وأن يشكروه على نعمه عليهم، طلبوا من نبينهم موسى عليه السلام الشرك بالله! .

فلما غادروا البحر، وابتعدوا عنه قليلاً، أتوا على قوم مشركين بالله، عاكفين على أصنام لهم، عابدين لها من دون الله، معتبرين أنها آلهة.

ولما شاهد بنو إسرائيل هذا المنظر، لم ترفضه نفوسهم، ولم تأخذهم الغيرة على الإيمان، ولم يستنكروا هذا الشرك بالله، ولم يطلبوا قتال القوم وتحطيم أصنامهم، وهذا هو التصرف المتوقع من قوم مؤمنين بالله، سائرين مع نبي، خارجين من معجزة باهرة دالة على توحيد الله.

لقد طلبوا من موسى عليه السلام طلباً في غاية السماجة والجهالة، حيث قالوا له: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة!! .

طلبوا من نبيهم أن يصنع لهم صنماً، وأن يدعوهم لعبادته مكان عبادة الله! .

ورد عليهم موسى عليه السلام رداً غاضباً، ووصفهم بأنهم يجهلون. قالوا: «إنكم قوم تجهلون».

وأخبرهم أن هؤلاء القوم المعجبين بهم هالكون، وأعمالهم هالكة باطلة، بسبب عبادتهم لغير الله، وهل يريد بنو إسرائيل إلهاً غير الله؟ الذي أنعم عليهم بالنعم كلها.

لماذا طلب بنو إسرائيل أن يجعل لهم موسى عليه السلام إلهاً كأصنام القوم؟ .

لأنهم قوم يجهلون. يجهلون مقام الله، ويجهلون وحدانية الله، ويجهلون أنه لا شريك مع الله، ويجهلون أن الأصنام المعبودة بالباطل ليست آلهة، ويجهلون أن عابديها كافرون، ويجهلون أنهم هالكون خاسرون لعبادتهم لها، ويجهلون أنه لا يجوز للمؤمنين التشبه بالكفار ومحاكاتهم وتقليدهم ومتابعتهم في كفرهم.

ونلاحظ أن الفعل في الآية: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ مطلق، ولم يقيد بقيد، فلو ورد مقيداً لقصره بعضهم على ذلك القيد. فلو قال: إنكم قوم تجهلون عظمة الله، لقيدناها بذلك، ولو قال: إنكم قوم تجهلون أن الأصنام ليست آلهة، لقيدناها بذلك.

والإطلاق وحذف معمول «تجهلون» دليل على العموم والشمول، والمراد وصف بني إسرائيل بالجهل العام المطلق المطبق، الذي يشمل كثيراً من صور الجهل، كما أشرنا إلى بعضها قبل قليل.

عندما ننظر في موضع هذه الآية التي ورد فيها الفعل، فإننا نعرف أن المراد بالجهل هنا «جهل اعتقادي»، لأن موضوع الآية هو العقيدة، فالقوم يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يطلبون أصناماً مثلهم.

هل جهل بني إسرائيل الذي دفعهم إلى هذا الطلب السمج هو نقيض العلم؟.

بمعنى هل عدم علمهم هو الذي حملهم على هذا؟ .

الجواب بالنفي، لقد كانوا يعلمون علماً نظرياً، فقد أخبرهم موسى عليه السلام أنه لا إله إلا الله، وأن الأصنام ليست آلهة، وأن عابديها مشركون، وقد شاهدوا من آيات الله ومعجزاته الدالة على وحدانيته ما شاهدوا، كانوا عالمين بذلك، ومع ذلك العلم النظري طلبوا عبادة الأصنام، والذي دفعهم إليه هو تقليد الآخرين ومحاكاتهم، وشعورهم بالنقص أمامهم.

المراد بالجهل هنا هو السفه والخفة والطيش، الذي أنساهم معلوماتهم النظرية عن التوحيد والشرك، وغطى على تلك المعلومات.

المطلب الثاني
قول نوح قومه الكافرين: أراكم قوماً تجهلون

لما بدأ نوح عليه السلام دعوته، كفر به الملأ من قومه، واتّبعه الضعفاء من قومه، واعتبر الملأ الطغاة من قومه اتباع المستضعفين له مطعناً يوجه له ولدعوته، وطلبوا منه طرد أولئك الأراذل الضعفاء، ليفكروا بعد ذلك بالإيمان به واتباعه.

وقد رد نوح عليه السلام على شبهات الملأ، وعلى طلبهم طرد أتباعه، ووصفهم بالجهل، ودلهم على أن الذي حملهم على كل ذلك هو الجهل.

ننظر في الآيات التي سجلت ذلك، وورد فيها وصف نوح لقومه بأنهم قوم يجهلون:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٢٧-٣١].

يخاطب نوح عليه السلام الملأ المستكبرين من قومه بأنه يراهم قوماً جاهلين: «ولكني أراكم قوماً تجهلون».

وفعل «تجهلون» هنا مطلق غير مقيد، ليشير إلى أن جهلهم عام شامل مطلق، وهو يَنصَبُّ على طلبهم أساساً، حيث طلبوا منه طرد المؤمنين المستضعفين. إنه يخبرهم أنهم يجهلون عندما طلبوا ذلك، وأن الجهل هو الذي حملهم عليه.

ما هو الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات، والذي كان الملأ جاهلين به؟ .

إنه النظرة إلى الناس وتقويمُهم ووزنهم وتقديرهم.

إن الملأ من قوم نوح يجهلون الميزان الذي يزنون به الناس، ويستخدمون في ذلك ميزاناً جاهلياً خادعاً، يزنون الناس ويقوِّمونهم على أساس المال والجاه والمنزلة والمتاع والظواهر المادية.

وعندما أرادوا وزن أتباع نوح عليه السلام في هذا الميزان الخادع، وجدوهم لا يساوون شيئاً، فطلبوا من نوح عليه السلام طردهم، ووصفوا هؤلاء الأتباع بقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا

بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ .

وميزان نوح عليه السلام في وزن الناس وتقويمهم صحيح سليم، ونتائج الوزن فيه صائبة، ولما وزن أتباعه في هذا الميزان، وجدهم ذوي وزن وقيمة ومنزلة، ولهذا قال لقومه يوضح هذه الحقيقة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

إن نوحاً عليه السلام يبين للملأ المستكبرين من قومه جهلهم في وزن الناس وتقويمهم، ولذلك يعتبرون المستضعفين أراذل، بادي الرأي، ليس لهم على الملأ من فضل، فهم كاذبون، ولن يؤتيهم الله خيراً، ولهذا ازدرتهم أعين هؤلاء الملأ واحتقروهم.

وإذا كانوا هكذا في ميزان الملأ الجاهلي، فإنهم في ميزان نوح الإيماني: مؤمنون، موقنون بملاقاة الله، مقربون عند الله، جنود لله، الله أعلم بما في أنفسهم من خير وإيمان، فهو يحبهم، وينتقم ممن ظلمهم واحتقرهم وازدراهم! .

الجهل الذي وقع به هؤلاء الملأ هو جهل بالقيم الحقيقية التي يوزن بها الناس، وهو جهل خفة وطيش، جهل سلوكي تقويمي، وهذا الجهل أدى إلى استخفاف الملأ بالمؤمنين وازدرائهم.

ونرى تحقيق المعنيين الأساسيين للجهل في جهل هؤلاء الملأ، فعدم علمهم بالميزان الصحيح لوزن الناس، قادهم إلى الاستخفاف بالمؤمنين وازدرائهم!! .

المطلب الثالث

قول لوط لقومه: بل أنتم قوم تجهلون

بعث الله لوطاً عليه السلام نبياً إلى قومه، وكانوا كفاراً مشركين بالله، ووجد عندهم انحرافاً من نوع آخر، انحراف سلوكي شهواني، وهو إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء، فذمهم لأجل ذلك، ووصفهم بالجهل.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٤-٥٦].

وصف لوط ﷺ قومه الشاذين بأنهم قوم يجهلون. ونلاحظ أن فعل «تجهلون» في الآية مطلق، وذلك ليشمل كل صور الجهل وألوانه وحالاته.

وأبرز ما ينطبق عليه جهلهم هو ما أنكره لوط ﷺ عليهم:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

لقد أنكر عليهم لوط ﷺ ثلاثة أمور:

الأول: إتيانهم الفاحشة وارتكابهم لها، واستعباد الشهوة لهم.. بحيث تحكمت فيهم، وسيطرت على حياتهم.

الثاني: إيتانهم الرجال شهوة من دون النساء، وجعلُ أدبار الرجال مكاناً لقضاء الشهوة، وممارسة الشذوذ، مع علمهم أن الرجال ليسوا موضعاً للشهوة، ولا مكاناً للتناسل.

الثالث: ارتكابهم فاحشة إتيان الرجال علانية، فقد ينحرف أناس ويرتكبون الفاحشة، ولكنهم يفعلونها سراً، لشعورهم بشيء من الحياء والتحرّج، أما أن يزول ذلك التحرج، ويكون الشذوذ عرفاً اجتماعياً مقبولاً، فهذا جهل شديد: «أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟».

وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة جريمة بشعة، يوصف مرتكبوها بالجهل، فكيف إذا اجتمعت كلها في قوم؟ كيف يكون جهلهم؟ .

ما هو الجهل الذي وصفهم به لوط ﷺ؟ .

إنه الجهل بارتكاب الفاحشة والاستعباد للشهوة، والجهل بقضاء الشهوة عند الرجال وليس النساء، والجهل بارتكاب ذلك علانية وهم يبصرون.

هل هذا الجهل هو نقيض العلم؟ أم هو جهل الخفة والطيش والسفه؟ .

إنهم يعلمون أن الرجال لم يهيؤوا بالفطرة لقضاء الشهوة، ولم تُجهَّز أبدانهم «بيولوجياً» لذلك، ولا يصلحون للحمل والإنجاب والتناسل، وقد خلقهم الله ليكونوا طالبين للنساء، لا مطلوبين من قِبَل رجال آخرين، وهيّأ الله النساء لتتفاعل مع الرجال نفسياً وجسدياً وفطرياً، عن طريق التزاوج والإخصاب والتناسل.

هذا أمر فطري، تعرفه جميع الأقوام والأمم، ومنهم قوم لوط ﷺ، ومع هذا العلم اليقيني ترك القوم الشاذون مقررات الفطرة، وانصرفوا عن النساء موطن الاستمتاع واللذة وقضاء الشهوة فطرياً، وطلبوا الرجال لقضاء الشهوة الشاذة، وهم يعلمون عدم صلاحيتهم لهذا.

هذا الجهل الذي ارتكبوه، هو جهل خفة وطيش، جهل سفه وفعل، جهل ممارسة وشذوذ، ولهذا قال لهم لوط ﷺ: «بل أنتم قوم تجهلون».

وجهل قوم لوط الجنسي بارتكاب فاحشة الشذوذ قادهم إلى جريمة أخرى خطيرة، وهي فساد النظر والحكم والميزان، تمثل في هذا الفساد والاضطراب في تعليل أمرهم بإخراج لوط وأتباعه. قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ .

لقد قرر الملأ الشاذون الجاهلون من قوم لوط، أنه لا مكان للوط وأتباعه المؤمنين بينهم، ولذلك يجب إخراجهم من قريتهم، والسبب في ذلك هو تطهُّرهم، أي: ترفّع لوط والمؤمنين معه عن الممارسات الشاذة الجاهلة للقوم الشاذين الجاهلين. هذا الترفّع والتطهر، هذه العفة في ممارسة الشهوة وفق نداء الفطرة والشرع، جريمة يستحقون عليها عقوبة الطرد والإخراج!! .

المطلب الرابع
قول هود لقومه: أراكم قوماً تجهلون

أرسل الله هوداً عليه السلام رسولاً إلى قوم عاد بالأحقاف، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأخبرهم أنه يخاف عليهم العذاب إن أصروا على كفرهم. ولكن القوم ردّوا دعوته، وكفروا به، وطلبوا منه إيقاع العذاب الذي يهددهم به. فأخبرهم أن وقوع العذاب بهم بأمر الله، وما عليه إلا البلاغُ، ووصفهم بالجهل بسبب موقفهم. ولما أتاهم العذاب في صورة سحابٍ كثيف، ظنّوه سحاباً ممطراً، وإذا به عذاب ودمار.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٥].

هذا هو السياق الذي ورد فيه وصف هود عليه السلام لقومه بالجهل، وقوله لهم: «ولكني أراكم قوماً تجهلون».

وفعل «تجهلون» هنا عام أيضاً مطلق، وذلك ليشمل كل صور الجهل وحالاته.

وعندما نمعن النظر في سياق الآيات، فإننا نقف على نماذج وأمثلة للجهل الشامل الذي وقع فيه قوم عاد:

١- **جهل الاختيار**: فقد دعاهم هود عليه السلام إلى الإيمان بالله، وعدم الشرك به، والتخلي عن ما ورثوه عن آبائهم الكافرين من شرك بالله. ولكنهم رفضوا دعوته، واختاروا الكفر به والشرك بالله، وعبادة آلهة من دونه، وقالوا لهود عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾.

إن اختيارهم عبادة الآلهة على عبادة الله دليل جهلهم، واختيارهم الشرك بالله على توحيده دليل جهلهم، واختيارهم الكفر بهودٍ على الإيمان به دليل جهلهم.

٢- **جهل الطلب**: فلما هددهم هود بالعذاب، وأخبرهم بأنه يخاف عليهم العذاب، لم يتفاعلوا مع وعيده وتهديده، ولم يستقبلوا تخوفه وإشفاقه، ولم يستجيبوا لدعوته ليرفع عنهم العذاب، ولو تصرفوا تصرفاً إيجابياً، لكانوا عالمين، ولكان تصرفهم منطقياً موضوعياً سلبياً.

لكنهم قوم يجهلون، فطلبوا إيقاع العذاب الذي يهددهم هود به، بل واستعجلوا ذلك العذاب، وقالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

هل يفعل هذا عاقلون؟ وهل يطلب هذا الطلب عالمون؟ إن هذا الطلب الغبي لا يصدر إلا عن قوم جاهلين، ولهذا رد هود عليه السلام على طلبهم بصراحة ووضوح: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

٣- **جهل التحليل والنظر**: فلما استعجلوا العذاب، أرسل الله لهم ذلك العذاب في صورة سحاب عارض، اعترض الأفق، وغطى الجبال أمامهم.

ولما شاهد القوم ذلك السحاب الكثيف المتراكم من بعيد، ظنّوه سحاباً ممطراً، وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. ففرحوا به واستبشروا، وعلّقوا عليه الآمال بالغيث والخصب.

وهذه نظرة جاهلة، وهذا تحليل وتعليل جاهل، صدر عن قوم جاهلين. فما درى هؤلاء الجاهلون السذج أن هذا السحاب العارض هو العذاب الذي استعجلوه بجهل، ولهذا قيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

وصور الجهل الثلاثة التي تحقق فيه قوم عاد – جهل الاختيار وجهل الطلب وجهل النظر – يتحقق فيها المعنى الجامع للجهل، فهم يجهلون جهلاً مقابلاً للعلم، لا يعلمون أن العذاب عند الله، وأن هوداً عليه السلام لا يملك استقدامه أو دفعه. وهم يجهلون جهل الخفة والسفه والطيش، ولهذا استعجلوا العذاب، ولم يعرفوا أن السحاب الذي أمامهم هو العذاب الذي طلبوه.

المطلب الخامس
لطائف فعل تجهلون

بعد هذه النظرة السريعة في السياق الذي ورد فيه الفعل المضارع للمخاطب «تجهلون» في مراته الأربعة في القرآن، نقف لنستخلص بعض اللطائف العامة:

١- تحقق في المرات الأربعة التي ورد فيها الفعل، المعنى الجامع للجهل في اللغة، وهو الجهل المناقض للعلم، الذي يقود إلى الخفة والسفه والطيش.

ولقد تحقق هذا الجهل في الأقوام الأربعة المذكورين في المرات الأربعة: قوم نوح، وقوم هود، وقوم لوط، وقوم موسى.

٢- وردت المرات الأربع في سياق القصص القرآني، الذي سجَّل قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، فالذين يجهلون هم: قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم موسى.

٣- الجهل الوارد في المرات الأربع كان جهل القوم بعمومهم، أي: أنه كان جهلاً جماعياً، وليس جهلاً فردياً، أي: أن الجهل كان عاماً في أولئك الكفار.

٤- الجهل المذكور في المرات الأربع مطلق، غير مقيد، فكان النبي يقول لقومه: «أنت تجهلون» ولم يقيد الجهل بحالة من الحالات، أو صورة من الصور، فهم جاهلون جهلاً عاماً شاملاً مطبقاً.

٥- جاء وصف القوم بالجهل على لسان أنبيائهم، فالنبي عالِم علَّمه الله العِلْم الصحيح، وبهذا العلم الرباني عرف النبي الحق من الباطل، وأيقن أنه على حق، وأن قومه جاهلون، فبالعلم يزول الجهل، وبما أن الأقوام ليسوا عالمين، فقد كانوا جاهلين.

٦- الفعل في المرات الأربعة كان بصيغة الخطاب: «تجهلون». حيث كان النبي يصارح قومه بذلك الخطاب، ويصفهم فيه بذلك الوصف المتحقق فيهم. ووصفهم بالجهل في صراحة لا يتناقض مع أساليب الدعوة إلى الله، بالحكمة والموعظة الحسنة، بل هذه المصارحة الواضحة لهم من الحكمة، لعله يهزهم فيتراجعوا عن باطلهم، ويتخلوا عن جهلهم.

٧- الفعل في المرات الأربع ورد في سياق الذم والإنكار، حيث كان كل نبي من الأنبياء الأربعة – نوح، وهود ولوط وموسى عليهم الصلاة والسلام – ينكر على قومه ما هم فيه من باطل، ويذمهم على ما هم فيه من جهل.

٨- التعبير بالفعل المضارع «تجهلون» في المرات الربعة، ليوحي بالتجدد والاستمرار. أي: أن الجهل الذي فيه قوم النبي جهل متجدد دائماً، مستمر دائماً، ينمو ويزداد، ويترسخ في كيانهم، ولا يقضي عليه ولا يزيله إلا العلم الصحيح، والتخلي عن السفه والباطل.

٩- بعد تلك القواسم المشتركة في جهل الأقوام الأربعة – قوم نوح وهود ولوط وموسى – يُفرد السياق أبرز مظهر من مظاهر الجهل الذي تمثل في كل قوم:

فالجهل الذي فيه بنو إسرائيل لما طلبوا من موسى إلهاً صنماً ليعبدوه، كان جهلاً ناتجاً عن تقليدهم للمشركين عابدي الأصنام، وتأثرهم بهم، ورغبتهم في الاقتداء بهم ومحاكاتهم.

أما الجهل الذي فيه قوم نوح، فهو جهل بالقيم والموازين التي يوزن بها الناس وتحدد فيها منازلهم وأقدارهم.

والجهل الذي فيه قوم لوط جهل «جنسي» سلوكي، يتمثل في ممارسة الجنس في غير مكانه الفطري، وقضاء الشهوة في موضع شاذ مستكره مستقبح.

والجهل الذي فيه قوم عاد جهل بالاختيار الفاشل حيث اختاروا الشرك على التوحيد، وجهل بالطلب الغبي حيث طلبوا استعجال العذاب، وجهل في التحليل الخاطئ حيث ظنوا العذاب غيثاً مغيثاً.

وبهذا نرى أن كل قوم من الأقوام الأربعة تفرّدوا بصورة صارخة من الجهل: جهل بني إسرائيل جهل تأثري، وجهل قوم نوح جهل تقويمي، وجهل قوم لوط جهل جنسي، وجهل قوم عاد جهل اختياري طلبي تحليلي.

ولو اتبع كل قوم منهم نبيهم، لزال عنهم ذلك الجهل، ولاتّصفوا مكانه بالعلم، إن الكفر قرين الجهل، وإن الإيمان يُنتج العلم!! .

المطلب السادس

يجهلون في السياق القرآني

كفر المشركون برسول الله ﷺ عناداً، ولكنهم أظهروا أن كفرهم به بسبب عدم وجود آيات ومعجزات مادية معه، كما كان مع الأنبياء السابقين، وحلفوا أيماناً مغلظة أنه إذا جاءهم محمد ﷺ بمعجزة مادية بيّنة، فسوف يؤمنون به ويتّبعونه.

فلعل بعض الصحابة مالَ إلى تصديقهم، وذهب إلى أنه إذا كان المانع من إيمانهم هو عدمَ وجود معجزة مادية، فلماذا لا يطلب الرسول ﷺ من ربّه أن يجري على يديه تلك المعجزة، ليؤمن به أولئك المشركون.

فبيّن الله لأولئك الصحابة أن الكفار معاندون، وأنه لا تنقصهم الآيات، وأنه مهما جاءتهم الآيات والمعجزات فلن يؤمنوا بها إلا إذا شاء الله غير ذلك، وأجبرهم على الإيمان إجباراً، وقد شاء سبحانه أن لا يجبرهم.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١١].

الآية الأخيرة تقرر أن الله لو استجاب لطلبات الكفار، فنزّل إليهم الملائكة من السماء، وخاطبوهم شاهدين على أن محمداً رسول الله ﷺ ، ولو بعث الله آباءهم وأجدادهم الموتى من قبورهم، وخاطبوهم شاهدين على أن محمداً هو رسول الله ﷺ ، ولو حشر الله عليه كل شيء من المخلوقات الحية، من الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور، وجاءت هذه الأحياء مقابلة معاينة لهم، وشهدت أن محمداً هو رسول الله ﷺ .

لو قدم الله لهم هذه الآيات كلها، فإنهم لن يؤمنوا بالله ورسوله، ولن يدخلوا في دينه، إلا إذا شاء الله إيمانهم.

هذه هي الحقيقة الإيمانية، والسنّة الربانية، بشأن الإيمان والكفر. ولكن أكثرهم يجهلونها.

وفي المقصودين بقوله: «ولكن أكثرهم يجهلون» قولان لأهل التأويل:

القول الأول: هم الصحابة، لأن بعض الصحابة لما سمعوا الأيمان المغلظة من الكفار بأنه إذا جاءهم الرسول ﷺ بمعجزة مادية، فسوف يؤمنون به، صدّقوا الكفار في أيمانهم، ورغبوا في مجيء الآية ليؤمنوا.

فتخبر هذه الآيات الصحابة الذين صدّقوا الكفار بأنهم كاذبون، وأنهم لن يؤمنوا، مهما أتاهم من آيات.

يقول الله للصحابة: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

وبعد ما أخبر الله الصحابة بهذه الحقيقة، جاء الاستدراك بعد ذلك: «ولكن أكثرهم يجهلون».

وجاء التعبير بالغائب في «أكثرهم يجهلون» من باب الالتفات، وهو هنا انتقال من حالة خطاب الصحابة فيما مضى، إلى حالة الإخبار عنهم.

وعلى هذا يكون المعنى: أكثر الصحابة يجهلون الدافع للكفار على حلف أيمانهم، وطلبهم الآيات، ولذلك صدّقوهم في طلبهم وأيمانهم.

والمراد بالجهل هنا عدم العلم، أي أن الصحابة لا يعلمون حقيقة كفر الكفار، وأنه قائم على العناد، وبسبب عدم علمهم بما عليه الكفار أخذوا كلامهم على ظاهره، فصدّقوهم فيه، بحسن نية.

ولكن جَهْلَ أكثرِ الصحابة بحقيقة طلب الكفار زال الآن، وحلّ محله العلم الكاشف عما في نفوس الكفار، بعدما أخبرهم الله بالحقيقة في هذه الآيات.

ولا يُلام الصحابة على جهلهم بحقيقة طلب وأيمان الكفار، ولا يُذمون بسببه، لأنه ليس ناتجاً عن تقصير أو تعمد، وكثيراً ما يجهل الإنسان مسائل ومعارف، ولا يُلام على جهله بها، لأنه لم يعتمد ذلك

والتعبير بالأكثرية «أكثرهم يجهلون» يدل على أن بعض الصحابة ما كانوا يجهلون الموضوع، وإنما كانوا ببصائرهم النافذة يعلمون حقيقة كفر الكفار، وحقيقة طلبهم، ولذلك لم ينخدعوا بأيمانهم.

ونرى أن هذا التأويل للآيات مقبول، فيمكن أن يراد بالجاهلين في «ولكن أكثرهم يجهلون» أكثرية الصحابة، ويكون الجهل المقابل للعلم، وقد زال الجهل بالتعليم والتوضيح الذي ذكرته الآيات.

القول الثاني: هم الكفار:

لكن من هم الكفار الذين يجهلون؟ ولماذا عبّر بالأكثرية؟ وما الذي جهله أكثرهم وعلمه أقلهم؟ .

١- يمكن أن يكون الموضوع الذي جهلوه هو الآيات التي طلبوها، فقد طلبوا آية ليؤمنوا، فأخبرهم الله أنهم لن يؤمنوا مهما أتاهم من الآيات، حتى لو نزل عليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشر عليهم كل شيء قُبُلاً.

وهذا الجهل شامل للكفار جميعاً، فلماذا قالت الآية: «ولكن أكثرهم يجهلون»؟

٢- ويمكن أن يكون الموضوع الذي جهلوه هو السنّة الربانية في الإيمان والكفر، ولذلك ظنوا أن الإيمان يحصل ويوجد بعد قدوم الآيات. فأخبرهم الله أن الإيمان مرتبط بخشية الله، فلو شاء الله إيمانهم لآمنوا ولو لم يأتهم آيات، ولو شاء الله عدم إيمانهم لما آمنوا مهما أتاهم من آيات. «وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله».

وهذا الجهل بالسنّة الربانية شامل للكفار جميعاً، فلماذا قالت الآية: «ولكن أكثرهم يجهلون»؟ هل يدل هذا على أن بعض الكفار يعلمون حقيقة القضاء والقدر؟ ويعلمون أن الإيمان والكفر مرتبط بمشيئة الله؟ الجواب بالنفي! .

٣- ويمكن أن يكون الموضوع الذي جهله أكثر الكفار هو حقيقة طلب الكفار الآيات، وحَلْفِهم الأيمان المغلظة.

الكفار فريقان:

فريق الأقلية: وهم القادة والزعماء وأعوانهم، وهم الذين يقودون شعوبهم وأتباعهم في مواجهة الحق، والتصدي له، ويرسمون المكائد والمؤامرات ضده، وما على أتباعهم إلا تصديقهم ومتابعتهم وتأييدهم، وهؤلاء القادة هم الذين سمّاهم القرآن «الملأ». الذين يملؤون عيون وقلوب الأتباع مهابةً وخوفاً.

وفريق الأكثرية والأغلبية: وهم الأتباع للملأ الموجِّهين، وهؤلاء دورهم هو التأييد والتصفيق والاتباع، والموافقة على كل ما يصدر عن الأقلية الموجِّهة المخططة القائدة.

وفي موضوع الآيات التي نتكلم عنها يبرز دور كل فريق منهما.

إن الملأ الموجِّهين يريدون أن يخدعوا الأكثرية من أتباعهم، فهم لا يصارحونهم بحقيقة كفرهم برسول الله ﷺ ، وأنهم معاندون حاسدون، فلو فعلوا ذلك لربما تخلى عنهم أتباعهم.

لذلك يخدعون الأتباع قائلين: إن محمداً ﷺ لم يقدّم لنا معجزات مادية تدل على أنه رسول من عند الله حقاً، ولو كان نبياً لأيّده الله بآيات، كما أيّد أنبياء سابقين! وأقسموا الأيمان المغلظة أنه إذا قدّم لهم آيات مادية، فسوف يؤمنون بها، وأسمعوا هذه الأيمان لأتباعهم، خِداعاً لهم.

ولما سمع الأتباع الأيمان صدّقوا قادتهم، وأيّدوهم، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية، ليؤمنوا هم وقادتهم.

فأخبر الله الجميع – كفاراً متآمرين، وكفاراً متابعين، وصحابة صالحين – أن الملأ الكفار كاذبون في أيمانهم، وأنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات إلا أن يشاء الله.

ثم جاء الاستدراك ليتكلم عن الأكثرية الكافرة المتابعة للملأ: «ولكن أكثرهم يجهلون».

وعلى هذا يكون معنى الاستدراك: أكثر الكفار يجهلون السبب الذي دفع الكفار الملأ إلى طلب الآيات، وحلف الأيمان المغلظة عليه. إنهم لا يعلمون أن ملأهم كاذبون في كلامهم، كاذبون في أيمانهم، غير جادين في طلبهم، إنهم يجهلون كل ذلك، ولذلك صدّقوا قادتهم.

أما الأقلية من الكفار فإنها ليست جاهلة، أي: أن الملأ والقادة المخططين لا يجهلون الأمر، إنهم يعلمون مقصدهم من كلامهم وطلباتهم وأيمانهم، إنهم يعلمون أنهم بذلك يخادِعون الآخرين، ويعلمون أنهم يريدون بذلك محاربة الإسلام، ويعلمون أنهم لن يؤمنوا مهما قدّم لهم الرسول ﷺ من آيات مادية، لأنهم يعلمون أنهم معاندون مخادعون.

وعلى هذا القول يكون المراد بقوله: «ولكن أكثرهم يجهلون» الأكثرية المستغفلة من الكفار، المتابعة للأقلية المخططة، فهذه الأكثرية لا تعلم حقيقة بواعث وأهداف الأقلية من طلباتها وشبهاتها ضد الإسلام.

وعلى هذا يكون المراد بالجهل هنا هو نقيض العلم، وهم يُذمّون على هذا الجهل، لأنهم ألغوا عقولهم، وتابعوا سادتهم وكبراءهم في كل شيء.

ونرى أن هذا هو القول الراجح في تأويل هذه الآيات. والله أعلم.

الخلاصة:

لقد أطلنا الكلام على المراد بالجهل والجاهلية في هذه الآيات، لأن في معناها إشكال وغموض، وكل المفسرين أطالوا الكلام عليها، والتبست على معظمهم أمور كثيرة تتعلق بها.

الراجح أن المراد بقوله: «ولكن أكثرهم يجهلون»: هم الأكثرية الكافرة المتمثلة في الأتباع، الذين يتابعون أسيادهم الملأ القادة في حرب الحق.

والموضوع الذي جهله هؤلاء الأتباع هو حقيقة شبهات الملأ، والدوافع الحقيقية لطلبهم المعجزات وحَلْفِهم الأيمان المغلظة عليها.

وجهلهم هنا هو عدم العلم بتلك الحقائق والدوافع، هذا الجهل الذي قادهم إلى الغفلة والسذاجة، بحيث استخفّ بهم أسيادهم، وجَنّدوهم لما يُريدون.

فالجهل هنا لا يخرج عما قررناه من قبل، في المرات الأربع في فعل: «تجهلون».

المبحث الثالث
الجاهل والجاهلون في السياق القرآني

ورد اسم الفاعل من «جَهِلَ» للمفرد والجمع عشر مرات في القرآن:

١ - اسم الفاعل للمفرد: الجاهل. مرة واحدة.

٢ - اسم الفاعل للجماعة: الجاهلون. في حالة الرفع: ثلاث مرات.

٣ - اسم الفاعل للجماعة: الجاهلين. في حالة النصب: مرة واحدة.

٤ - اسم الفاعل للجماعة: الجاهلين. في حالة الجر: خمس مرات.

ونقف فيما يلي وقفة مع كل من هذه الصيغ:

المطلب الأول
الجاهل: غير العارف

قال الله عن الفقراء المستحقين للصدقة، المتعفِّفين عن السؤال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٧٣].

تقسم الآية الذين يأخذون الصدقة إلى قسمين:

قسم السائلين: الذين يسألون الناس، ويطلبون منهم الصدقة، ويُلحّون في المسألة، ويَلبسون ملابس تظهر منها حاجتهم، مع أنهم قد يكونون غير فقراء ولا محتاجين حقيقة، ولكنهم تعوّدوا التسوُّل. وهؤلاء قد يغرّرون ويخدعون مَن لا يعرفهم، ومَن يجهل حقيقة حالهم، فيظنهم فقراء، ويُعطيهم الصدقة، مع أنهم ليسوا فقراء.

قسم المتعفِّفين المحتاجين حقيقة: وقد ذكرت لهم الآية بعض الصفات:

١ - «للفقراء»: هم فقراء محتاجون حقيقة، وأهلٌ للصدقة.

٢- «الذين أحصروا في سبيل الله»: الإحصار هو الإيقاف والحبس، فهمم أوقفوا أنفسهم وحصروها وحبسوها على الجهاد في سبيل الله.

٣- «لا يستطيعون ضرباً في الأرض»: وهذه الصفة ناتجة عن الصفة السابقة، والضرب في الأرض هو السير فيها، والسفر والتحرك والانتقال، طلباً للرزق والكسب، هم لا يستطيعون السفر لأنهم أحصروا في سبيل الله، وأوقفوا أنفسهم للجهاد.

٤- «يحسبهم الجاهل أغنياء»: لا يدل مظهرهم على فقرهم وحاجتهم، فهم عزيزو النفوس، يتجمّلون، ويتزيّنون، ويَلبسون أجود ما عندهم من الملابس، ويظهرون بمظهر الأغنياء، فالجاهل بهم، الذي لا يعرف حقيقة حالهم، يعاملهم على ظاهرهم، فيحسبهم أغنياء، وليسوا في الحقيقة أغنياء.

٥- «من التعفف»: هم يتعففون عما في أيدي الناس، والتعفُّف هو المبالغة في العفة، والحرص على إظهارها، والتصميم على التصرف أمام الآخرين على أساسها. وعدم نقض هذه العفة في لفظ أو لبس أو حركة أو تصرف.

٦- «لا يسألون الناس إلحافاً»: وهذا من تعفُّفهم وتجمُّلهم، فهم لا يتعرَّضون للناس، ولا يطلبون من الناس، ولا يسألون الناس شيئاً من المال أو المساعدة، ولا يُلحِفون في سؤالهم، ولا يُلحّون على سؤالهم.

٧- «تعرفه بسيماهم»: السيما هي العلامة البارزة الظاهرة، التي تترجم ما يحاول الإنسان إخفاءه، وتشير إليه

فمع ما يظهره هؤلاء الأعزاء المتعففون من مظاهر التجمل والغنى، ومع ما يحرصون على إخفائه من الحاجة والفقر، إلا أن لهم سماتٍ وعلامات وإشارات، تنبئ عن حاجتهم، ويُدرك هذه العلامات، وينتبه لهذه السمات، أصحابُ النظرات الثاقبة، والبصائر النافذة، والفراسات الكاشفة، وبذلك يعرفون مقدار حاجة هؤلاء المتعففين.

هؤلاء الفقراء حقيقة، المتصفون بهذه الصفات، هم المحتاجون حقاً، الذين يجب أن توجّه لهم الصدقات.

هذا هو السياق الذي ورد فيه اسم الفاعل «الجاهل» وهؤلاء المتعففون المتجملون المتعززون هم الذين ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ .

فما المراد بالجهل هنا؟ وهل يُذَمّ هذا الجاهل؟

الجهل هنا نقيض المعرفة والعلم. والجاهل هنا هو الجاهل بأحوال هؤلاء المتعففين، الذين يظهرون على غير حقيقتهم، فكيف يعرف حاجتهم غير الخبير بهم؟ وكيف يقف على مدى حاجتهم غير العارف بأحوالهم؟ .

والجاهل هنا غيرُ مذموم، لأنه لا يعرف أحوال هؤلاء، ولا يُطلَب منه التعمقُ بدراسة أحوالهم، ليزيل جهله، لأن الإنسان غيرُ مطالب بمعرفة كل الناس، والعلمِ بكل شيء، فمهما عرف الإنسان من أناس وأشياء، فلا بد أن يكون جاهلاً بأناس وأشياء أكثر.

والجاهل المذكور في الآية قد يكون مسلماً لا يعرف حقيقة المحتاجين المتعففين، وقد يكون كافراً لا يعرف حقيقتهم، فالجهل المذكور هنا صفة عامة مشتركة بين الناس، لأنه بمعنى عدم الخبرة والمعرفة.

لكنَّ الأولى أن نجعل انطباقه على المسلم غير الخبير وغير العارف أكثر، لأن الآية تتحدث عن تَصدُّق المسلمين على المسلمين الآخرين المتعففين.

وإذا كان الجاهل هنا هو غيرَ الخبير وغيرَ العارف، فإن الآية أرشدته إلى ما يزيل جهله، ودلّته على وسيلة يتعرف بها على حقيقة حاجة المتعففين. إنها التعمق بالنظر إليهم، والفراسةُ البصيرة في معرفتهم بسيماهم، وتوظيفُ ملامحهم التي يجتهدون في إخفائها، لكنها تخونهم، فتبدو في حركة أو إشارة أو هيئة، تكشف عن مدى حاجتهم: «تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً».

وألحظ في الآية أمرين متقابلين:

في قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: تعففهم وتجمُّلهم هو الذي أخفى حقيقة حاجتهم، وأدى إلى جهل غير الخبير العارف بهم.

وفي قوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ : علاقتهم وسِمَتُهم تقود إلى المعرفة بهم، وهذه المعرفة تزيل الجهل بهم، وتوقف على مدى حاجتهم.

فالجهل في مقابل المعرفة، والمعرفة هي التي تزيل الجهل. والسمة في مقابل التعفف، فالتعفف سَبَّبَ الجهلَ بهم، والسِّمةُ الكاشفة سبَّبت المعرفةَ بهم. وسبحان من أنزل هذا القرآن!!.

المطلب الثاني
الجاهلون: إخوة يوسف لتآمرهم عليه

لقد أخبرنا القرآن أن إخوة يوسف العشرة حسدوه، وكادوا له كيداً، وتآمروا عليه، فوضعوه في البئر، وجاءت قافلة تجار، فأخذوه وباعوه رقيقاً في مصر، وكذبوا على أبيهم.. ثم جرت الأحداث ليوسف عليه السلام كما قدّر الله بحكمته، وانتهى الأمر به ليكون عزيزَ مصر، وحاكمها، وجاء إخوتُه إليه، وهم لا يعرفونه، طالبين للطعام، وجرى بينه وبينهم أحداث، أدت إلى أخذ يوسف عليه السلام لأخيه بشبهة السرقة..

وأخيراً جاء الإخوة ليوسف، وهم في غاية الذل والضعف والحجة، هنا ذكّرهم يوسف بما فعلوا به، ووصفهم بالجهل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٨٨-٩٢].

لما قَدَّم يوسفُ عليه السلام نفسه إلى إخوته، ذكّرهم بموقفهم السابق منه، وجرائمهم ضده، ودعاهم إلى العلم بذلك واستحضاره: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

وتذكروا ذلك «الشريط الأسود» وشعروا بالخزي، وطأطؤوا رؤوسهم خجلاً وحياءً، وأعلنوا خطأهم قائلين له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ .

فقابل يوسف ﷺ جهلهم بحلمه، وخطأهم بعفوه، وإساءتهم بإحسانه، وتجاوز عن كل ما فعلوه به، واستعلى على كل ما سببوه له من جراح وآلام، وقال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

وعندما نقف أمام وصف الإخوة بالجهل: «إذ أنتم جاهلون»، فإننا نخرج بهذه الإشارات:

١ - كان جهلهم جهلَ سفهٍ وخفة وطيش، وليس جهلاً ناتجاً عن عدم علم ومعرفة. لقد كانوا يعلمون أن يوسف أخوهم الصغير، وأنهم مطالبون بحمايته، وأنه لا يجوز أن يتآمروا عليه، ولا أن يضعوه في البئر، ولا أن يكذبوا على أبيهم النبي يعقوب ﷺ ، كانوا يعلمون هذا وغيره ولا يجهلونه. ومع هذا خالفوا علمهم بكل هذا، وتصرّفوا بجهل وسفهٍ وطيش، وفعلوا ما فعلوا.

جهْلهم هذا هو المقابل للحلم والاتزان، فلو أحسنوا الظن بأبيهم وأخيهم ولو تخلوا عن حقدهم وحسدهم، لما قاموا بتلك التصرفات السخيفة الطائشة الجاهلة.

٢- عبر لهم يوسف عن جهلهم بصيغة الماضي: «إذ أنتم جاهلون». و«إذ» ظرف لما مضى من الزمان، وكأن يوسف ﷺ يلحظ زوال جهل الخفة والطيش عنهم، فهم الآن واقفون أمامه. ومرّ على جريمتهم السابقة سنوات عديدة، قد تتجاوز الثلاثين سنة.

لقد أنضجتهم هذه السنوات، وما حملته من أحداث وتجارب، ومالت شخصياتهم إلى الاتزان والموضوعية والعقلانية.

وكأنه يقول لهم: كنتم جاهلين جهل خفةٍ وطيش. والآن أنتم متّزنون عقلانيون.

٣- وإذا كانوا يُلامون على جهلهم السابق. فقد أشار السياق إلى جهل آخر وقعوا فيه، وهو بمعنى عدم المعرفة والخبرة، لقد جهلوا شخصية «عزيز مصر» الذي كلموه وقابلوه عدة مرات، ومع ذلك يجهلون اسمه، فما كانوا يعرفون أن عزيز مصر وحاكمها هو أخوهم يوسف الذي ألقوه في البئر وهو صغير!! .

وجهلهم هذا لا يلامون عليه لأنه ناتج عن عدم الخبرة، وليس عن التقصير.

٤- إننا في هذا المشهد بين يوسف ﷺ وإخوته أمام طرفين متقابلين:

طرف الجهل: ويمثله إخوة يوسف، حيث كان جهلهم الماضي جهلَ خفة وطيش وسفهٍ وتآمر، وجهلهم الحاضر جهلَ عدم معرفة وخبرة.

طرف العلم والحلم: ويمثله يوسف ﷺ، الذي تعامل مع الأحداث بعلمه وحلمه، وتقواه وصبره، فأوصله الله إلى ما وصل إليه.

ويقف يوسف العليم الحليم ﷺ يُعلِّم إخوته الجاهلين، ويزيل ما وقعوا فيه من جهل!!.

المطلب الثالث
الجاهلون: السفهاء في السلوك

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

تعرض هذه الآية وما بعدها مجموعة من صفات عباد الرحمن المؤمنين الصالحين، وهي صفات إيجابية إيمانية سامية.

وفي هذه الآية صفتان من صفات عباد الرحمن:

الأولى: أنهم يمشون على الأرض هوناً، والهون هو الهيِّن، والمراد به المشي برفق ولين، بدون استعلاء أو حدة أو خفة وطيش.

الثانية: إذا خاطبهم جاهلون، وعاملوهم بطيش وخفة وسفه، لا ينزلون إلى مستواهم الجاهلي الهابط، ولا يقابلون جهلهم بجهل مماثل، وإنما يسامحونهم، ويقولون لهم: سلاماً.

وهم لا يقابلون جهل الجاهلين بجهل آخر، لأنهم عباد الرحمن المؤمنون الصالحون، فهم واعون متّزنون، واسعو الصدر، ظاهرو الحلم.

وإذا كان عباد الرحمن بهذه الصفات الإيجابية، التي يتعاملون بها مع الآخرين، فإن الآخرين على النقيض من ذلك.

إن الطرف الآخر ليسوا حلماء ولا واسعي الصدر، وإنما جاهلون سفهاء، كما وصفهم الله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

هم جاهلون في مخاطبتهم لعباد الرحمن، وفي كلامهم معهم. أي: أنهم يخاطبونهم بخفة وسفه وطيش، وباعتداء وغضب وإيذاء، فهم يشتمونهم ويسبّونهم ويصرخون فيهم.

ولهذا سمّاهم الله جاهلين، ووصفهم بالجهل، والمراد بالجهل هنا هو الجهل المقابل للحلم والاتزان والوقار، إنه جهل الخفة والسفاهة والطيش والرعونة، الجهل الذي ينتج عن سوء الخلق، وسوء الأدب، وسوء التعبير، وسوء التعامل.

وعباد الرحمن لا ينزلون إلى مستوى هؤلاء الجاهلين الهابط، ولا يعاملونهم بالمثل، وإنما يكتمون غيظهم، ويستعلون على الجهل والإساءة، ويترفّعون عن السفه والخفة، ويتسامون إلى قمم الأخلاق الفاضلة.

بهذه الإيجابيات الفاضلة يتركون الجاهلين مع جهلهم، ويغادرون الميدان، محتفظين بحلمهم واتزانهم ووقارهم، ولا يزيدون على أن يقولوا للجاهلين: سلاماً.

أي: سلام عليكم، نترككم مع جهلكم، ونغادركم بسلام، ونحرص على أن يسلم لنا حلمنا ووقارنا وخلقنا.

ونرى في هذه الآية طرفين: طرف عباد الرحمن المتّصفين بالحلم والوقار والاتزان، وطرف المعتدين المتّصفين بالجهل والخفة والطيش والعدوان.

أين هذا الموقف الإيماني العظيم في الترفع عن جهل الجاهلين، من قول ذلك الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحَدٌ علَيْنا ... فنَجْهَلَ فوْقَ جَهْلِ الجاهِلينا

إنه يردُّ الصاعَ صاعيْن، ويقابل جهلَ خصمه بجهليْن !! .

المطلب الرابع
الجاهلون: المشركون بالله

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٢-٦٦].

المشركون بالله جاهلون، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ .

وجاء وصفهم بالجهل لأنهم أشركوا بالله، وعبدوا معه أصناماً وأوثاناً ليست آلهة.

وسياق الآيات هو بيان أن الله وحده هو الإله الرب المعبود، وهو الخالق لكل شيء، الوكيل على كل شيء، الذي خضع وإنقاد له كل شيء، فلا شريك له، ويبدو في هذا السياق شرك المشركين بالله مُستنكَراً قبيحاً، ويكونون بهذا الشرك جاهلين، ومن ثم يكونون خاسرين، وتكون أعمالهم حابطة.

وفي مقابل شرك المشركين الجاهلين، يأمر الله رسوله ﷺ بعبادة الله وحده، والتوجه له بالشكر على نعمه.

ونرى في هذه الآيات الطرفين المتقابلين - كما رأيناها في المواضع السابقة:

المؤمنون العابدون لله، يمثلهم رسول الله ﷺ وهم عالمون عاقلون، فائزون ناجحون، عاملون شاكرون.

والمشركون بالله: جاهلون عابدون لغير الله، ولهذا أعمالهم حابطة، وحياتهم خاسرة.

والمؤمنون على حق وعلم وبصيرة، ولهذا يعرفون جهل الجاهلين، ويعرفون حبوط أعمالهم، وخسارة حياتهم، فيخاطبونهم بصراحة، ويقولون لهم: أيها الجاهلون.

والمراد بالجهل الذي وُصف به المشركون هنا الجهل المقابل للعلم. إنهم جهلوا حقيقة الألوهية، ولهذا جعلوها لغير الله، وجهلوا حقيقة العبادة، فوجّهوها لغير الله، وبذلك الجهل جعلوا الأصنام والأوثان آلهة.

وجهل الكفار المقابل للعلم عند المؤمنين، أدى إلى الخفة والسفاهة العقلية عندهم، لأنهم جعلوا الأصنام آلهة، وأدى إلى الطيش والخفة في التصرفات حيث عبدوا غير الله.

وبذلك تحقق في الكفار النوعان من أنواع الجهل: جهل عدم العلم، وجهل الخفة والسفه في التصرف.

وقد دلت الآيات هؤلاء المشركين الجاهلين على وسيلة إزالة الجهل، والتحقق بالعلم، وذلك بالنظر في الآيات والبراهين من حولهم، التي تدل على وحدانية الله، وتنفي مشاركة غيره معه.

«الجاهلون»: خلاصة موجزة:

١- لاحظنا من الاستعراض السابق أن «الجاهلون» اسم الفاعل بصيغة جمع المذكر السالم المرفوع، ورد ثلاث مرات فقط:

في المرة الأولى: «إذ أنتم جاهلون»: خبر.
وفي المرة الثانية: «خاطبهم الجاهلون» فاعل.
وفي المرة الثالثة: «أيها الجاهلون»: منادى مبني، لأنه ليس مضافاً.

٢- «الجاهلون» في المرات الثلاثة تقرير لحقيقة، وهي وصف هؤلاء بالجهل، وبما أن الموصوفين بالجهل جماعة، كان جهلهم جماعياً.

٣- «الجاهلون» في المرات الثلاثة في سياق الذم، وهم مذمومون ملومون على جهلهم، غير معذورين فيه.

٤- أحياناً كان جهلُ الجاهلين جهلَ معصية وذنب، يزول بالتوبة، كجهل إخوة يوسف في تآمرهم عليه.

وأحياناً كان جهلهم جهل سفه في المعاملة والمخاطبة والسلوك والتعامل، وأحياناً كان جهلهم جهلَ شرك وكفر بالله.

أي أن جهل الفريق الأول يزول بالتوبة والاستقامة. وجهل الفريق الثاني يزول بالتربية والحلم والأناة، بينما جهل الفريق الثالث لا يزول إلا بالإيمان والإخلاص.

٥- بينما وصف السياق في المرات الثلاثة الأقوام المذكورين بالجهل، كان يشير إلى الطرف المقابل في المسألة، وهو المناقض للجهل والجاهلية.

فبينما كان إخوة يوسف عليه السلام جاهلين، كان يوسف عليه السلام عالماً حليماً متزناً.

وبينما كان السفهاء جاهلين في الخطاب، كان عباد الرحمن عالمين حلماء. وبينما كان المشركون جاهلين في عبادة غير الله، كان الرسول ﷺ عالماً مؤمناً بالله.

المطلب الخامس

مسلمو أهل الكتاب لا يبتغون الجاهلين من قومهم

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٢-٥٥].

تتكلم هذه الآيات عن قوم مخصوصين، وتعرض بعض صفاتهم الإيجابية الرفيعة.

إنهم الأفراد القلائل الذين أسلموا من أهل الكتاب، يهوداً أو نصارى، واتبعوا محمداً ﷺ، مثل عبدالله بن سلام، والنجاشي ملك الحبشة.

فهؤلاء الصالحون، كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل بعثته، لأنهم قرؤوا عن صفاته والبشارات به في كتبهم، فآمنوا به، وانتظروا مبعثه، فلما بُعث محمد ﷺ كانوا مهيئين لاتباعه.

فلما سمعوا آيات القرآن تُتلى عليهم، قالوا: آمنا بهذا القرآن، واعترفنا أنه كلام الله، وأنه الحق من الله، ولقد كنا مسلمين من قبل إنزال آيات القرآن، لأننا على الحق من ديننا، الحق الذي لم يُحرِّفه أحبارنا ورهباننا، فلما سمعنا آيات القرآن آمنا بها، واتبعنا محمداً ﷺ ، وبذلك جمعنا ما بين إيماننا بكتبنا الربانية التي لم تُحرَّف، وبكتاب الله القرآن.

مسلمة أهل الكتاب هؤلاء جمعوا إيماناً إلى إيمان، وذلك أخبر الله أنه سيؤتيهم أجرهم مرتين: مرة لاتباعهم الحق من كتبهم السابقة، ومرة ثانية لاتباعهم الحق الذي جاء به محمد ﷺ .

هؤلاء المسلمون من أهل الكتاب اتصفوا بالصفات والأخلاق الإسلامية العالية، التي اتصف بها باقي الصحابة، مثل الصبر، وعمل الحسنة بعد السيئة لتُغطِّيها وتزيلُها، وإنفاقهم في سبيل الله.

ولكن الأغلبية الكافرة من قومهم أصروا على كفرهم، والاستمرار على يهوديتهم أو نصرانيتهم، ثم قام أولئك الكفار بإيذاء المسلمين من أهل الكتاب وذمهم، وسبّهم وشتمهم، والجهل والسفه عليهم.

فما موقف هؤلاء المسلمين من جهل وخفة وسفه قومهم؟ .

الجواب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

إنهم قد يسمعون اللغو من أقوامهم المتعصبين، وهذا اللغو يتمثل في الشتم والسب والأذى، الذي يوجِّهونه لمسلمي قومهم، كما يتمثل في السفه والخفة والطيش والاعتداء الذي يعاملونهم به، وهذا اللغو المؤذي هو الجهل الذي اتصفوا به.

يرد المسلمون العقلاء الحلماء على لغو وجهل أقوامهم بالإعراض عنهم، وعدم الاتصال بهم أو الجلوس معهم أثناء ذلك، ويصارحونهم بقولهم لهم: لنا أعمالنا الصحيحة نبتغي أجرها عند الله، وأنتم لكم أعمالكم، تحاسبون عليها عند الله، ولا لقاء بيننا وبينكم، ولهذا نقول لكم: سلام عليكم، وهو سلام مفاصلة ومتاركة، وليس سلام الوداع والمحبة.

وعلل هؤلاء المسلمون ترك ومفاصلة قومهم الكفار بقولهم: «لا نبتغي الجاهلين». أي: لا نريدكم ولا نحرص عليكم، لأنكم جاهلون، ونحن لا نبتغي ولا نطلب ولا نريد الجاهلين.

وموقع «الجاهلين» من الإعراب في الجملة: «لا نبتغي الجاهلين»: مفعول به للفعل المضارع «نبتغي».

والمراد بالجهل الذي وُصف به كفار أهل الكتاب هنا هو الجهل المقابل للعمل، المتمثل بكفرهم بالحق، والجهل المقابل للحلم، الذي يستلزم الخفة والسفه والطيش والعدوان، الذي حملهم على ارتكاب هذه الجرائم مع مسلمي قومهم.

وإذا كان الكفار جاهلين، على النوعين الرئيسيين للجهل، فإن مسلمي قومهم قد ترفعوا عن الجهل، ولم يردوا عليهم بمثل جهلهم، فالطرفان المتقابلان بارزان هنا: الكفار الجاهلون، يقابلهم المسلمون الحلماء العالمون.

وإذا كانت هذه الآيات قد بينت ترفُّع وحلم مسلمي أهل الكتاب على الجاهلين السفهاء الطائشين من قومهم، فإنها تُذكِّرنا بموقف عباد الرحمن من سفه وجهل الجاهلين عموماً، الذي وقفنا معه عند استعراض الآية التي عرضت ذلك في سورة الفرقان.

فأخبرتنا سورة الفرقان عن حلم وترك عباد الرحمن لجاهلي مجتمعهم: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

وأخبرتنا سورة القصص عن حلم وترك مسلمي أهل الكتاب للجاهلين من قومهم: «سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين».

إنه موقف واحد في الحقيقة، يضع المسلمين عباد الرحمن في مقابل الجاهلين السفهاء الطائشين. ويدعو إلى ترفع المسلمين على الجاهلين، وترك ومفاصلة المسلمين للجاهلين، وكل يعمل على شاكلته، وكل إناء بالذي فيه ينضح!! .

المطلب السادس

موسى: يعوذ بالله أن يكون من الجاهلين

أخبرنا الله في قصة البقرة أنه قُتل قتيل من بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام ، ولم يُعرف قاتله، فلجأ بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام ، فأخبرهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة،

فتعجّبوا من هذا الأمر، فما دخْل ذبح البقرة بمعرفة القاتل، وظنوا أن موسى عليه السلام يهزأ بهم فنفى موسى ذلك عن نفسه، واستعاذ بالله أن يكون من الجاهلين المستهزئين.

وبعد أسئلة عديدة منهم لموسى عن لون البقرة وعمرها وعملها، ذبحوها، وبعد ذلك أمرهم موسى أن يأخذوا بعضاً منها، ويضربوا به القتيل، فسوف يُحييه الله ليخبرهم عن قاتله.

ووردت قصة البقرة في آيات: ٦٧-٧٤ من سورة البقرة.

ونقف مع الآية الأولى منها، لأنها ترتبط بموضوعنا.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧].

تكشف لنا هذه الآية عن الطبيعة الخاصة لبني إسرائيل، التي حكمت نظرتهم إلى أنبيائهم، وتعاملهم معهم بسوء أدب وجهل وسفاهة..! إنهم مؤمنون بموسى عليه السلام، ومتّبعون له، ومع ذلك وقفوا منه هذا الموقف الجاهلي! .

موسى نبيهم ورسولهم ومنقذهم عليه السلام، يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ فيخبرهم أن هذا أمر الله لهم، وليس أمره هو، ولو كانوا مؤمنين مستسلمين حقاً لسارعوا بتنفيذ أمر الله، وذبح البقرة.

لقد ردّوا على كلام موسى بجهل وسفه، فقالوا له: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ . أي: أتهزأ بنا، وتسخر منا، وتضحك علينا، وتمزح معنا؟ نسألك عن قتيل لم نعرف قاتله، ونطلب منك معرفة قاتله، وبدل أن تدلنا عليه تطلب منا طلباً غريباً: أن نذبح بقرة!! ما دخْل ذبح البقرة بكشف القاتل؟ أنت تهزأ بنا إذن!! .

من جهل وسفه بني إسرائيل أن يظنوا أن نبيَّهم يهزأ بهم عندما يبلغهم أمر الله، وهل أوامر الله قابلة للاستهزاء والسخرية والعبث واللعب؟ .

لعل موسى ﷺ استغرب من رد قومه عليه، واتهامهم له بأنه يهزأ بهم، ولذلك سارع بنفي هذا عن نفسه، واستعاذ بالله من ذلك ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: لست جاهلاً حتى أهزأ بكم وأسخر منكم، ولست عابثاً عندما طلبت منكم ذبح البقرة، لقد كنت أبلغكم أمر الله، وأمر الله للتنفيذ، ولا يجوز لكم أن تنظروا إلى أمر الله هذه النظرة.

وإذا كان موسى ﷺ ينزّه نفسه عن الجهل، لأنه لا يتفق مع مقام النبوة والرسالة، وإذا كان ينفي عن نفسه أن يكون من الجاهلين، فإنه في المقابل يثبت لقومه السفهاء صفة الجهل، وكأنه يقول لهم: أنا لست من الجاهلين، أما أنتم فإنكم جاهلون من الجاهلين، أنتم جاهلون لأنكم نظرتم إلى أمر الله هذه النظرة، وجاهلون عندما ظننتم بي هذا الظن، وجاهلون عندما كلمتموني بهذا الكلام، ورددتم عليّ بهذا الرد!! .

والمراد بالجهل الذي نزّه موسى نفسه عنه، ووصف به قومه، الخفة والطيش والسفاهة، إنه الجهل المقابل للاتزان والجدية، وليس المقابل للعلم، لأن القوم من بني إسرائيل كانوا يعلمون وجوب تنفيذ أوامر الله التي يبلغهم إياها نبيهم، يعلمون هذا ولا يجهلونه، ومع ذلك جهلوا في ردّهم على موسى ذلك الرد، فجهْلهم هو سفاهتهم وخفّتهم وطيشهم، ولذلك استعاذ موسى بالله أن يكون بهذا الجهل مثلهم.

المطلب السابع
ينهى الله نوحاً أن يكون من الجاهلين

لما أراد الله إهلاك قوم نوح بالطوفان، أمر نوحاً ﷺ بصنع السفينة، وطلب أن يُركب فيها المؤمنين من أهله مع اتباعه، ونهاه عن حمل أحد من أهله الكافرين.

ولما بدأ الطوفان، وسارت السفينة بركابها المؤمنين في موج كالجبال، رأى ابنه الذي كان مع الكافرين، في معزل معتزلاً الكافرين، واقفاً وحده، فظنّ نوح أنه لعله بدا لابنه أن يتخلى عن كفره، وأن يؤمن، ولهذا وقف وحيداً، فدعاه إلى أن يركب السفينة معهم،

ولكن الابن ردّ على أبيه بأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويحميه من الطوفان، ولم يصرّح الابن لأبيه بحقيقة موقفه الأخير، وهل هو الآن مؤمن أو كافر، وأخبر نوح ابنه أنه لا يعصمه جبل ولا غيره، لأنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله.

وبينما كان الحوار مستمراً بين نوح وابنه، جاء الموج فسحب الابن معه وأغرقه!!.

وشاهد نوح عليه السلام غرق ابنه، ولم يعرف على ماذا مات ابنه، وهل كان في آخر أمره مع المؤمنين أو مع الكافرين، فطلب نوح عليه السلام من ربه أن يبين له نهاية ابنه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٧].

يقول نوح عليه السلام لربه: إن ابني من أهلي وإنه كان في معزل عندما بدأ الطوفان، وإنني لا أعرف هل بدا له أن يؤمن أم لا؟ ووعدك الحق، حيث وعدتني أن تنجي أهلي المؤمنين، وابني لم ينجُ، أنت أحكم الحاكمين. وكان نوح عليه السلام في سؤاله راغباً في العلم والمعرفة، باحثاً عن الحقيقة، ولم يكن معترضاً على قدر الله.

وجاءه البيان والتوضيح من الله، مقروناً بالوعظ والتعليم: ابنك ليس من أهلك المؤمنين، لأنه كافر، عاش كافراً، وبقي كافراً حتى آخر لحظة، ولذلك غرق في الطوفان كباقي الكفار!! .

ثم جاء التوجيه والتعليم من الله لنوح عليه السلام، تعقيباً على السؤال والجواب، فنهاه الله عن أن يسأله ما ليس له به علم، وحذّره أن يكون من الجاهلين.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ : وهذا يعني أنه عندما سأل ربه عن نهاية ابنه كان يسأله عن ما ليس له به علم، ولذلك كره الله سؤاله.

«إني أعظك أن تكون من الجاهلين»: أحذرك من الجهل، وأنهاك عنه، وأعظك حتى لا تكون من الجاهلين، الذين لا يعلمون، وأعلمك حتى يزول عنك الجهل بما سألت عنه.

ولقد وعى نوح هذا العتاب والتوجيه والوعظ والتهديد من الله، فأعلن إنابته إليه، وخوفه من الخسارة، وسارع بطلب المغفرة والرحمة: «قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين».

والجهل الذي ينهى الله نوحاً عنه هو المقابل للعلم، إن نوحاً ﷺ لم يعلم على ماذا مات ابنه، وهل مات على الإيمان أو الكفر، ولهذا استوضح واستعلم الأمر من الله، فجاءه الجواب المبين من الله.

ونوح ﷺ لا يُذم لعدم علمه ومعرفته بذلك، لأنه أمر غيبي، وهو لا يعلم الغيب مع أنه نبي، إلا إذا أعلمه الله ذلك.

وإذا كان نوح لا يُذمّ لعدم علمه بهذا الأمر الغيبي، فلماذا لامه الله وعاتبه ووعظه؟ .

إنما كان ذلك ليزيل كل الروابط والأواصر التي تتعارض مع الإيمان، فمع أن نوحاً الأب تبرأ من ابنه لما جاهر كفره، إلا أن عاطفة الأبوة خيّلت له أن اعتزال ابنه لقومه قد يكون بسبب إيمانه، فهذه العاطفة هي التي أوحت له بهذا، ومن ثم هي التي دعته ليطلب من ابنه ركوب السفينة، وهي التي حركته ليسأل ذلك السؤال من ربه.

لذلك عاتبه الله ووعظه وهدّده، ليزيل إيحاءات وأفكار هذه العاطفة، عندما تتعارض مع الإيمان.

وكأنه يقول له: إن أعظك أن تكون من الجاهلين، الذين تحركهم المشاعر، وتوجههم العواطف، المتعارضة مع الإيمان والحق، والذين يقدمون ما توحي لهم به هذه الروابط على الإيمان والحق.

علماً أن نوحاً لم يكن من الجاهلين فيما قال وسأل، ولكنه الوعظ والتنبيه والتحذير!.

المطلب الثامن

يوسف: يطلب أن لا يكون من الجاهلين

أخبرنا القرآن عن بعض الفتن التي ابتُلي بها يوسف ﷺ في مصر، ومن أهم هذه الفتن فتنة الإغراء والإغواء والشهوة، حيث راودته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم، ولما

سمعت نسوة المدينة بقصتها معه عذلْنها وأنكرن ذلك عليها، ولكن امرأة العزيز عملت لهن مكيدة، حيث دعتهنّ إلى مأدبة، ولما بدأن بالطعام واستخدام السكاكين، قالت لفتاها يوسف: اخرج عليهنّ! .

فلما خرج عليهن دهشْن لجماله، ونسين أنفسهن، وقطعن أيديهن بالسكاكين، وهنّ لا يشعرن. وقلن: حاشَ لله، ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم.

وشعرت امرأة العزيز بانتصارها عليهن، فاعترفت بمراودتها له، وقالت: أنا راودته عن نفسه، فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننّ وليكونن من الصاغرين.

وسمع يوسف عليه السلام كل هذا، ولاحظ قوة الإغراء الموجّه له من امرأة العزيز ومن نسوة المدينة، وعلم أن امرأة العزيز تخيّره بين أمرين أحلاهما مُرّ: فإما أن يرتكب الفاحشة وإما أن يُسجن.

وما كان على يوسف إلا أن يختار السجن، فطلب من ربه أن يدخله السجن، وأن يصرف عنه كيدهن لئلا يكون من الجاهلين.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

إن يوسف عليه السلام دعا ربّه بتضرع، أن يصرف عنه كيد النسوة، وأن يعصمه من إغرائهن وفتنتهن، لأنه يخشى أن لا يصمد أمامهن: «قال: رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

و«أصْبُ» فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط، تقول: صبا، يصبو، بمعنى مال. والمعنى: إن لم تصرف عني كيدهن، فإنني أخشى أن أميل إليهن، وأقع في شباكهن، وإن فعلت ذلك فإنني أكون من الجاهلين.

يوسف عليه السلام يبرأ إلى الله ويستعيذ به، ويطلب أن لا يكون من الجاهلين.

والجهل هنا هو ارتكاب فاحشة الزنا، والاستجابة لإغراء النسوة المغريات المراودات، والاستسلام للهوى والشهوة.

وهذا الجهل بمعنى الخفة والطيش والسفاهة، وهو الجهل المقابل للحلم والاتزان والتعقل، وليس هو الجهل المقابل للعلم.

فالذي يستسلم لهواه، ويتبع شهوته، ويرتكب الفاحشة، يعلم أن هذا أمر مستقبح مستنكر، ومع ذلك يقدم عليه، ولا يفعل ذلك إلا لسفهه وطيشه وجهله.

وهذا يعني أن كل من ارتكب الفواحش فهو جاهل، وكل من استسلم لهواه وشهوته فهو جاهل، وكل من استجاب للإغراء فهو جاهل، وكل من لاحق النساء المغريات فهو جاهل.

ويوسف عليه السلام يطلب من ربه أن يعصمه من كل هذا، ولو كان البديل له هو السجن، ويستعيذ بالله أن يكون من الجاهلين.

وهذا معناه أن يوسف عليه السلام من العقلاء الحلماء، لأنه لم يستسلم لهواه وشهوته، أي أن الترفع عن الشهوة المحرمة وارتكاب الفاحشة المنكرة، والتسامي بالشهوة والغريزة، هو طريق التعقل والاتزان.

إنه إما ارتكاب الفاحشة الذي يعني الجهل والسفاهة، وإما الترفع والاستعصام الذي يعني الحلم والاتزان.

المطلب التاسع

تحذير الرسول من أن يكون من الجاهلين

قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟

وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣-٣٦].

يبين الله لرسوله محمد ﷺ في هذه الآيات سبب كفر قومه الكفار به، ويخبره أن هذه هي طريق الدعوات، التي سار بها الأنبياء من قبله.

إن الكفار معاندون، وكفرهم هو عناد للحق، ولا ينقصهم الأدلة والبراهين، ولا الآيات والمعجزات، ومهما قدّم الرسول ﷺ لهم من آيات، فلن يؤمنوا به، لأنهم معانِدون لا يريدون أن يؤمنوا.

لو استطاع الرسول ﷺ أن يسير في نفق في الأرض، ليعود منه بمعجزة ظاهرة، فيقدمها لهم، فإنهم لن يؤمنوا، ولو استطاع أن يصعد على سلم في السماء، ليعود منه بمعجزة ظاهرة، فيقدمها لهم، فإنهم لن يؤمنوا.

ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لفعل، ولو شاء أن يُكرههم على الإيمان لفعل، ولكنه شاء أن يجعلهم مختارين.

وبعدما قدّم الله لرسوله ﷺ هذه الحقائق العلمية حول الإيمان والكفر والرسل، حذّره من نسيان هذه الحقائق أثناء دعوته لقومه، ونهاه أن يكن من الجاهلين بها: «فلا تكونن من الجاهلين».

الجاهلون هم الذين يجهلون الحقائق الإيمانية الدعوية التي قررتها الآيات، يجهلونها فلا يعلمونها ولا يعونها ولا يعرفونها ولا يلتفتون لها.

والمراد بالجهل هنا هو المقابل للعلم. ومعلوم أن الكفار جميعاً جاهلون بهذه الحقائق القرآنية الهادية.

ولقد علّم الله رسوله ﷺ تلك الحقائق، فصار ﷺ بها من العالمين العارفين.

وكل من لم يتعامل مع القرآن، فإنه سيكون من الجاهلين بالحقائق حول الإيمان والكفر، والرسالة الرسول، والدعوة والتبليغ.

أما من تعامل مع القرآن بتدبر ووعي، فسيكون في هذه الحقائق من العالمين، لأنه لا يزيل هذا الجهل إلا كتاب الله الحكيم.

المطلب العاشر
أمر الرسول بالإعراض عن الجاهلين

قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٩٩-٢٠٠].

الخطاب في هاتين الآيتين لرسول الله ﷺ، ولكنه ليس خاصاً به، فهو شامل لكل أمته، من بعده، وبخاصة أصحاب العلم والدعوة.

يرشد الله في الآية الأولى إلى أصول الأخلاق الإسلامية العالية، التي يتعامل بها المسلمون فيما بينهم، فتزكوا حياتهم. وهذه الأصول ثلاثة:

١- «**خذ العفو**»: العفو هنا هو السهل الميسور عند المسلمين، أي: خذ ما كان سهلاً ميسوراً من أخلاق المسلمين عندما تعاملهم، ولا تشق عليهم، ولا تتعبهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم ما تسمح به نفسه بتقديمه، ولا تطلب منهم أن يكونوا مثلك، ولا تطالبهم أن يصلوا إلى درجة الكمال، بل اقبل منهم ما سمحت به نفوسهم.

٢- «**وأمر بالعرف**»: العرف هو المعروف الصحيح الصائب من أعراف الناس الاجتماعية، وهو الذي أقرّه الإسلام وأباحه، من روابطهم وصلاتهم وممارساتهم، فهذا العرف المعروف المباح عليك أن تأمر به، وأن تقبله من الناس.

أما أعراف الناس المخالفة للإسلام، فهي من العرف المنكر المرفوض، ولذلك عليك أن تنهى عنه، ولو أقرّه الناس ورضوه وتعارفوا عليه، لأنه لا يجوز قبول أي عرف اجتماعي مخالف للإسلام.

فهذه الجملة «وأمر بالعرف» أساس الدعوة الإصلاحية بين المسلمين، القائمة على الأمر بالمعروف الحلال المطلوب، والنهي عن المنكر الحرام المرفوض.

٣- «وأعرض عن الجاهلين»: اترك الجاهلين السفهاء، المصرِّين على المخالفة والمعصية، المتمادين في الضلالة والحرام. اتركهم وأهملهم بعد أن تنصَحَهم وتذكِّرَهم، وتأمرَهم بالمعروف الحلال، وتنهاهم عن المنكر الحرام.

والجهل المذكور هنا قد يكون من الجهل المقابل للعلم، أي الجاهلون الذين لا يعلمون، فأنت تُعرض عنهم بعد أن تعلمهم، وتزيل لهم جهلهم بالعلم، ولكنهم مع ذلك يصرون على جهلهم.

وقد يكون من الجهل المقابل للحلم والرشد، فيكون من الخفة والطيش والسفاهة. أي: الجاهلون السفهاء، الذي يسيئون للآخرين في الكلام والفعل والتصرف والممارسة، ويجهلون على الآخرين لسفههم وخفتهم.

إذا ابتُلي بهؤلاء الجاهلين فعليه نصحهم وتذكيرهم، فإن لم يستجيبوا له وأصرّوا على جهلهم، فعليه أن يتركهم ويعرض عنهم، ويهملهم ويسقطهم من حسابه، ولا ينزل إلى مستواهم الجاهلي الهابط، ولا يقابل جهلهم بجهل مماثل، بل يترفع ويسمو بأخلاقه العظيمة.

وخير من طبّق هذه التوجيهات الأخلاقية العظيمة بعد الرسول ﷺ هم أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

روى البخاري في كتاب التفسير «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيَيْنَة بن حِصْن بن حُذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي: لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر.

فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل!!.

فغضب عمر حتى همّ به.

فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : «خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين» وإن هذا من الجاهلين!.

والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه. وكان وقّافاً عند كتاب الله...» [1].

ونقل ابن كثير في تفسيره: أن سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهم – مرّ على عير لأهل الشام، وفيها جرس. فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يُكْرَه الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به! .

فسكت سالم، وقال: «وأعرض عن الجاهلين».

كما نقل ابن كثير قول أحد العلماء في تصنيف حسن للناس من خلال هذه الآية: «وقال بعض العلماء: الناس رجلان:

فرجل محسن: فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يُحرجه.

وإما مسيء: فمُرْه بالمعروف.

فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمرّ في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده..» [2].

المطلب الحادي عشر
من لطائف اسم الفاعل: الجاهلين

عرفنا أن اسم الفاعل المجرور «الجاهلين» قد ورد في القرآن خمس مرات، ونقف بعد استعراضنا السريع لتلك المرات: كي نستخلص بعض الدلالات واللطائف منها:

١- الجهل مهما كان نوعه عيب ونقص، ولهذا نزّه الله عنه رسله، وحرص الرسل على نفيه عنهم، أي أن الجهل ليس من صفات الأنبياء.

٢- الجهل في المرات الخمسة قد يراد به الجهل المناقض للعلم، وقد يراد به المناقض للحلم والرشد، وهذان هما المعنيان الأساسيان للجهل.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير برقم: ٤٣٦٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير، ٢: ٣٠٨-٣٠٩.

٣- إذا كان الجهل بمعنى عدم العلم، أو عدم معرفة الأمر، فهذا قد يمر به النبي، بمعنى أنه قد يجهل حقيقة مسألة ما، ولا يعرفها، وهو لا يُذم على ذلك، لأنه لم يقصر فيه، ولا يطالب أن يعلم كل المسائل الفرعية والجزئية.

وهذا ما حصل مع نوح عليه السلام، عندما جهل حقيقة موت ابنه، فطلب من الله أن يُعرِّفه ذلك.

إن الإنسان يذم إن أصر على الجهل والتجاهل بعد حصوله على العلم والمعرفة، لأن جهله في هذه الحالة يكون من باب العناد والجاهلية.

٤- قد يكون الجهل بسؤال وطلب ما ليس للإنسان به علم، وهذا ما حذّر الله منه نوحاً عليه السلام، فكل من سأل وطلب ما ليس له به علم جاهل.

وقد يكون الجهل بالسفاهة والميل للنساء، والاستعباد للشهوة، وارتكاب الفاحشة، وهذا ما نفر منه يوسف عليه السلام، وطلب من الله أن يعيذه منه، وآثر السجن مظلوماً على الوقوع فيه، فكل العصاة جاهلون.

وقد يكون الجهل بالسخرية والاستهزاء والعبث والضحك على الآخرين. ولهذا نزّه موسى عليه السلام نفسه عنه.

وقد يكون الجهل بعدم معرفة حقيقة الأعداء، وعقليتهم، وأسباب كفرهم وعدوانهم، وهذا ما حذّر الله منه نبيّه محمداً ﷺ.

وقد يكون الجهل بالنزول إلى مستوى الجاهلية الهابط، والرد على جهلهم بجهل مماثل، وهذا ما نهى الله عنه محمداً ﷺ.

٥- المرات الخمسة لكلمة «الجاهلين» المجرورة، واردة في سياق الحديث عن الأنبياء، أو الحديث معهم: وهم نوح، ويوسف، وموسى، ومحمد مرتان: مرة في سياق التحذير، ومرة في سياق الطلب والتكليف. عليهم الصلاة والسلام.

٦- وإذا كان الله قد نزّه أنبياءه عن الجهل، فقد أثبت ذلك الجهل لأعدائهم. ووضح التقابل بين الطرفين: طرف المؤمنين العالمين في مقابل الجاهلين الطائشين!!.

المبحث الرابع
صيغة المبالغة: جهول في السياق القرآني

تقول: هذا جاهل. فإن أردت المبالغة في وصفه بالجهل تقول: هذا جهول.

ولم ترد كلمة «جهول» إلا مرة واحدة في القرآن، وُصف بها الإنسان باعتباره إنساناً، وقُرنت مع وصفه بأنه ظلوم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٣].

الكلام في هاتين الآيتين عن الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، لكن الإنسان حملها، لأنه ظلوم لنفسه، جهول بقدراته وطاقاته!.

وقد اختلف علماء التفسير والتأويل اختلافاً بيّناً في تفسير الآية، وفي بيانِ المراد بكلماتها، وفي الإجابة على أسئلة تثار حولها، ولهذا اعتبروا فهْم هذه الآية من مشكلات التفسير.

ولا يعنينا هنا استعراض أقوالهم الخلافية العديدة، ولا حجة كل قول في تفسيرها، لأن هذا لا يتفق مع موضوع هذا البحث.

إنما نريد أن نذكر المعنى الراجح في تفسيرها، المتفق مع السياق، لننتقل بعد ذلك إلى حكمة وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول.

أولاً: المعنى الراجح للآية:

ما هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال؟ وما معنى عرضه هذه الأمانة عليها؟ وكيف؟ وما معنى قوله: «أبين أن يحملنها»؟ وكيف تأبى حملها

وتشفق منها وهي مستسلمة لأمر الله؟ وما معنى حمل الإنسان للأمانة؟ وما المراد بالإنسان المذكور هنا؟ ولماذا وُصف بأنه ظلوم جهول؟ .

سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة بإيجاز، ليتضح لنا المعنى الراجح للآية.

أساس معنى العرض هو: الإبراز والإظهار والتقديم، والدعوة إلى الشيء. نقول: عرضت السلعة على المشتري، أي: أبرزتها وأظهرتها وقدمتها له، ودعوته إلى أن يأخذها.

وأساس معنى الأمانة هو: الشيء الذي يؤتمن عليه الإنسان، ويُدعى إلى الاحتفاظ به، وحُسْن أدائه.

وأساس معنى الإباء هو: شدة الامتناع. تقول: أبي فلان فعل كذا، أي: امتنع من فعله.

وأساس معنى الحمل هو: أخذ الشيء. تقول: حمل الرجل متاعه، أي: أخذه وانطلق به.

وأساس معنى الإشفاق: الخوف. تقول: اشفق فلان من كذا، أي: خاف منه.

ولا تراد هذه المعاني لهذه الكلمات في الآية هنا، أي أن هذه الكلمات ليست على ظاهرها، ولو أخذناها على ظاهرها لفسد المعنى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

أي: إن الله قدم أمانة التكليف للسموات والأرض والجبال، ودعاها إلى أخذها والقيام بها وأدائها، ولكن السموات والأرض والجبال امتنعن من ذلك أشد الامتناع ، ورفضنه وأبينه، ولم ينفِّذن التكليف الذي كلفهن الله به، وذلك من شدة خوفهنّ من القيام والتنفيذ. ولما عرض الله أمانة التكليف على الإنسان، وطالبه بالقيام بها وأخذها، لم يأبَ ولم يمتنع ولم يُشفق، بل أخذها وحملها والتزم بها، وما فعل ذلك إلا لأنه ظلوم جهول! .

لو فسّرنا الآية هذا التفسير لوقعنا في عدة محاذير: فهل يخيِّر الله الجمادات من السموات والأرض والجبال ويستمزجها لتحمل الأمانة؟ وهل هذه الجمادات عندها قدرة على الاختيار، والقبول أو الرفض؟ وكيف خاطب الله هذه الجمادات وردّت عليه؟

وامتناع هذه الجمادات وإشفاقها من أداء واجب التكليف أليس هو رفض لأمر الله؟ ألا يعني هذا أنها عصت أمر الله وتمّردت عليه؟ وهل يتمرد هذا الكون على الله؟ .

إذن: ليس المقصود في الآية حقيقة وظاهر العرض والتكليف لهذه الجمادات، ولا ظاهر الخطاب والرد، ولا ظاهر الإباء والرفض والامتناع.

أي: لم يكن هناك عرض ولا تخيير ولا تكليف، ولا أخذ ورد، ولا إباء ورفض، على الحقيقة.

إن الآية تريد أن تبين لنا عدم «صلاحية» الجمادات في السموات والأرض والجبال للتكليف، لأن الله لم يزودها بالإرادة والعقل والاختيار، كما تريد أن تبين لنا «صلاحية» الإنسان للتكليف، لأن الله زوّده بالعقل والإرادة والقدرة على الاختيار.

فعرضت الآية هذه الحقيقة النظرية في صورة تمثيلية، لتقريب مضمونها للسامع والقارئ.

وكأن الآية تقول: لو أنطق الله السموات والأرض والجبال، ثم عرض عليها الأمانة، واستمزجها للتكليف، وأخذ رأيها به، لخافت وأشفقت، لأنها تعلم أنها غير مؤهلة له، ولو قبلته وأخذته لقصّرت في التنفيذ والأداء، ولذلك لو خيَّرها الله بذلك، لطلبت من الله أن يعذرها، وأن لا يبتليها به، ولقالت له: نرجوك يا ربنا أن لا تكلفنا ولا تبتلينا بالأمانة والعهد، ولا نريد منك أجراً ولا ثواباً وإننا نعلم أننا لا نقدر على الالتزام والأداء، ونحن يا ربنا خاضعون لك، مستسلمون منقادون لأمرك، بدون تكليف ولا مسؤولية.

أما الإنسان – باعتبار جنسه – فكأن الآية تقول لنا: لو أن الله عرض عليه أمانة العهد والتكليف والمسؤولية، وقال له: أيها الإنسان: هل تأخذ أمانة التكليف والعهد، بحيث أوجب عليك واجبات، وأحرم عليك محرمات، وأحدد لك مهمة ورسالة، فإن وفيت بذلك، منحتك الأجر والثواب، وإن قصّرت ونقضت وخالفت حَكَمتُ عليك بالعقاب والعذاب، لو قال الله للإنسان هذا، لقال: قبلت يا رب التكليف، وحملت الأمانة، لأنك أعطيتني ما أقدر به على القيام بذلك، من العقل والإرادة والاختيار.

هذا المعنى هو الذي عرضته الآية بطريقتها التصويرية التمثيلية، لتقريبه للذهن البشري: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ .

إن الله عليم حكيم سبحانه وتعالى، ولهذا خلق المخلوقات المختلفة بقدرته وعلمه وحكمته، ومنح كل مخلوق منها ما منح، بعلمه وحكمته، وزوّد كل مخلوق بأمور خاصة به، لم يزود المخلوقات الأخرى بها، بعلمه وحكمته.

لقد أراد الله الحكيم خلق السموات والأرض والجبال على ما خلقها عليه، وجعلها خاضعة مستسلمة له، خضوعاً تسخيرياً لا إرادياً، يجري عليها أمره وقضاؤه، فلا تعصي ولا تخالف ولا تتمرد.

وهذا هو المعنى الذي يقرره قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ﴾ [فصلت:٩-١٢].

إن الله الحكيم الذي خلق السموات والأرض على هذه الصورة، يعلم أنها غير مؤهلة ولا مهيّأة لحمل أمانة التكليف والعهد والمسؤولية، فلم يؤهّلها سبحانه لذلك، ولم يمنحها الإرادة والعقل والقدرة على الاختيار، ولذلك أوجدها على هذه الصورة من الخضوع التسخيري اللاإرادي له سبحانه.

أما الإنسان – الكائن الصغير الضئيل بالقياس إلى السموات والأرض – فقد أراد الله العليم الحكيم أن يجعله «محلاً» للمسؤولية، مهيئاً للعهد والأمانة، فخلقه الله خلقاً خاصاً، وجعل فيه من المؤهلات الفطرية الإنسانية ما يرشّحه لهذا.

ولذلك لما خلق الله أول إنسان – وهو آدم عليه السلام – أخبر الملائكة عن إرادته وحكمته بجعل هذا الإنسان خليفةً له في الأرض، وتكليفِه – هو وذريتُه – بأمانة الخلافة والعهد

والتكليف والمسؤولية، ولما عرف الملائكة حكمة الله من جعل هذا الإنسان خليفة، سلموا لله بالعلم والحكمة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٠-٣٣].

وندعو إلى الوقوف أمام قول الله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والوقوف أمام قول الملائكة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وإذا كان الله قد أخبرنا عن خضوع السموات والأرض اللاإرادي بقوله: «ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين»، فقد أخبرنا عن حمل الإنسان – باعتبار جنس الإنسان – لأمانة العهد والمسؤولية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

ثانياً: الخلاصة في معنى الآية:

بعد هذا التوضيح – الذي طال للضرورة – نقدم خلاصة معنى الآية:

يخبرنا الله أنه خلق السموات والأرض والجبال غير مؤهلة لحمل أمانة العهد والتكليف، لأنه لم يمنحها العقل والإرادة والقدرة على الاختيار، وهي خاضعة لله خضوعاً تسخيرياً لا إرادياً، بينما خلق الله الإنسان مؤهلاً لحمل أمانة العهد والتكليف، لأنه منحه العقل والإرادة والقدرة على الاختيار، وطالبه أن يخضع لله خضوعاً إرادياً اختيارياً.

هذا المعنى عرضته الآية في أسلوب تصويري تمثيلي تقريبي تخييلي، وذلك ليستوعبه الذهن البشري.

فلو أن الله جعل السموات والأرض والجبال واعية ناطقة، وعرض عليها أمانة التكليف والمسؤولية، التي يترتب عليها الجزاء والثواب والعقاب، ودعاها إلى أن تأخذها وتحملها وتلتزم بها، فإن هذه السموات والأرض والجبال لن تقبل هذا العرض الاختياري، وسوف تأبى أن تحمل أمانة التكليف، لأنها تشفق من التبعة والمسؤولية، وتخاف من عدم القيام بالمطلوب، وذلك لعلمها أنها غير مؤهلة لحمل الأمانة.

أما الإنسان العاقل الواعي المختار المريد، فإنه يعلم أن الله قد خصّه بمؤهلات خاصة، غير موجودة عند باقي المخلوقات، كالعقل والإرادة والاختيار، ولذلك لما عرض الله عليه حمل أمانة التكليف والمسؤولية، وما يترتب على ذلك من تبعة ومحاسبة وثواب وعقاب، علم أنه قادر على حمل الأمانة، لما يملك من المؤهلات الخاصة، ولذلك قبل العرض، ورضي أن يحمل الأمانة، ووافق على الالتزام الاختياري بما عهد الله به إليه، واستعد لتحمل النتيجة والتبعة، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب.

وقد أخبرنا الله أن قبول الإنسان لحمل الأمانة، سيؤدي إلى تقصير ونقض ومخالفة عند كثيرين من أفراد هذا الإنسان، وكثيراً ما يظلم الإنسان لأنه ظلوم، وكثيراً ما يجهل لأنه جهول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

ثالثاً: حكمة وصف الإنسان بأنه ظلوم:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

عرفنا أن المراد بالأمانة هنا أمانة التكليف والعهد والمسؤولية، التي لم تُؤَهَّل السموات والأرض والجبال لحملها، بينما أهّل الله الإنسان لحملها، وأعانه على ذلك، وأن الإنسان حمل هذه الأمانة، واستعدّ لتحمل ما يترتب عليها من نتائج المحاسبة والثواب والعقاب.

وليس المراد بالإنسان في قوله: «وحملها الإنسان» إنسان خاص بعينه، لأن «الإنسان» هنا اسم جنس، ينطبق على كل بني الإنسان، في أي زمان ومكان.

فالإنسان الذي منحه الله العقل والإرادة والاختيار هو المقصود في الآية، ولا يستثنى من ذلك إلا الأفراد القلائل الذين حُرموا نعمة العقل، فكانوا مجانين! .

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ تقرير عن حقيقة يقينية، تنطبق على معظم أفراد هذا الإنسان، حيث سيكون الواحد منهم ظلوماً جهولاً.

و«ظلوم» صيغة مبالغة من الظلم. تقول: ظلم، يظلم، ظلماً، فهو ظالم، وظلوم.

و«جهول» صيغة مبالغة من الجهل. تقول: جهل، يجهل، جهلاً، فهو جاهل، وجهول.

والإنسان الظلوم الجهول هو الذي حمل الأمانة، واستعدّ للالتزام بها، لكنه لم يفِ بعهده، ولم يلتزم بها.

وأساس معنى الظلم هو: «وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه.. ويقال: الظلم في مجاوزة الحق، وفيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يُستعمل في الذنب الصغير، وفي الذنب الكبير، ولذلك قيل لآدم في تعدّيه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلميْن بونٌ بعيد..» [(١)].

فالإنسان الظلوم هو الذي يظلم نفسه، ويعرضها للمسؤولية والمحاسبة وللجزاء والعقوبة، عندما لا يؤدي الأمانة التي حملها، ولا يلتزم بالعهد الذي عاهد الله عليه، ولا يقوم بالواجب الذي استعدّ للقيام به، وتقصيره في هذا ظلم منه، وتجاوز للحق، وانتقال من ما أحله الله له إلى ما حرم الله عليه.

ووصف الإنسان بالظلم بصيغة المبالغة «ظلوم» لكثرة وقوع الظلم والتجاوز منه، وكثرة مخالفاته ومعاصيه، وكثرة مظاهر نقضه العهد وخيانته الأمانة.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣٧.

وكلامنا عن الإنسان الظلوم، ينطبق على كثير من أفراد هذا الإنسان، وظلمهم مراتب ودرجات:

فهناك ظلم الكفار الذي هو كفر يؤدي إلى الخلود في نار جهنم.

وهناك ظلم عصاة المسلمين، الذي ينتج عنه وقوعهم في الذنوب والمعاصي والمحرمات، وهذا يؤدي إلى تعذيبهم في نار جهنم، إن لم يتوبوا، ولم يغفر الله لهم، ولكنهم لا يخلدون في جهنم، لما في قلوبهم من إيمان.

ويُستثنى من هذا الوصف بالظلم بعض أفراد الإنسان الذين مَنّ الله عليهم بالعصمة من الذنوب والخطايا والآثام، وهم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

رابعاً: حكمة وصف الإنسان بأنه جهول:

عرفنا أن «جهول» صيغة مبالغة من الجهل، ووصف الإنسان بأنه جهول، بمعنى أنه كثير الجهل.

و«جهول» في الآية مقرونة مع «ظلوم» حيث وصفت الآية الإنسان بالوصفين معاً ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وهناك فرق بين الظلم والجهل.

فعرفنا قبل قليل أن الظلم هو التجاوز والتعدي، والانتقال من المباح إلى الحرام، وارتكاب ما نهى الله عنه.

ويُطلق الظلم على من ظلم نفسه أو غيره بفعل ما حرّم الله، أو ترك ما أوجب الله، وغالباً يكون الظالم متعمداً قاصداً، أي أن الظلم يُستعمل في من قصد المخالفة وتعمّدها.

أما الجهل فهو المقابل للعلم، أو المقابل للاتزان، فقد يرتكب الإنسان الذنب لأنه جاهل، أي: غير عالم بأن ما فعله حرام منكر، وقد يكون عالماً بأنه حرام، ومع ذلك يرتكبه لجهله، أي: لخفّته وسفهه وطيشه.

فالجهل قد يكون بارتكاب الذنب عن قصد وتعمّد، وهذا يلتقي مع الظلم، وقد يكون عن سهو ونسيان وضعف إيمان.

إن الجهل أعمُّ من الظلم، لأنه قد يجهل الجاهل متعمداً، وقد يجهل ناسياً أو ساهياً، فكل ظلم جهل، لأن الظلم خفة وسفاهة، وليس كل جهل ظلماً، لأنه قد لا يصدر عن قاصدٍ متعمدٍ.

والمراد بالإنسان في الآية: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الإنسان باعتبار جنسه ونوعه وأصله، ولا يراد به شخص معين.

وكما استثنينا الأنبياء من الظلم، يجب استثناؤهم من الجهل، فالناس الذين يظلمون ويجهلون هم غير الأنبياء، أما الأنبياء فقد عصمهم الله من المعاصي والذنوب والأخطاء، ولذلك لا يظلمون ولا يجهلون.

وحكمة وصف الإنسان بالجهل بصيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أن الله خلق الإنسان بخصائص خاصة، منها – مما يتعلق بالظلم والجهل – الغفلة والنسيان، والميل إلى الشهوة، وهذه الخصائص توقعه في المخالفة، وبذلك يتصف بالظلم والجهل.

ثم إن الله يخلق الإنسان بدون علم، ويُخرجه من بطن أمه غير عالم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

فالإنسان يولد جاهلاً لا يعلم شيئاً، ثم يكسب العلم ويُحصِّله بعد ذلك، بما وهبه الله من وسائل وقدرات تعينه على العلم.

كذلك الإنسان كثيراً ما يجهل فينسى، وكثيراً ما ينسى فيُخطئ، وكثيراً ما يجهل فيضعف، وكثيراً ما يجهل فيعصي ويُذنب، وكثيراً ما يجهل فيقصِّر ويتكاسل. ولأجل ذلك كان الإنسان جهولاً! .

وجهل هذا الإنسان الناتج عن عدم العلم، أو عدم اليقظة والحلم، يؤدي إلى أن يقصِّر هذا الإنسان في أداء أمانة التكليف والمسؤولية التي حملها، وينقض هذا الإنسان العهد الذي عاهد الله عليه، ويترك الواجب الذي أوجبه الله عليه، ويرتكب الحرام الذي حرمه الله عليه.

وهذه هي النهاية التي يصل لها هذا الإنسان الظلوم الجهول الذي حمل الأمانة، وهي تؤثر على أدائه للأمانة التي التزم بها.

وقد أشارت الآية التالية إلى النتيجة المترتبة على حمل الإنسان لأمانة التكليف:

﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٣].

اللام في «ليعذب» لام العاقبة – كما يقول علماء النحو – وهي اللام التي تدل على عاقبة ونتيجة ما بعدها.

وهذه العاقبة واضحة هنا. فالآية السابقة أشارت إلى حمل الإنسان للأمانة في الدنيا، ووصفت هذا الإنسان بأنه ظلوم جهول أثناء أدائه للأمانة.

وهذه الآية ذكرت عاقبة ونتيجة حَمْله وأدائه للأمانة، هذه النتيجة لا تظهر إلا عند المحاسبة يوم القيمة، وهي تعذيب الله للكافرين والمنافقين، وتوبة الله على المؤمنين المسلمين.

خامساً: الخلاصة من كل ذلك هي:

١- السموات والأرض والجبال لم تحمل أمانة التكليف، لأنها غير مؤهّلة لذلك.

٢- الإنسان أهّله الله لحمْل أمانة العهد والتكليف، بما زوّده به من إرادة وعقل ومسؤولية وقدرة على الاختيار.

٣- بناءً على ذلك حمّل الله الإنسان هذه الأمانة، واستعدّ الإنسان لحملها، وهو يعلم المطلوب منه فيها، ويعلم التبعة الناتجة عن حملها.

٤- قدّم الله للإنسان المنهج الذي يوضح له فيه العهد والأمانة، وهو الدين والشرع، الذي بعث به أنبياءه ورسله.

٥- أعان الله الإنسان على حُسْن أدائه للأمانة، بما وهبه من وسائل، وقدّم له من عون.

٦- تعامل الإنسان مع الأمانة على أساس صفتين مغروستين فيه، وهما: الظلم والجهل. فظَلَمَ وجَهِلَ هذا الإنسانُ الظلوم الجهول أثناء أدائه للأمانة.

٧- انقسم الناس في النهاية قسمين: منافقون وكافرون كان ظلمهم وجهلهم كفراً فخلدهم الله في النار. ومؤمنون مسلمون كان ظلمهم وجهلهم معصيةً وزلة ومخالفة، استغفروا منها، فغفر الله لهم، وتاب عليهم، وأدخلهم الجنة.

المبحث الخامس
المصدر السماعي: جهالة في السياق القرآني

لمادة «جَهِل» مصدران:

الأول: مصدر قياسي، وهو «جَهْل» تقول: جَهِل، يَجْهَل، جَهْلاً. لم يرد هذا المصدر في القرآن.

الثاني: مصدر سماعي، وهو «جهالة». تقول: جَهِل، يجهل جَهْلاً، وجَهالة.

وسمي هذا المصدر مصدراً سماعياً، لأن العرب استعملوا هذا المصدر، ونُقل هذا المصدر عنهم، وسُمع منهم.

وقد ورد هذا المصدر السماعي «جهالة» أربع مرات في القرآن. وفيما يلي وقفة سريعة مع هذه المرات.

المطلب الأول
سورة الأنعام: بشرى للتائب بعد الجهالة

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

هذه الآية في سياق آيات تسجل النظرة الجاهلية الخاطئة، التي ينظر بها الكفار المستكبرون إلى المستضعفين المسلمين، حيث طلب كفار قريش من الرسول ﷺ أن يطرد المسلمين المستضعفين من مجلسه، ليقبلوا هم أن يجلسوا معه، فنهى الله رسوله ﷺ عن الاستجابة لطلبهم، وأمره أن يبقى مع هؤلاء الصالحين الشاكرين، وبيّن له حكمته في ابتلاء المشركين بالمسلمين، ثم أمره بتبشير المسلمين بالرحمة والتوبة.

وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥١-٥٣].

وفي الآية (٥٤) – التي ننظر فيها – يأمر الله رسوله ﷺ أن يبشر الصالحين بالرحمة والتوبة والمغفرة، هؤلاء الصالحون الذين لا وزن ولا قيمة لهم عند المستكبرين الكافرين، لكنهم مكرّمون عند الله رب العالمين.

يقول الله لرسوله ﷺ : إذا جاءك هؤلاء المؤمنون الصالحون الشاكرون، فبشّرهم، وقل لهم: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة.

وأخبرهم يا محمد أن من مظاهر رحمة الله بهم، توبته عليهم، ومغفرته لذنوبهم، فإذا ما أخطأ أحد هؤلاء المؤمنين، وعمل سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعد ذلك السوء، وأصلح أعماله، واستقام في حياته، فإن الله يغفر له، لأنه غفور رحيم.

وتضمنت الآية ثلاثة مظاهر من مظاهر البُشرى التي يقدّمها الرسول ﷺ لهؤلاء المؤمنين:

الأول: تبشيرهم بالسلام والأمان: سلامٌ عليكم.
الثاني: تبشيرهم بالرحمة من الله: كتب ربكم على نفسه الرحمة.
الثالث: تبشيرهم بمغفرة ذنوبهم: فأنه غفور رحيم.

وجملة «أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح» على قراءة حفص عن عاصم بفتح همزة «أنّ» مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من «الرحمة». والتقدير: كتب ربكم على نفسه الرحمة، المغفرة لمن تاب.

إن الآية حصرت مغفرة الله ورحمته بمن عمل السوء بجهالة من المؤمنين، ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

إن المؤمن قد يعمل السوء والحرام، لكنه لا يعمله إلا إذا كان متلبِّساً بجهالة.

وشبه الجملة «بجهالة» في محل نصب حال، وصاحب الحال «من» الذي يعود على المؤمن. والمعنى: المؤمن قد يعمل السوء مقترناً بجهالة، أو متلبِّساً هو بجهالة. فإن حصل ذلك فلا بد أن يستغفر الله ويتوب إليه، ثم يتخلى عن الجهالة، ويُصلح أعماله: «ثم تاب من بعده وأصلح».

والجهالة هنا مصدر سماعي كما قلنا. لكن هل هي من الجهل المقابل للعلم والمعرفة، أو من الجهل المقابل للاتزان والرشد؟ .

إن الذنب والسوء يصدر من المسلم، وإن المسلم يعلم أن ما عمله حرام، فهو لا يجهل حكم عمله المحرم شرعاً، ولذلك لا يراد بالجهالة هنا الجهل بالحكم الشرعي.

المسلم قد يضعف إيمانه، وينقص رشده واتزانه، فيُقدم على ارتكاب أمر محرم،وهو يعلم أنه محرم، فجهالته هنا خفة وطيش وسفه، قادته إلى ارتكاب ذلك الحرام.

وهذه الجهالة لا تزول بالعلم، لأن المسلم المذنب يعلم أن فعله حرام، ولكن هذه الجهالة تزول بالتوبة والاستغفار، والندم على ما حصل، والطلب من الله أن يغفر له ذنبه، والاتزان والرشد بعد ذلك، الذي يقود إلى الإصلاح والاستقامة.

إن الآية تخبرنا أن «الجهالة» حالة ضعف وطيش، يتلبس بها بعض المسلمين، عندما يرتكبون بعض المحرمات، ولكن الكفار لا يوصفون بالجهالة، فما هم فيه أكبر بكثير من الجهالة، إنه الجهل المركب.

المطلب الثاني

سورة النحل: التوبة والإصلاح بعد الجهالة

قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١١٤-١١٩].

السياق الذي وردت فيه «جهالة» في هذه السورة سياق تشريع وأحكام. فالله أباح للمسلمين أكل الحلال الطيب من الرزق، وحرّم عليهم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذُبح لغير الله، إلا للمضطر، ونهى المسلمين عن الكذب والافتراء على الله في التحليل والتحريم، ثم أخبرنا الله عن بعض ما حرمه على اليهود، عقوبةً لهم بسبب ظلمهم.

وفي هذا السياق التشريع الخبري التحذيري، أخبرنا الله أنه غفور رحيم، يغفر للمسلمين الذي يُخطئون، فيعملون السوء بجهالة، بشرط أن يتوبوا ويُصلحوا حياتهم بعد ذلك السوء.

فما مناسبة الكلام على توبة من يعملون السوء بجهالة مع هذا السياق؟ .

إن مما ينتج عن التشريع المذكور في الآيات، ضعفَ بعض المكلفين، ووقوعَهم في الخطأ، وعملَهم السوء والحرام، ولذلك التفتت الآيات إليهم وقدمت لهم البشرى بالمغفرة إن قاموا بالتوبة.

من هم الذين قد يعملون السوء بجهالة؟إنهم مسلمون مكلفون، حريصون على الالتزام بأحكام الله، وكثيراً ما ينجحون في هذا الالتزام، ويقفون عند حدود الله.

ولكنهم أحياناً يضعُفون، فيضعف مستوى التزامهم، فيرتكبون المحظور، أو يتخلون عن الواجب، وبذلك يذنبون ويخطئون، ويعملون السوء والمنكر.

وقد وصفتهم الآية بأنهم ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ .

و«بجهالة» في محل نصب حال، فهي لبيان حال هؤلاء المسلمين عندما يعصون. والمعنى: عملوا السوء متلبسين بجهالة. أي: كانوا جاهلين عندما عملوا السوء، وجهلهم هذا هو الذي دفعهم إلى المخالفة.

وليست الجهالة هنا بمعنى الجهل المقابل للعلم، فهم يعلمون أن السوء الذي يعملونه حرام ولا يجهلون ذلك.

الجهالة هنا هي المقابلة للرشد والاتزان، وهي بمعنى الخفة والطيش والسفه، الذي يصدر عنه المعصية والمخالفة.

وهذه الجهالة حالة استثنائية، وظرف عارض، يمر به أولئك المسلمون لفترة عابرة، يعصون الله فيها، ويعملون السوء والشر، ثم يستيقظ الإيمان في قلوبهم، وتزول تلك الفترة العرضية، ويعلمون أنهم أذنبوا وعملوا السوء، فيشعرون بالندم على الجهالة والسفاهة التي كانوا فيها، ويتوجهون إلى الله بالتوبة والاستغفار، ويُصلحون أعمالهم، ويتخلون عن الجهالة، ويحرصون على الرشد والاتزان.

عند ذلك يغفر الله لهم ذنبهم وجهالتهم، لأنه غفور رحيم.

إن الآية تدعو المذنبين من المسلمين إلى التوبة والإصلاح، بعد الذنب والسوء الذي عملوه بجهالة. وتبين لهم أن الله لن يغفر لهم إلا إذا تحققت فيهم الخطوات التي ذكرتها الآية:

١- أنهم عملوا السوء بجهالة.
٢- أنهم تابوا بعد ما زالت عنهم حالة الجهالة.
٣- أنهم أصلحوا العمل بعد تلك التوبة.

المطلب الثالث

سورة النساء: الجهالة السريعة تعقبها التوبة القريبة

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٥-١٨].

السياق الذي وردت فيه «جهالة» في هذه السورة سياق ارتكاب فواحش، تعقبه التوبة، وبيان من تُقبل توبتهم، ومن لا تُقبل.

إن الذين تُقبل توبتهم مسلمون، قد يمرّون بفترات جهالة، يرتكبون فيها الفواحش، ثم تزول تلك الجهالة عنهم، فيتوبون إلى الله، في الوقت الذي تُقبل فيه التوبة.

تكلمت آيات السياق عن النساء اللواتي يرتكبن فاحشة الزنا، وطالبت المسلمين بإثبات ذلك عن طريق أربعة شهود، فإن ثبتت الفاحشة يُحبسن في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت، أو ينزل حكم جديد من الله. وقد نزل الحكم بإقامة الحدّ عليهم، وذلك في سورة النور.

ثم تكلمت عن الرجال الذين يرتكبون فاحشة الزنا، وبينت أنهم صنفان: رجال محصنون متزوجون. ورجال عازبون غير متزوجين. وطالبت المسلمين بإيذاء الصنفين من الرجال الزناة. أما إذا تاب هذان الصنفان من الرجال فعلى المسلمين ترك إيذائهما، لأن توبتهما تمحو ذنوبهما عند الله التواب الرحيم.

وجعلت آيات السياق توبة وإصلاح الصنفين من الرجال الزناة فرصةً مناسبةً للحديث عن التوبة والتائبين، وعن الذنوب والمذنبين، وعن الوقت الذي تُقبل فيه التوبة، والوقت الذي لا تُقبل فيه.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ .

ومعنى قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾: التوبة التي أخبر الله أنه يقبلها من أصحابها التائبين، تفضُّلاً منه وكرماً سبحانه وتعالى، وليس إجباراً وأمراً، فلا يوجد مخلوق يأمر الله، بفعل شيء،أو يجبره عليه! .

ذكر الله وصفين للذين يقبل الله توبتهم:

الأول: عملهم السوء بجهالة: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ .

أي: يرتكبون الفاحشة، ويفعلون الحرام، متلبِّسين بجهالة، متأثرين بحالة ضعف الإيمان، وسيطرة الهوى والشهوة.

الثاني: توبتهم القريبة من ارتكاب الذنب: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ .

أي: سرعان ما تزول غاشية الجهالة التي غشيتهم، وسرعان ما يتقوى الإيمان في قلوبهم، فيشعرون بخطئهم ويتوبون إلى الله ويستغفرونه.

ومن هذين الوصفين نلاحظ أن جهالة هؤلاء المسلمين العصاة سريعة، أعقبتها التوبة القريبة.

وبينما ذكرت الآية وصفين للذين يقبل الله توبتهم، فقد جاءت الآية الأخرى بعدها تذكر صنفين لا يقبل الله توبتهم، ولا يغفر لهم:

الأول: المصرون على المعاصي، ثم يتوبون عند الاحتضار وإغلاق باب التوبة: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ .

الثاني: الكافرون حتى الموت: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ .

إن عدم قبول توبة هذين الصنفين لأنهم لم يتوبوا من قريب، ولأنهم لم يستفيدوا من الفرصة التي هيّأها الله لهم، ولأنهم لم يتوبوا في وقت الاختيار والاقتناع، ولم تبقَ لهم مدة من أعمارهم للعمل الصالح الذي يمحو العمل السيئ.

وعندما نقف مع قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ فإننا نتعرف على المراد بالجهالة فيه:

الكلام عن مسلمين عصاة، قد يرتكبون فواحش، وقد يعملون السوء، ويصدر هذا عنهم وهم متلبّسون بالجهالة، وشبه الجملة «بجهالة» في محل نصب حال. وذلك لتصوير الحالة العامة التي يكون فيها هؤلاء المسلمون العصاة.

والجهالة هنا ليست من الجهل المقابل للعلم، فهم يعملون أن ما يُقدمون عليه حرام، وأنه لا يجوز لهم فعله، فهم ليسوا جاهليه بحكمه.

إن الجهالة هنا حالة ضعف، وفترة نقص إيمان، ولحظة طيش وخفة وسفاهة، يتحكم فيها الهوى، وتسيطر الشهوة ويستحوذ الشيطان بالوسوسة، فيضعفون، ويجهلون جهالة، ويقعون في الحرام.

وهذه الجهلة موقوتة سرعان، ما تزول، ويعقبها التذكر والاستيقاظ، فيندم هؤلاء المسلمون العصاة، ثم يتوبون عن قريب، فيتوب الله عليهم.

وفرق بين جهالة هؤلاء العصاة الموقوتة سريعة الزوال، وبين جهالة العصاة الآخرين الدائمة المستمرة، التي تبقى معهم إلى حين خروج أرواحهم! .

جهالة التائبين السريعة التي تعقبها التوبة، يصدر عنهم خلالها «سوء».

والتعبير بالمفرد هنا ملحوظ مقصود مراد: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ .

أما جهالة العصاة الدائمة إلى حين احتضارهم، فتصدر عنهم خلالها «السيئات» والتعبير بالجمع هنا ملحوظ مقصود: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

فرق بين سوءٍ واحدٍ يصدر عن مسلم في لحظة ضعف وجهالة، تعقبها توبة وندامة، وبين سيئات كثيرة متتابعة متوالية، تستغرق أعمار المذنبين لحين حضور آجالهم.

المطلب الرابع
سورة الحجرات: تحذير من جهالة المتسرعين

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ

لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٦-٨].

القول في سبب نزول الآيات:

جمهور المفسرين على أن هذه الآيات نازلة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقصته مع خزاعة.

وقد أورد الهيثمي في «مجمع الزوائد» خمس روايات في قصة الوليد بن عقبة مع خزاعة أو مع بني المصطلق، وبين هذه الروايات الخمسة كثير من الاختلاف والتعارض. وقد ضعّف الهيثمي أربعة منها، لوجود رواةٍ غير ثقات في أسانيدها[1].

أما الرواية الخامسة فقد أخرجها أحمد والطبراني، وقال الهيثمي إن رجال أحمد في هذه الرواية ثقات.

وخلاصة هذه الرواية التي وثّق الهيثمي رجالها أن «دينار والد عيسى روى عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فأقررت به، ودخلت فيه، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله: أرجع إلى قومي، وأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، فأرسل إليّ يا رسول الله ﷺ رسولاً لإبّان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسولُ فلم يأته، فظنّ الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ.

فدعا بسَرَواتِ قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ، كان وقّت لي وقتاً، يُرسل إليّ رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلف، ولا أرى حَبْسَ رسوله إلا من سخطةٍ كانت، فانطلقوا، فنأتِيَ رسول الله ﷺ.

(١) انظر مجمع الزوائد، ٧:١٠٨-١١٠.

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث، ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق، فَرِقَ، فرجع، فأتى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي!! .

فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث وفصل من المدينة، فلقيهم الحارث.

فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعثتم؟ .

قالوا: إليك! .

قال: ولِمَ؟ .

قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتْله! .

قال: لا، والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ألبتة، ولا أتاني! .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة، وأردت قتْل رسولي!.

قال الحارث: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني، وما احتبست إلا حين احتبس عليّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ، حسبت أن يكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله.

فنزلت هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ .

وعلق الهيثمي على هذه الرواية بقوله: رواه أحمد والطبراني، إلا أنه قال: الحارث بن سرار بدل ضرار. ورجال أحمد ثقات...»[1].

والراجح أن هذه الرواية – وهي أصح رواية في تحديد نزول الآيات في الوليد بن عقبة – غير صحيحة.

---

(١) مجمع الزوائد، ٧:١٠٨-١٠٩.

وعلة هذه الرواية «دينار والد عيسى». فهو غير ثقة. ولم يوثقه إلا ابن حبان، على عادة ابن حبان في توثيق المجاهيل[1].

إذن نزول هذه الآيات في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ﷺ غير صحيح من حيث السند، فلم تصح رواية واحدة من حيث السند في ذلك. إضافة على ما في الروايات المختلفة من تعارض واختلاف وتناقض، سواء في القوم الذين أرسله الرسول ﷺ إليهم، أو في سبب عودته قبل أن يصلهم، أو في كيفية القدوم على رسول الله ﷺ، أو في كيفية بعث الجيش إليهم لقتالهم، أو في الصحابيّ الذي روى هذه الحادثة، أو في التابعي الذي رواها.

وهذا التناقض والتعارض والاختلاف والاضطراب يوجِّه شكوكاً أخرى في متن هذه الروايات، بحيث لا نطمئن إلى اعتمادها، واعتبارها وثيقة في إدانة صحابيّ صالح شجاع كالوليد بن عقبة ﷺ، واتهامه بالفسق والجبن والخوف والكذب.

وقد علق الإمام الرازي في تفسيره على هذه الرواية بقوله: «هذا جيد، إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت، وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصراً عليه، ومتعدياً إلى غيره فلا، بل نقول هو نزل عامّاً لبيان التثبّت، وترْك الاعتماد على قول الفاسق.. غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية، ونحن نصدِّق ذلك، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد، لأنه توهّم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً...»[2].

وعلى فرض نزول الآيات في الوليد بن عقبة، وعلى فرض صحة الرواية بذلك - ولست مع من يعتمدها ويثبتها - فلا يعني هذا أن الوليد بن عقبة فاسق كاذب جبان.

وللإمام محمد الطاهر بن عاشور تعقيب لطيف على هذا الفرض: «واعلم أن ليس في الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق، تصريحاً ولا تلويحاً.

---

(١) تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط على هذه الرواية، في سير أعلام النبلاء، ٣:٤١٤ حاشية. وانظر «مسند الإمام أحمد» ٣٠:٤٠٣-٤٠٥، الحديث رقم (١٨٤٥٩).

(٢) التفسير الكبير للرازي، ٢٨:١١٩.

وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك. وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمّد الكذب.

قلت: ولو كان الوليد فاسقاً لما ترك النبي ﷺ تعنيفه واستتابته، فإنه رُوي أنه لم يزد على قوله له: «التبيُّنُ من الله، والعجلة من الشيطان». إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرض إلى الوليد بن عقبة بتلك الهيئة مثار ظنّه حقاً، إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقي السعاة...» [1].

والذي نميل إليه هو عدم القول بنزول الآيات في الوليد بن عقبة ﷺ، لعدم صحة الرواية بذلك سنداً، وللنقد الموجَّه إلى متن الرواية، القائم على اتهام ذلك الصحابي بالفسق والجبن والخوف والكذب، علماً أن الصحابة كلهم عدول، لا تجد بينهم كاذباً ولا فاسقاً.

وغاية ما يقال في مناسبة نزول الآيات: لقد حدثت حادثة ما، زمن رسول الله ﷺ، لا نملك تحديدها وتبيينها لعدم وجود رواية صحيحة أمامنا، قدّم فيها أحد الفاسقين خبراً ونبأً كاذباً، فهمّ الصحابة أن يعتمدوا كلامه، وأن يوقعوا العقاب بمن تعلق فيهم النبأ، فنهاهم الله عن ذلك لئلا يُخطئوا مع القوم، وطالبهم بالتثبت والتبين من نبأ ذلك الفاسق.

هذا غاية ما نقوله في نزول الآيات، ويهمنا أن ننتقل إلى القاعدة العامة التي تقررها هذه الآيات.

التسرع جهالة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾. يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بالتبين والتثبت من أخبار الفاسقين، وينهاهم عن التسرع في أخذها، وقبولها على علاتها، وتصديق أصحابها الفاسقين، لأنهم إن فعلوا ذلك، فقد يؤذون آخرين، يوقعون بهم الضرر، ويصيبوهم بالسوء والشر،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢٦: ٢٢٩-٢٣٠.

وسبب ذلك هو تسرّعهم وعجلتهم واندفاعهم، وهذا جهالة وخفة وطيش، يجب أن ينزه المؤمنون أنفسهم عنه، وعندما تزول حالة الجهالة عنهم، ويعودون إلى تفكيرهم الموضوعي المتزن، فسوف يقفون على مقدار الضرر الناتج عن تسرعهم وجهالتهم، وعندها سوف يندمون على ما فعلوا، في الوقت الذي لا ينفعهم فيه الندم.

وجملة ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ تعليل للأمر بالتثبت والتبين عند سماع خبر الفاسق، وكأنها تقول لهم: إن أخذتم خبر الفاسق بدون تمحيص وتثبت، فسوف تصيبون قوماً بجهالة.

وهذه الجملة، قد تكون في محل نصب مفعول لأجله، والتقدير: إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة.

وقد تكون في محل نصب على نزع الخافض، بحيث تقدَّر اللام، والتقدير: تبينوا لئلا تصيبوا قوماً بجهالة.

والتقدير الأول أوجه، فالتبين من خبر الفاسق خشية إيقاع الضرر بالآخرين.

والباء في «بجهالة» باء المصاحبة، وشبه الجملة في محل نصب حال.

أي: حالة كونكم متلبِّسين بجهالة.

والجهالة هنا ليست من الجهل المناقض للعلم، لكنها من الجهل المقابل للحلم والاتزان والموضوعية.

الجهالة هنا هي الخفة والطيش، الناتجة عن العجلة والتسرع والاندفاع والعاطفية، والسير وراء الخبر الكاذب الذي قدمه ذلك الفاسق.

ومقابل الجهالة في الآيات هو التبين والتثبت والتمحيص، فمن فعل ذلك مع أخبار الفاسقين كان حليماً وقوراً، راشداً متزناً، علمياً موضوعياً منهجياً.

وآيات السياق تدل المسلمين على طريقة إزالة الجهالة: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ...﴾ .

وعندما نستذكر ما قيل في سبب النزول، ندرك الحكمة من هذا التوجيه القرآني، فلو أن الجيش الإسلامي اشتبك مع القوم المسلمين، الذين قيل إنهم منعوا الزكاة، مع أنهم مؤمنون صالحون، فماذا ستكون النتيجة؟ وماذا سينتج عن ذلك من شرور ومفاسد؟ فالتثبت والتبين هو الذي حال دون الوقوع في ذلك.

إن طريق إزالة حالة الجهالة الطارئة هي: الالتزام بتوجيهات القرآن الموضوعية، وطاعة رسول الله ﷺ، وتطبيق سنّته، وامتلاء القلب بالإيمان، وكراهية الكفر والفسوق والعصيان.

وكل من سار على هذا الطريق يكون من الراشدين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ . وهذا الرشد العقلي والنفسي والفكري فضل ونعمة من الله العليم الحكيم.

و«الراشدون» في الآيات وصف إيجابي يدل على الاتزان والموضوعية، وهو في مقابل المتسرعين الذين يصيبون قوماً بجهالة.

التسرع والعجلة جهالة. والتبين والتثبت والتأني رشد وحكمة!! .

المطلب الخامس

لطائف المصدر السماعي جهالة في السياق القرآني

قلنا: إن المصدر السماعي «جهالة» ورد أربع مرات في القرآن، وعندما نمعن النظر في المرات التي ورد فيها، والسياق الذي وردت فيه كل مرة، فإننا سنخرج من ذلك ببعض اللطائف، منها:

١- ورد لفظ «جهالة» في أربع سور: سورتين مكيتين، وهما: الأنعام والنحل، وسورتين مدنيتين، وهما: النساء والحجرات.

٢- لفظ «جهالة» في المرات الأربعة جاء في الظاهر مجروراً بالباء: «بجهالة» وهذه الباء باء الملابسة والمصاحبة.

٣- موقع شبه الجملة «بجهالة» في المرات الأربعة من الإعراب، في محل نصب حال. أي: هؤلاء المذنبون يعملون السوء متأثرين بحالة الجهالة التي يمرون فيها.

٤- الكلام في المرات الأربع عن مسلمين مذنبين، يضعُفون فيقعون ويعملون السوء.

٥- الجهالة التي قد يصاب بها بعض المسلمين حالة عرضية وقتية، وكأنها غاشية عابرة تغشاهم، وتؤثر في قوة التزامهم، وتُضعِف نفوسَهم وقلوبَهم، وهذه الحالة العرضية سرعان ما تزول وتنتهي.

٦- يعقب هذه الجهالة عند المسلمين يقظة وانتباه، وإدراك للخطأ الذي وقعوا فيه، والذنب الذي ارتكبوه، فيندمون على ذلك، ويسارعون بالتوبة والاستغفار، فيغفر الله لهم.

٧- ينتج عن حالة الجهالة العرضية استقامة على شرع الله، والتزام بأوامره، وإحسان للعمل الصالح، وإصلاح لمسيرة الحياة، فهؤلاء المسلمون الذين عملوا السوء بجهالة، تابوا من قريب، ثم أصلحوا العمل بعد ذلك.

٨- الجهالة في المرات الأربعة ليست من الجهل المقابل للعلم، وإنما من الجهل المقابل للرشد والحلم، فهي ضعف نفسي وإيماني، يقود إلى الخفة والسفاهة، فينتج عن ذلك السوء والذنب.

٩- هذه الجهالة العرضية حالة ضعف سريعة، قد يصاب بها أي مسلم، فلا أحد من المسلمين له العصمة، إلا رسول الله ﷺ ، ويجب أن يُعلم أنها لحظة ضعف عابرة، وليست صفة دائمة مستمرة. وعلى المسلم الذي يمر بهذه الحالة المرضية أن يسارع بالخروج منها، والتخلص من أسْرها. وذلك بتذكّر الواجب عليه وذكر الله فهذا كفيل بإيقاظ الإيمان في قلبه، ومساعدته على التغلب على ضعفه وجهالته.

١٠- ونخرج من هذه المرات الأربع بقاعدة عامة: كل معصية جهالة، وكل ذنب فهو خفة وطيش ورعونة، وكل مسلم عاصٍ فهو متأثر بحالة مرضية خطيرة، هي مرض «الجهالة»، ولا بد أن يسارع بالخروج من هذه الحالة.

١١- يجب أن نفرق بين الحديث عن الحالة المرضية التي تصيب المسلم – وهي حالة الجهالة العارضة – فيعمل السوء وبين الحديث عن الصفة العامة التي يتصف بها الكفار، وهي الجهل العام المطبق، الذي يتقلبون فيه طيلة حياتهم.

فالكفار في التعبير القرآني «جاهلون»، و«جاهل» اسم فاعل، ومعنى هذا أن الجهل صفة ملازمة لهم، لأن اسم الفاعل يدل على الثبات والاستقرار.

أما المسلمون فليسوا جاهلين، كل ما في الأمر أنهم قد يمرون بفترة «جهالة» عَرَضية، ثم يتجاوزونها بسرعة، ويعودون إلى استقامتهم والتزامهم، ويعود لهم رشدهم واتزانهم!.

المبحث السادس

الجاهلية في السياق القرآني

«الجاهلية»: اسم مشتق من الجهل، وقد وردت «الجاهلية» أربع مرات في القرآن، وردت في سور: آل عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح، وهي أربع سور مدنية.

وقبل الوقفة التحليلية مع هذه الآيات، نقف لنتابع «التطور الدلالي للفظ الجاهلية بين الجاهلية العربية وبين القرآن.

تابع الدكتور عودة أبو عودة هذا التطور في كتابه القيم «التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن». فاستخلص معاني «الجهل» في اللغة، وهي:

١- الجهل: ضد العلم.

٢- الجهل: الضياع والتيه.

٣- الجهل: السفه والطيش والغضب والاعتداء.

وأورد أبو عودة نماذج من الشعر الجاهلي على كل معنى من هذه المعاني:

١- من الجهل بمعنى عدم العلم: قال عنترة بن شداد:

هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ ... إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِما لَمْ تَعْلَمي

٢- ومن الجهل بمعنى التيه والضياع قول سُوَيْد بن أبي كاهل اليشكري:

فرَكِبْناها على مَجهولِها ... بِصلابِ الأرْض فيهِنَّ شَجَعْ

٣- ومن الجهل بمعنى السفهِ والطيشِ قول مُهَلْهَل بن ربيعة يخاطب الحارث بن عباد:

يا حَارِ لا تَجْهَلْ على أشْياخِنا ... إنّا ذوو السّوراتِ والأحْلام

ومنه قول النابغة الذبياني:

دَعــاكَ الهَــوى واسْــتَجْهَلَتْكَ المنــازِلُ   وَكَيْفَ تَـصابي المـَرْءِ وَالـشَّيْبُ شـامِلُ؟

ومنه البيت المشهور المحفوظ لعمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهَلَــــنْ أحَــــدٌ عَلَينـــا   فنَجْهَـــلَ فَـــوْقَ جَهْـــلِ الجاهِلينـــا

واستعمال الجهل بالمعنى الثالث: «ورد كثيراً، وهذه الكثرة تتناسب مع الأحداث، التي كانت تجري بينهم، من غزوٍ وثأرٍ وسبي وقتل، وعداء مستمر بين القبائل، وحروب طاحنة دائمة، والشعر الجاهلي الذي يُعدّ ديوان العرب حافل بهذه الأخبار...»[1].

وعندما انتقل أبو عودة إلى القرآن، والحديث عن الجهل والجاهلية في آياته، وجد أن القرآن قد تفرد باستعمال الجاهلية. قال: «ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه الصيغة، إنما هي صيغة أوجدها القرآن، وانتشرت فيما بعد لتكون عَلَماً على الفترة التي سبقت نزول القرآن.

قال السيوطي في المزهر: قال ابن خالويه: إن لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة. والمنافق اسم إسلامي لم يُعرف في الجاهلية...»[2].

وإذا كان مصطلح الجاهلية غير وارد في الشعر الجاهلي، وإنما هو مصطلح قرآني إسلامي، فإنه لم يرد في القرآن، بمعنى عدم العلم، وإنما بمعنى السفه والطيش.

قال الدكتور أحمد أمين: «والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة. جاء في حديث الإفك: «ولكن اجْتَهَلَتْهُ الحَمية». أي: حَمَلَتْه الأنفة والغضب على الجهل. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر – وقد عيّر رجلاً بأمه – «إنك امرءٌ فيك جاهلية». أي: فيك روح الجاهلية. فترى من هذا كله أن الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة، وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب قبل الإسلام في العصر الجاهلي..»[3].

---

(١) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن. للدكتور عودة أبو عودة: ١٤٦-١٤٨.

(٢) المرجع السابق: ١٤٩.

(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين: ٧٠. والتطور الدلالي: ١٥٠.

وسنعود إلى الكلام على معنى «الجاهلية» العام بعد جولتنا مع مصطلح الجاهلية في السياق القرآني.

المطلب الأول
سورة آل عمران: ظن الجاهلية في التصور

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٢-١٥٤].

تخبر هذه الآيات عن بعض ما وقع للمسلمين في غزوة أحد، وتُذكِّر المسلمين ببعض أحداث تلك المعركة، فقد صدق الله المسلمين وعْده في أول المعركة، حيث نصرهم على جيش قريش، ولكن حصل من بعض المسلمين فشل وتنازع وعصيان، وكان منهم من يريد الدنيا، فحقت عليهم سنّة الله، ودفعوا هذا الثمن غالياً، فكانت الدائرة عليهم في جولة تالية، وفوجئوا بهجوم الكفار، فانهزم كثير منهم من الميدان، وكان الرسول ﷺ ثابتاً يدعوهم للعودة إلى ميدان المعركة، فتألم الصادقون منهم لِما صدر منهم، وأثابهم الله بذلك غمّاً بغم..

ثم تدارك الله الصحابة بفضله ورحمته، فأنزل عليهم بعد الغمّ الأمان، في جولة تالية من جولات المعركة، فغشّاهم النعاس أمنةً وهدوءاً وطمأنينة، وأزال ذلك النعاس التوتر والقلق الذي أصابهم من قبل.

وقد أخبرت الآية عن هذه الطائفة المؤمنة المباركة بقولها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ .

أما الطائفة الأخرى التي أخبرت عنها الآية فهي طائفة المنافقين، وهم مسلمون في الظاهر، لكنهم كفار في الحقيقة، وكان لهم دور تخريبي خطير قبل غزوة أحد وأثناءها وبعدها.

وإذا كان الصحابة في سكينة وأمنة وطمأنينة، فإن المنافقين: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، لا يفكرون إلا في أنفسهم، ولا يحسبون حساباً إلا لأعمارهم وأرزاقهم وأحوالهم وأولادهم، ولا يهمهم أمر الأمة، ولا يحملون همّها.

وبما أنهم قد أهمتْهم أنفسهم، فقد زالت عنهم السكينة والأمنة والطمأنينة، وحلّ محلها القلق والتوتر، والهواجس والتخيلات، والظنون والوساوس، وهذه ضريبة باهظة يدفعها الذين يتركون التفكير في أمتهم وإخوانهم، ويدورون في فلك أنانيتهم وذاتهم ومصلحتهم، وعلى الآخرين السلام، فهم قلقون متوترون معقّدون منفعلون، مشغولون في تخيلاتهم وهواجسهم وظنونهم.

وقد أخبرت الآية عن بعض ظنون هؤلاء المنافقين الأنانيين: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ . إنهم يدّعون في الظاهر أنهم مؤمنون بالله، راضون بقضائه، لكنهم في الحقيقة يظنون به غير الحق، أي: يظنون به الباطل، لا يرضون بقدره، ولا يستسلمون له، ولا يصبرون على ابتلائه، ويُعلنون للمسلمين – من باب الشبهات – أن الله قد تخلى عن رسوله وجنوده، وأنهم ضائعون فاشلون خاسرون، وأن الله ليس معهم، فلماذا يُتعبون أنفسهم في القتال؟ ولماذا يخسرون أنفسهم بالقتل؟ ولو قعدوا في بيوتهم لحافظوا على أرواحهم وأموالهم.

هذه الظنون التي ظنّها المنافقون بالله ظنون باطلة، قائمة على الهواجس والأوهام والوساوس.

وقد وصفت الآية هذه الظنون والأوهام الباطلة بأنها ظن الجاهلية: «يظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية».

ولم تترك الآية ظن الجاهلية مبهماً، بل بيّنته ووضّحته، من خلال تسجيلها لأقوال المنافقين، التي تدل على ظنهم الجاهلي الباطل بالله عز وجل، وقد سجلت أقوالهم ثم ردت عليهم.

فالمظهر الأول من مظاهر ظن الجاهلية عند المنافقين قولهم للرسول ﷺ : ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ﴾ وقد قالوا هذا معترضين على رسول الله ﷺ في قيادته للمسلمين في معركة أحد، وادّعوا أن الرسول ﷺ تجاهلهم وأهملهم، ولهذا يقولون باستنكار: هل لنا من الأمر المتعلق بالمعركة من شيء؟ .

وهذا الاعتراض دليل على جاهلية ظنّهم وتصورهم وتفكيرهم، فالتصور الإيماني يرشد أصحابه إلى الاستسلام لأمر الله، والرضا بقضائه. ولهذا جاء الرد عليهم صريحاً في الآية: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ .

والمظهر الثاني لظنهم الجاهلي في ما قالته الآية عنهم: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ .

والجاهلية في هذا التصرف هي أنهم يتعاملون به مع الرسول ﷺ ، المؤيّد بالحق من الله، الذي يكشف الله له عن الخفايا والحيل والمكائد، ومع ذلك يتعاملون معه بنفاق وتحايل، فيُظهرون له الإسلام والتأييد والمتابعة، بينما يخفون في أنفسهم الكفر والتكذيب والاعتراض.

والمظهر الثالث لظنهم الجاهلي في قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ .

والجاهلية في التصور الباعث على هذا القول جاهلية اعتقادية، تتعلق بالقضاء والقدر، والعمر والأجل، والحياة والموت، فالمنافقون معترضون على معركة أحد، وعلى الدماء التي سُفكت فيها، وعلى الصحابة الذين استشهدوا فيها، ويثيرون بذلك الشبهات بين المسلمين، ويقولون لهم: لو لم نخرج إلى ميدان المعركة لما قُتل أقاربنا، ولو بقوا في بيوتهم لحافظوا على أعمارهم.

وهذه النظرة من المنافقين للموت والأجل جاهلية تصورية اعتقادية، ولذلك ردّت الآية على ذلك بتقرير الحقيقة الإيمانية في الحياة والموت والعمر والأجل: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

والحقيقة الإيمانية في هذا الرد أن الخروج للقتال والتعرض للكفار لا يُقصِّر عمراً، وأن الجبن والقعود في البيت لا يطيل عمراً، والإنسان لا يموت إلا بأجله الذي حدده الله له، وإذا حان أجله يموت بدون تأخير، ومهما كان حذراً محتاطاً فلا بد أن يموت، لأنه لا ينفع حذر من قدر، فلو كان شهداء غزوة أحد جالسين في بيوتهم، قاعدين عن القتال، فسوف يُخرجهم الله إخراجاً إلى المكان الذي حدّده لموتهم، وسوف يساقون سوقاً إلى السبب الذي قدّره الله لخروج أرواحهم.

إن الآية تكشف لنا عن تصور المنافقين واعتقادهم، وترينا تفكيرهم ونظرتهم، وتقدم لنا ظنهم ورأيهم، وتصف ذلك كله بأنه «ظن الجاهلية».

ظنّهم ظن الجاهلية، لأنهم قد أهمتهم أنفسهم، لأنهم ظنوا بالله غير الحق، ولأنهم يعترضون على الصحيح، ويقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟ ولأنهم يكتمون الحقيقة عن رسول الله ﷺ ، ويُظهرون له خلاف ما يكتمون، ولأنهم يظنون أن الإقدام يُقصر العمر وأن القعود يطيل العمر.

وهذه كلها أمور تصورية نظرية فكرية اعتقادية باطلة، وكلها تقود إلى ظنون وأوهام وهواجس ووساوس.

وقد سماها الله «ظن الجاهلية» لأنها تصورات وأفكار الكفار في العصر الجاهلي، قبل نزول القرآن، الذي أزال تلك الظنون الجاهلية عن المسلمين، لكنها بقيت عند هؤلاء المنافقين، لأنهم في الحقيقة كفار.

و«الجاهلية» في الآية صفة لموصوف محذوف، تقديره: يظنون بالله غير الحق كظن أهل الجاهلية.

و«الجاهلية» هنا اسم مشتق من الجهل، وقد ابتكره القرآن وسبق إليه، فلم يرد على ألسنة الناس قبل نزول هذه الآيات، ثم ورد في الأحاديث النبوية وكلام الصحابة بعد ذلك، ثم شاع على الألسنة.

ويراد هنا بالجاهلية سوء الظن والتصور والإدراك، الذي يقود أصحابه إلى السفاهة والخفة والطيش، ويوصلهم إلى الحمية الباطلة والعدوان الآثم.

وهذه هي التصرفات والأعمال التي كانت تصدر عن العرب الجاهليين الكفار، قبل نزول القرآن.

ومما يوضح المراد بظن الجاهلية الذي وُصف به المنافقون هنا، ظن السوء الذي ظنّه المخلفون من الأعراب قبيل صلح الحديبية، والذي قال الله عنه: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح:١١-١٢].

وظن الجاهلية الباطل في التصور والاعتقاد والتفكير، كان عند الكفار في العصر الجاهلي قبل نزول القرآن، وقد أصاب المنافقين واعتراهم، مع نزول القرآن، لأنهم لا يريدون أخذ البيان القرآني لتلك الحقائق، ذلك البيان الواضح الذي أخذه الصحابة، فاتضحت أمامهم الحقائق، وتخلّوا عن الظنون والأوهام الجاهلية التي كانوا عليها.

وهذا يعني أنهما حالتان متقابلتان، موجودتان عند الناس:

الأولى: ظن الجاهلية في الأوهام والوساوس والظنون والتصور والأفكار.

الثانية: البيان القرآني لحقائق الأفكار، الكفيل بإزالة الجاهلية.

والناس يختلفون في اختيار أي من الحالتين: ظن الجاهلية، أو الحقيقة القرآنية.

ففي عهد رسول الله ﷺ اختار الصحابة الحقيقة القرآنية، فأزال الله عنهم ظن الجاهلية ووساوسها، ومنحهم الأمنة والسكينة والطمأنينة، بينما رفض المنافقون الحقيقة القرآنية واختاروا ظن الجاهلية، وأفسدوا تصورهم واعتقادهم وفكرهم، ووقعوا في الهواجس والوساوس، وتصرفوا تصرفات تدل على سفههم وخفتهم وطيشهم وجاهليتهم.

ولا تزال الحالتان المتقابلتان موجودتان في البشرية، حتى قيام الساعة: ظن الجاهلية والحقيقة القرآنية، ولا يزال الناس في كل زمان ومكان يختلفون في الاختيار، فمنهم من يختار ظن الجاهلية، فيكون جاهلياً في فكره وتصوره ونظرته واعتقاده، طائشاً سفيهاً في تصرفاته وأفعاله، ومنهم من يختار الحقيقة القرآنية الهادية، فيكون قرآني التصور والنظر والفكر، ويكون آمناً مطمئناً، متزناً موضوعياً في حياته!! .

المطلب الثاني
سورة المائدة: حكم الجاهلية في التشريع

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

تتحدث الآية الأخيرة عن «حكم الجاهلية» وتضعه في مقابل «حكم الله»، وتُنكر على من طلبوا حكم الجاهلية، وتقرر أنه ليس أحسن حكماً من حكم الله.

والسياق الذي وردت فيه الآية، يتحدث عن وجوب الحكم بما أنزل الله، ووجوب التحاكم إلى شرع الله، والنهي عن الاحتكام إلى غير منهاج الله.

فبعد أن بيّن الله لرسوله ﷺ طبيعة القرآن الذي أنزله عليه: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه». أمره بالحكم بين الناس بهذا القرآن الذي أنزله إليه، وأكد عليه هذا الأمر بصيغتين.

الصيغة الأولى: في قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

حيث اتبع أمره بالحكم بما أنزل الله، بالنهي عن اتباع أهواء الرافضين الاحتكام إلى شرع الله، وبالذات أهل الكتب السابقة كاليهود والنصارى، وقد قرّر حقيقة هادية، وهي أنه جعل لكل أمة من الأمم شرعة خاصة بهم، ومنهاجاً محدداً لهم، وأن هذه الشرعة وهذا المنهاج يوافقان وضع كل أمة، ويُلبّيان حاجتها.

والمهم أن يوقن بأنه على الحق الواضح من الله، وأن اليهود والنصارى على الهوى والضلال، وشرعتهم منسوخة، فكيف يترك الحق الذي معه، ليتبع الهوى الذي هم عليه؟ وهذا معناه أن الاحتكام إلى غير شرع الله هوى وضلال وانحراف.

الصيغة الثانية: في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وليست الآية الثانية تكراراً للآية الأولى، فإننا نوقن أنه لا تكرار في القرآن، لقد قدمت الآية الثانية إضافةً جديدة، وهي وجوب الحذر من محاولات أصحاب الهوى من اليهود والنصارى، من فتنة الحاكم الذي يحكم بينهم بما أنزل الله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ولا ننسى التعبير بكلمة «بعض» في هذا التحذير الرباني، فهو يدل على وجوب الحكم «بكل» ما أنزل الله، في كل صغيرة وكبيرة، وحرمة «التنازل» عن بعض ما أنزل الله، والحكم في هذا «البعض» بغير ما أنزل الله.

إن من تنازل عن «بعض» ما أنزل الله، كمن تنازل عن كل ما أنزل الله، لأن ما أنزله الله لا يقبل التجزيء والتقسيم والتفاوض، إن من تنازل عن واحدٍ بالمائة (١٪) مما أنزل الله، ورضي أن يحتكم فيه إلى شرع غير الله، يكون تاركاً للحكم بما أنزل الله، وبذلك ينال عذاب الله.

وتدل كلمة «بعض» أيضاً على حرمة جعل الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع في الدولة، أو جعلها مصدراً رئيسياً من مصادر التشريع – كما تنص على ذلك دساتير الدول الإسلامية المعاصرة – إنها تقرر أن الشريعة الإسلامية يجب أن تكون هي المصدر «الوحيد» من مصادر التشريع.

وهذا معناه عدم جواز الاقتباس أو الاستعارة من التشريعات والقوانين الكافرة، في الدول الكافرة الغربية أو الشرقية، فأي دولة إسلامية معاصرة استعارت من القوانين والتشريعات الإنجليزية أو الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية أو حتى اليهودية (!!) فإنها لا تحكم بما أنزل الله، ولا تحتكم إلى شرع الله!! .

وبعد هاتين الصيغتين في الاحتكام إلى شرع الله، والحذر من الاحتكام إلى غيره، يأتي التقرير القرآني الحاسم: «أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟».

حكم الجاهلية هو المفهوم من الآيات السابقة، وهو المقابل لحكم الله، المتناقض معه، هو الحكم القائم على الهوى والمزاج، هو حكم اليهود والنصارى، وباقي أصناف الكفار، هو الحكم بالتشريعات والقوانين البشرية غير المستمدة من شرع الله، هو الحكم بالشرائع السماوية السابقة المنسوخة.

وتنكر الآية على هؤلاء الرغبة في حكم الجاهلية، وطلب الاحتكام إلى قوانين الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ وهل يرضى عاقل بالاحتكام إلى حكم قائم على الهوى والسفاهة؟ .

والحالة المشرقة الوضيئة لحكم الجاهلية هي حكم الله، وإذا كان حكم الجاهلية قائماً على الهوى، فإن حكم الله قائم على العدل، وإذا كان الاحتكام إلى حكم الجاهلية حراماً،

فإن الاحتكام إلى حكم الله واجب، وإذا كان المتحاكمون إلى حكم الجاهلية جاحدين كافرين، فإن المتحاكمين إلى حكم الله مؤمنون صالحون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وقد أضافت الآية الحكم إلى الجاهلية: «حكم الجاهلية» وهذه الإضافة تدل على أن الحكم بغير ما أنزل الله مظهر من مظاهر الجاهلية، وأن الجاهلية قد تكون في الحكم والتشريع، والقانون والقضاء، والسياسة والإدارة.

هناك حكم جاهلي، وتشريع جاهلي، وقانون جاهلي، وقضاء جاهلي، وسياسة جاهلية، وإدارة جاهلية، ومن ثم هناك مجتمع جاهلي، وحكومة جاهلية، ودولة جاهلية.

ولا تكون هذه المظاهر جاهلية، إلا إذا استُمدت من غير شرع الله ومنهاجه، وقد تصيب هذه الجاهلية النظام أو الحكومة، إذا لم يكن منهاج الحياة والحكم فيها مستمداً من حكم الله، مهما كان الزمان والمكان والتقدم والعمران.

وأقتبس هنا هذه الفقرة الرائعة للأستاذ المفسر الرائد سيد قطب رحمه الله في توضيح حكم الجاهلية وتحديد معناها:

«إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص، فالجاهلية – كما يصفها الله ويحددها قرآنه – هي: حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله.

إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يُحكَمون بشريعة الله – دونه فتنة عن بعض منها – ويقبلونها، ويُسَلِّمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله، وإما أنهم يُحكَمون بشريعة من صنع البشر – في أي صورة من الصور – ويقبلونها، فهم إذن في جاهلية»[1].

---

(١) في ظلال القرآن، ٢: ٩٠٤.

والخلاصة التي نخرج بها من ذكر الجاهلية في سورة المائدة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أنها جاهلية حكم وتشريع، وقانون ونظام، وسياسة وإدارة.

ويوصف الحكم بالجاهلية، فيقال: هذا حكم جاهلي، إذا لم يكن مستمداً من شرع الله، وتطبيق حكم الجاهلية والاحتكام إليه والرضا به، كفر يُخرج صاحبه من دين الله.

والجاهلية المذكورة هنا تمثل فيها الجهل، بمعنييه المعروفين: الجهل المقابل للعلم، والجهل بمعنى السفه والخفة والهوى.

فجاهلية الحكم هي: الجاهلية الجهلاء، التي لا تقوم على العلم، والتي هي تمثيل وانعكاس للسفه والخفة والطيش.

والجاهليون في الحكم الجاهلي، هم الذين يتحركون بخفة وسفاهة وطيش.

المطلب الثالث
سورة الأحزاب: الجاهلية بمعنى خلق وسلوك وتبرج

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه الآيات ضمن سياق تنظيم المجتمع الإسلامي على أسس اجتماعية وأخلاقية فاضلة، وذلك بإرشاد المسلمين – رجالاً ونساءً – إلى الفضائل الأخلاقية، وتحذيرهم من الرذائل والنقائص الاجتماعية، التي تقود إلى شيوع الفواحش بين أفراده.

تبين هذه الآيات لنساء النبي ﷺ أنهن لسن كباقي النساء، لأنهن تحت عصمة أشرف الخلق ﷺ، ولذلك لا بد أن يرتفعن إلى هذه المنزلة السامية.

وتقدم الآيات لهن مجموعة من التوجيهات، في صورة أوامر ومنهيات، وهذه التوجيهات ليست محصورة فيهن، ولكنها موجهة لكل المسلمات في أي زمان ومكان.

الأوامر في هذه الآيات هي:

١- القول المعروف، والنطق الحسن، والكلام الهادف القاصد: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ .

٢- الاستقرار في البيوت، وعدم الخروج منها إلا لضرورة أو حاجة أو لقصد وغاية، أما التسكع في الطرقات، والتمايل في الخطوات، وتسريح النظرات، فهذا لا يتفق مع طبيعة المرأة المسلمة الملتزمة صاحبة الرسالة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ .

٣- إقامة الصلاة: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤- إيتاء الزكاة: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥- طاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

٦- تذكُّر آيات الله وأحكامه، واستحضار معانيها، ليكون أدعى إلى الالتزام الصادق بها: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ .

أما النواهي في الآيات فهي:

١- عدم الخضوع بالقول أمام الرجال، وذلك بعدم التكلم مع الرجل بتكسر ودلال وغنج وترقيق، وعدم إخراج الألفاظ الرقيقة اللينة، بطريقة مغرية، ولهجة داعية، وعدم إتباعها بضحكة أو حركة أو نظرة أو تمايل أو إشارة، تزيد الأمر خضوعاً وإغراءً، والسبب في هذا النهي هو عدم إطماع الرجل الذي أمامها، فإن كان فيه مرض شهوة أو استسلام لنزوة، فإنه يطمع في التي أمامه، ويراها قريبة المنال، لكلامها وحركاتها، وبذلك يتحرش بها: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ .

٢- عدم التبرج والتعطر، وإظهار الزينة أمام الرجال، وكشف العورة والمفاتن لهم: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ .

والوقفة الآن أمام معنى التبرج، وإضافته إلى الجاهلية، ووصفها بأنها هي الجاهلية الأولى.

«التبرج» مشتق من «بَرْج».

قال ابن فارس في أصل معنى «بَرْج»: يُستعمل في أصلين:

أحدهما: البروز والظهور. ومنه «البَرْج» وهو سعة العين، في شدة سواد سوادها وشدة بياض بياضها.

والثاني: الملجأ. ومنه «بُروج» السماء. وأصل البروج الحصون والقصور. ومن الأول التبرج، وهو إظهار المرأة محاسنها[1].

وقال الإمام الراغب عن التبرج: «وثوب مُبرّج صُوِّرت عليه بروج، فاعتُبر حسنه، فقيل: تبرّجت المرأة، أي: تشبّهت به في إظهار المحاسن. وقيل: ظهرت من برجها، أي: قصرها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠]، والبَرْج: سعة العين وحُسْنها، تشبيهاً بالبُرْج في الأمرين»[2].

فالتبرج عند المرأة هو: خروجها من بيتها إلى الخارج، متزينةً متعطرة، وبذلك تبرز وتظهر زينتها، وتسفر عن جمالها المستور، وتدعو الرجال إلى النظر إليها، وتفتنهم وتوقعهم في شباكها.

وهذا التبرج حرام، لورود النهي الصريح عنه في هذه الآية: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى..».

وفي الآية توجيه النساء إلى الأمر الإيجابي وهو الاستقرار في البيوت: «وقرن في بيوتكن» ونهي عن ضدِّه ونقيضه، وهو التبرج وإظهار الزينة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾».

---

(١) مقاييس اللغة، طبعة دار الفكر: ١٣٠.

(٢) المفردات للراغب: ١١٥.

وهذا معناه أن المرأة إما أن تستقر في بيتها، مع طهارتها وعفتها، فإن خرجت خرجت ملتزمة بتوجيهات وآداب الإسلام، فهي مؤمنة صالحة تقية، وإما أن تخرج إلى الخارج متبرجة، متعطرة متزينة، مُظهرة لمحاسنها، كاشفة عن مفاتنها، فهي عاصية آثمة، مخالفة لتوجيهات الإسلام، مقلدة للنساء الكافرات الجاهليات، اللواتي كن يتبرجن في الجاهلية الأولى.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أضيف التبرج إلى الجاهلية: «تبرج الجاهلية».

وفيها كلمة مقدرة، مفهومة من السياق. والتقدير: ولا تبرجن تبرج نساء الجاهلية الأولى.

وقدّرنا الكلمة «نساء»، لأن الجاهلية لا تتبرج - فهي أمر معنوي - وإنما تتبرج نساؤها. ووُصفت الجاهلية بأنها الأولى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ .

وهي الجاهلية السابقة على نزول هذه الآية.

ولعلماء التأويل أقوال في المراد بالجاهلية الأولى، وفي دلالتها، نعرض بعضها، ثم نختار الراجح منها:

قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير»:

«قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ : قال أبو عبيدة: التبرج أن يبرزن محاسنهن.

وقال الزجاج: التبرج: إظهار الزينة، وما تستدعى به شهوة الرجل.

وفي ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنها كانت بين إدريس ونوح. رواه عكرمة عن ابن عباس.

الثاني: أنها كانت على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو قول عائشة.

الثالث: أنها كانت بين آدم ونوح. قاله الحَكَم.

الرابع: أنها ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام. وهو قول الشعبي.

وفي صفة تبرج الجاهلية الأولى ستة أقوال:

أحدها: أن المرأة كانت تخرج فتمشي بين الرجال، وهو قول مجاهد.

الثاني: أنها كانت تمشي مشية فيها تكسّر وتغنّج. وهو قول قتادة.

الثالث: أنها كانت تتبختر في مشيتها. وهو قول ابن أبي نجيح.

الرابع: أنها كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ، ليس عليها غيره، ثم تمشي في الطريق، وذلك في زمن إبراهيم عليه السلام، وهو قول الكلبي.

الخامس: أنها كانت تضع الخمار على رأسها ولا تشده، فيُرى قرطها وقلائدها وهو قول مقاتل.

السادس: أنها كانت تلبس الثياب لا تواري جسدها، وهو قول الفراء»[1].

ومعظم هذه الأقوال يمكن الجمع بينها.

فالراجح أن تبرج نساء الجاهلية الأولى كان في إظهار محاسنهن ومفاتنهن وزينتهن وعورتهن، عندما يخرجن من بيوتهن، ويلتقين بالرجال، والأقوال الستة المذكورة تصلح أن تكون أمثلة ونماذج لتبرجهن، وقد يكون تبرجهن ببعض ما ذُكر في تلك الأقوال، أو بها كلها، أو بها وبأفعال وتصرفات أخرى غيرها، ولا نملك تحديد واحد منها لعدم وجود نصوص صحيحة في تحديده.

والأقوال الأربعة السابقة في تحديد الجاهلية الأولى يمكن الجمع بينها أيضاً. فتكون من باب التمثيل.

إن الجاهلية الأولى هي الفترة السابقة على الإسلام، وهذه الفترة ممتدة من آدم إلى محمد ﷺ، وتشمل تصرفات النساء الجاهليات على مختلف القرون والأجيال، التصرفات الجاهلية المخالفة لمنهاج الله وشرعه، الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، تلك التصرفات السلوكية المنحرفة، الداعية إلى الفتنة والإغراء والشهوات.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٦:٣٧٩-٣٨١ باختصار.

ولعلماء التأويل رأيان في مفهوم ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ :

١- ذهب بعضهم إلى أن «الأولى» لا يستلزم وجود جاهلية ثانية.

فقال الزجاج: إنما قيل: «الأولى» لأن كل متقدم أول، وكل متقدمة أولى. فتأويل ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ : أنهم تقدموا أمة محمد ﷺ[1].

٢- وذهب آخرون إلى أن وصف الجاهلية السابقة على الإسلام بأنها جاهلية أولى، يستلزم وجود جاهلية ثانية بعد الإسلام.

قال عمر بن الخطاب لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أرأيت قول الله لأزواج النبي ﷺ : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هل كانت إلا جاهليةً واحدة؟ .

فقال ابن عباس: وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة؟ .

فقال عمر: لله درُّك يا ابن عباس كيف قلت؟

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين: هل كانت من أولى إلا ولها آخرة

قال عمر: فأتِ بتصديق ما تقول من كتاب الله.

قال ابن عباس: نعم. هو في قول الله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨] فإن معناه: جاهدوا في الله حق جهاده، كما جاهدتم أول مرة! .

قال عمر: فمَن أُمِرَ بالجهاد في هذه الآية؟

قال ابن عباس: قبيلتان من قريش، هما: بنو مخزوم، وبنو عبد شمس.

قال عمر: صدقت[2].

يتبين لنا من هذا الحوار العلمي بين عمر وابن عباس رضي الله عنهما، أن الجاهلية، ليست خاصة بالفترة السابقة على الإسلام، وأنها قد تعود مرةً ثانية.

---

(١) المرجع السابق، ٦: ٣٨٠.

(٢) جامع البيان للطبري، ١٢: ٥.

والراجح هو القول الثاني، فوجود الجاهلية الأولى يستلزم وجود جاهلية ثانية. فبعد أن ارتقى الإسلام بالنساء، وسما بهنَّ عن تصرفات النساء الجاهليات في الجاهلية الأولى، ونهاهنّ عن السفور والتبرج والاختلاط، فإن النساء الآتيات بعد قرون من عصر النبوة، سوف ينتكسن مرةً ثانية، ويهبطن إلى مستنقع الجاهلية الآسن، ويعدن إلى الفتنة والإغراء، والتبرج والاختلاط، وبهذا يقلدن نساء الجاهلية الأولى، وعندها يكنّ في جاهلية ثانية.

ولهذا يقول سيد قطب في تفسير الآية: «ويشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية، فيوحي بأن هذا التبرج من مخلفات الجاهلية، التي يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية، وارتفعت تصوراته ومثله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومثلها ومشاعرها.

والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان، إنما هي حالة اجتماعية معينة، ذا تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الحالة، وأن يوجد التصور، في أي زمان ومكان، فيكون دليلاً على الجاهلية حيث كان.

وبهذا المقياس نجد أننا نعيش الآن فترة جاهلية عمياء، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين..»[1].

إن الناس عندما يتصرفون التصرفات الشائنة المحرمة في الإسلام إنما يرتكسون وينتكسون في الجاهلية، ويعودون إلى الجاهلية الأولى، الجاهلية المتخلفة الآسنة، التي خلصهم منها الإسلام، وارتفع بها إلى عالم الطهر والعفاف.

إن النساء الجاهليات في هذا العصر، يعشن حياةً خاصة، تقوم على التبرج والاختلاط، والفتنة والإغراء، والفواحش والشهوات. وهنّ يزعمن أن هذا هو الغاية في التمدن والتحضر و«التقدمية».

وما درت هؤلاء النسوة الجاهليات أن تصرفاتهن ما هي إلا «رجعية» وارتكاس، وانحطاط وانحدار، وتراجع إلى الخلف، إلى قرون عديدة مديدة، وعودة إلى حياة البدائية حيث ممارسات النساء الجاهليات في الجاهلية الأولى !! .

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٦١.

والخلاصة التي نخرج بها بعد هذه الجولة:

قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ نهي للنساء المؤمنات عن التشبه بنساء الجاهلية الأولى، في التبرج والسفور.

وهذا يدل على أن ممارسات الجاهلية الأولى قد تعود مرةً ثانية، وأن النساء قد يعشن في جاهلية ثانية، بعد انقضاء قرون على الجاهلية الأولى، التي خلصهنّ منها الإسلام، وعندها يكنّ في رجعية وتخلف وبدائية.

والجاهلية هنا جاهلية خلق وسلوك وتصرف، جاهلية تتمثل في التبرج والسفور، والتعطر والتزين، والاختلاط والإغراء.

وهذه الجاهلية تصرفات قائمة على الجهل، والجهل هو نقيض الحلم والرشد والاتزان، وهو بمعنى الخفة والطيش والسفاهة.

وهذا معناه أن كل امرأة متبرجة سافرة، فهي امرأة جاهلية في هذا التصرف، تقتدي بنساء الجاهلية الأولى، وهي طائشة سفيهة، وهي مرتكسة بدائية رجعية!! .

المطلب الرابع
سورة الفتح: الجاهلية بمعنى حمية وعصبية

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٤-٢٦].

هذه الآيات من سورة الفتح، التي نزلت في أعقاب صلح «الحديبية» الذي عقده الرسول ﷺ مع قريش في السنة السادسة من الهجرة.

وتتكلم هذه الآيات عن حكمة الله في عدم نشوب القتال بين قريش الكفار وبين المسلمين، لما منعت قريش الرسول ﷺ من دخول مكة معتمراً، وفي تقديره عقد صلح الحديبية بين الفريقين.

إن الله لم يُرد نشوب القتال بينهما بسبب وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات في مكة، مستخفين بإيمانهم، لا يعرفهم المسلمون، فلو وقع القتال مع الكفار، فقد يقتل المسلمون بعض إخوانهم المستخفين خطأً، وبذلك يندمون، ولو انفصل هؤلاء المؤمنون عن مجموع الكافرين لأنشب الله القتال، وعذّب الكفار على أيدي المؤمنين عذاباً أليماً.

فالكفار يستحقون القتل، لأنهم كفروا بالله أولاً، وصدّوا الرسول ﷺ والمسلمين عن دخول المسجد الحرام معتمرين، وهي أول مرة يفعلونها، وبذلك منعوا هَدْيَ العمرة الذي مع المسلمين من الوصول إلى المناسك، ليُذبح فيها.

هذا هو معنى قوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

أما الآية الثالثة في هذه المجموعة – وفيها الشاهد على ما نريد – فإنها تعلل الحدث، وتبين السبب الذي دفع الكفار إلى هذا التصرف الغريب، إنه «حمية الجاهلية» التي جعلوها في قلوبهم: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ .

وبينما كانت حمية الجاهلية تستفز الكفار، وتدعوهم إلى تلك التصرفات الهوجاء المستنكرة، كانت السكينة تملأ قلوب المؤمنين، وتدفعهم إلى الهدوء والطمأنينة: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾ .

وحتى ندرك مدى تعمق «حمية الجاهلية» في قلوب الكفار، التي دفعتهم إلى موقفهم المستهجن ضد المسلمين، نورد رواية صحيحة موجزة عن بعض ما جرى في «الحديبية»، قبيل عقد الصلح.

روى البخاري في كتاب الشروط عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ومروان بن الحكم خروج الرسول ﷺ مع المسلمين إلى مكة للعمرة، ومن روايتهما نأخذ هذه المقتطفات:

«... ثم قال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها..».

«وقال بديل بن وَرْقاء الخزاعي لرسول الله ﷺ : ... وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ : «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين. وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويُخلوا بيني وبين الناس. فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جَمّوا (أي: إن أهلك استراحوا مني)، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولَيُنفذنّ الله أمره».

فذهب بديل بن وَرْقاء إلى قريش، وأبلغهم ما قاله الرسول ﷺ .

فقام عروة بن مسعود، وقال لقريش: إن محمداً قد عرض عليكم خطة رشد، اقبلوها، ودعوني آته.

قالوا: ائته.

فأتى عروة بن مسعود الرسول ﷺ ، وجرى بينهما كلام كثير، تدخل فيه أبو بكر الصديق والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما.

ولما عاد عروة إلى قريش، قال لهم: والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، ووالله ما رأيت مليكاً قط يُعظمه أصحابه كما يُعظم أصحاب محمد محمداً.. وإنه عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها».

«.. ثم جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال لقومه: قد سَهُلَ لكم أمركم.. وبعد مفاوضات بين سهيل بن عمرو وبين الرسول ﷺ ، اتفقا على إجراء الصلح بينهما..».

«ثم قال سهيل: اكتب بيننا وبينكم كتاباً.

فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي. ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ : اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال ﷺ : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ...

فقال سهيل بن عمرو: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني. اكتب: محمد بن عبدالله».

«... ثم قال النبي ﷺ : على أن تخلوا بينا وبين البيت، فنطوف به.

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل.. وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ .

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يُرْسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ.

فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد.

قال سهيل: فهو الله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

قال النبي ﷺ : فأجِزْهُ لي.

قال سهيل: ما أنا بمجيزه لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين: أردُّ إلى المشركين، وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله..»[1].

من هذه الرواية الصحيحة نقف على أبعاد «حمية الجاهلية» التي حملت قريشاً، ومندوبها في المفاوضات سهيل بن عمرو على صدّ الرسول ﷺ وأصحابه عن دخول البيت الحرام.

ولذلك أورد الإمام البخاري في آخر حديثه السابق: فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ .

قال البخاري: «وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت»[2].

وبهذا يكون البخاري قد سجل ثلاثة مظاهر لحمية الجاهلية التي كانت في قلب سهيل بن عمرو يومها وقلوب المشركين:

١- لم يعترفوا أن محمداً هو رسول الله ﷺ، مع تواتر الأدلة عليه.

٢- لم يشأ سهيل أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، وإنما كتب: باسمك اللهم.

٣- أصروا على منع الرسول ﷺ وأصحابه من دخول البيت هذا العام، لئلا تقول قبائل العرب: إنه دخل مكة رغم أنف قريش، بذلك تضعف هيبتهم..

قال الراغب الأصفهاني في معنى الحمية: «الحَمْي: الحرارة المتولدة من الجواهر المحمية، كالنار والشمس، ومن القوة الحارة في البدن.. وعبّر عن القوة الغضبية إذا ثارت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط برقم: ٢٧٣١، وأخذنا من رواية البخاري ما يتعلق بالموضوع باختصار وتصرف في بعض الكلمات.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط برقم: ٢٧٣١، وأخذنا من رواية البخاري ما يتعلق بالموضوع باختصار وتصرف في بعض الكلمات.

وكثرت بالحمية. فقيل: حميت على فلان، أي: غضبتُ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾»[1].

ومن أجود ما قرأت لمفسرين في تفسير هذه الآية، كلام الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» وسآخذ مقتطفات من كلامه:

قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ظرف متعلق بفعل «وصدوكم» السابق، في قوله: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: صدّوكم صدّاً لا عذر لهم فيه، ولا داعي إليه، إلا حمية الجاهلية، وإلا فإن المؤمنين جاؤوا مسالمين، معظِّمين حرمة البيت الحرام، سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم، فليس من الرشد أن يُمنعوا عن العمرة، ولكن حمية الجاهلية غطت على عقولهم، فصمموا على منع المسلمين.

ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة، على أن يرجع المسلمون هذا العام، وعلى أن يمكنهم المشركون من العمرة في العام القادم.

إن العامين سواء عند الكفار، ولكنهم أرادوا التشفي، لما في قلوبهم من الحقد على المسلمين.

فكان تعليق هذا الظرف «إذ جعل الذين كفروا» بفعل «وصدوكم» مشعراً بتعليل الصد، بكونه حمية الجاهلية، ليفيد أن الحمية متمكنة منهم، تظهر فيهم آثارها، ومنها صدّهم عن المسجد الحرام.

والحمية الأنفة، أي: «الاستنكاف من أمر، لأنه يراه غضاضة عليه، وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له، فإن كان له موجب فهو إباء الضيم! ولما كان صدّهم الناس عن زيارة البيت بلا حق – لأن البيت بيت الله لا بيتهم – كان داعي المنع مجرد الحمية.

(١) المفردات للراغب: ٢٥٨-٢٥٩.

وقوله: «حمية الجاهلية» عطف بيان للحمية: «في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية». قُصِد من إجماله ثم تفصيله تقرير مدلوله وتأكيده، وهذا لا يحصل فيما لو قال: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية.

وإضافة الحمية إلى الجاهلية «حمية الجاهلية» لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية، وهذا انتساب ذم في القرآن، كما في قوله: «يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية»، وقوله: «أفحكم الجاهلية يبغون؟».

وبعكس ذلك إضافة السكينة إلى الضمير العائد على الله: «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» فإنها إضافة تشريف، لأن السكينة من الأخلاق الفاضلة، فهي هبة إلهية.

وتفريع قوله: «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» على قوله: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية» يؤذن بأن الذين آمنوا ودّوا أن يقاتلوا المشركين، وأن يدخلوا مكة للعمرة عنوة، غاضبين من الكفار لصدّهم عنها، ولكن الله أنزل عليهم السكينة.

والمراد بالسكينة: الثبات والأناة، أي: جعل في قلوبهم التأني، وصرف العجلة، فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام، فقابلوا الحمية بالتعقل والتثبت، فكان في ذلك خير كثير.

وفي هذه الآية من النكت المعنوية:

مقابلة «جَعَلَ» بفعل «أَنْزَلَ» في قوله: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية» وقوله: «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين»، فدلّ على شرف السكينة على الحمية، لأن الإنزال تخييل للرفعة.

ومنها إضافة الحمية إلى الجاهلية، وإضافة السكينة إلى اسم الله ذاته..

وعطف على إنزال الله سكينته «ألزمهم كلمة التقوى»، أي: جعل كلمة التقوى لازمة لهم، لا يفارقونها... »[1].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢٦:١٩٣-١٩٥ باختصار وتصرف يسير.

وأختم هذه النقول في تفسير الآية بكلام لسيد قطب رحمه الله:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ حمية لا لعقيدة ولا لمنهج، إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت. الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدْي الذي ساقوه، أن يبلغ محلّه الذي يُنحر فيه.. مخالفين بذلك عن كل عرف وكل عقيدة، كي لا تقول العرب: إنه دخلها عليهم عنوة.. ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين، وينتهكون حرمة البيت الحرام، الذي يعيشون على حساب قداسته، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم، التي لم تُنتهك في جاهلية ولا إسلام، وهي الحمية التي بدت في تجبيههم لكل من أشار عليهم – أول الأمر – بخطة مسالمة، وعابَ عليهم صدّ محمد ومن معه عن بيت الله الحرام.. وهي كذلك التي تبدت في ردّ سهيل بن عمرو لاسم «الرحمن الرحيم» ولصفة رسول الله ﷺ في أثناء الكتابة.. وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق.

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له. أما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية، وأحلّ محلها السكينة والتقوى.. »[1].

وعندما ننظر في تعبير الآية عن عصبية وتعنت الكفار بحمية الجاهلية: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ فسوف ندرك قوة وتعمق هذه العصبية في قلوبهم.

و«الحمية» مشتقة من «الحَمْي» كما مرّ معنا، وهو الحرارة الشديدة العالية المرتفعة، كما تقول: أحميت النار، فحميت، حتى صارت حامية، أي: شديدة الحرارة.

فلما تعنت كفار قريش وتعصّبوا، وأصروا على منع الرسول ﷺ ومن معه من دخول البيت الحرام، كانت «جاهليتهم» هي التي تقف وراء ذلك المنع، وهي التي تدفعهم إلى

---

(١) في ظلال القرآن، ٦:٣٣٢٩.

مزيد من التعنت والتعصب، وكلما قدم لهم الرسول ﷺ خطة لامتصاص حميتهم وتعنتهم، كانوا يرفضونها، ويزدادون تعنتاً وتجبراً.

وإضافة الحمية إلى الجاهلية: «حمية الجاهلية» كأن الجاهلية موقد أو مرجل، مشتعل بالنار، وكأن الكفار فوق هذا المرجل أو الموقد المشتعل، وهم يحمون وترتفع حرارتهم، وكلما زاد موقد «الجاهلية» الذي في قلوبهم اشتعالاً، زادت حميتهم، وارتفعت حرارتهم، وازدادوا توتراً وتعنتاً وعجرفة وغطرسة، وازدادت أعصابهم توتراً وتشنجاً، وازدادوا رفضاً وتجبراً.

هذا التوتر والتعصب والتشنج عند الكفار، الناتج عن حمية الجاهلية، يقابله السكينة والهدوء، والطمأنينة والتقوى، في الجانب الإسلامي المقابل، جانب رسول الله ﷺ وأصحابه: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها...».

وفي «الجاهلية» يتحقق المعنيان المعروفان للجهل.

يتحقق فيها الجهل، بمعنى عدم العلم، فهم جاهليون جاهلون، لا يعملون الحق، ولذلك كفروا بالله، وحاربوا رسوله ودينه.

ويتحقق فيها الجهل بمعنى عدم الحلم والرشد والاتزان، فهم جاهليون جاهلون، سفهاء طائشون، ولذلك أخذتهم «حمية الجاهلية»، فزادت تعنتهم وسفههم وطيشهم، ورفعت حرارة ودرجة تكبرهم وتجبرهم، وجعلتهم يُقدمون على أكبر جريمة، ويرتكبونها لأول مرة في حياتهم، فلم يسبق لهم أن منعوا أحداً من زيارة بيت الله الحرام، حتى لو كان أعدى أعدائهم، فلماذا يمنعون الآن الرسول ﷺ وأصحابه عن دخول مكة؟ .

لو لم يكونوا جاهلين سفهاء لما فعلوا ذلك، ولو لم يكونوا متعصبين جاهلين لما فعلوا ذلك! .

والحمية خلق مذموم، لا يصدر إلا عن الجاهليين، ولذلك قرنت بالجاهلية في القرآن! .

المطلب الخامس

خلاص الجولة مع الجاهلية في القرآن

في ختام الجولة مع «الجاهلية» في السياق القرآني، نقف لنستخلص بعض اللطائف والدلالات من ذلك.

١- الجاهلية: مصطلح قرآني، فهو لم يرد في الشعر ولا في التعبير العربي الجاهلي، قبل نزول القرآن مع أن مادة «جهل» واشتقاقاتها قد وردت في الشعر الجاهلي.

فمصطلح «الجاهلية» من مبتكرات القرآن التي استعملها لأول مرة، ثم شاعت في الاستعمال البشري بعد ذلك، حيث وردت في أحاديث النبي ﷺ، وفي كلام أصحابه، وفي كلام العلماء والباحثين بعد ذلك.

٢- لم يرد مصطلح «الجاهلية» في القرآن المكي، وإنما ورد أربع مرات، في أربع سور مدنية، وهي سور: آل عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح.

ولعل ورود هذا المصلح في القرآن المدني فقط، إنما هو بسبب اكتمال التشريعات والأحكام في القرآن المدني، ووضوح المعسكرات المعادية للإسلام في المدينة، من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين، وتوضيح الأفكار والتصورات والمبادئ الباطلة المخالفة للإسلام ونقضها، ومحاربة الممارسات والسلوكيات المخالف للإسلام.. إن هذا كله لم يكتمل إلا في القرآن المدني، والجاهلية هي كل هذه الأشياء والأفكار والتصورات المخالفة للإسلام.

ولعله لأجل هذا لم يستخدم القرآن المكي مصطلح الجاهلية، وإنما استخدمه القرآن المدني.

٣- «الجاهلية» صيغة مأخوذة من «الجاهل» وليس من «الجهل».

نقول: جهل يجهلُ جَهْلاً، والمسألة جَهْلِيّة، والموضوع جهليّ.

ونقول: جهِلَ، يجهلُ، فهو جاهِل، وتصرُّفُه جاهليّ، لأن فيه خصلةً جاهلية.

فالجاهلية ملحوظ فيها أمران: اسم الفاعل: جاهل، والنسبة إليه: جاهليّ.

وارتباط الجاهلية باسم الفاعل «جاهل» وليس بالمصدر «جهل»، دليل على أنه يُنظر في الجاهلية إلى أصحابها وأشخاصها وأهلها، إلى الناس الجاهليين الذين يحملون الأفكار والتصورات والنظريات الجاهلية، أو الذين يقومون بالممارسات والتصرفات الجاهلية.

وإذا كان يُنظر في الجاهلية إلى اسم الفاعل: جاهل، فإنه يُنظر في مقابلها الإيجابي إلى اسم الفاعل أيضاً. تقول: عالِم، عالِمِيّ، عالِمِيّة، وتقول: راشِد، راشِديّ، راشديّة. وتقول: حاكِم، حاكِميّ، حاكميّة.

٤- وردت الجاهلية في القرآن أربع مرات، وفي كل مرة وردت بمعنى جديد.

فالجاهلية في سورة آل عمران: جاهلية ظن وسوء اعتقاد: «يظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية».

والجاهلية في سورة المائدة: جاهلية حكم وتشريع: «أفحكم الجاهلية يبغون؟».

والجاهلية في سورة الأحزاب: جاهلية تبرج وسلوك: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

والجاهلية في سورة الفتح: جاهلية حمية وارتباط وانتماء: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية».

٥- وورود الجاهلية في كل مرة بمعنى جديد أعطاها سعةً وشمولاً في المجالات والأبعاد، فذكر القرآن أربعة جوانب قد تكون فيها الجاهلية، وهذه الجوانب تتوزع رقعة واسعة من حياة الناس في أي زمان ومكان.

فالجاهلية قد تكون في العقائد والأفكار والتصورات والمبادئ كما في سورة آل عمران، والجاهلية قد تكون في الأنظمة والتشريعات والقوانين كما في سورة المائدة، والجاهلية قد تكون في العادات والتقاليد الاجتماعية، وفي الملابس والأزياء، وفي العلاقات بين الجنسين، كما في سورة الأحزاب، والجاهلية قد تكون في الولاءات والانتماءات والأواصر والصلات السياسية والإقليمية والوطنية والقومية والحزبية والتنظيمية، كما في سورة الفتح.

إن هذه الجوانب تشمل مساحة كبيرة في حياة الناس في أي زمان ومكان.

٦- «الجاهلية» في المرات الأربعة في القرآن واردة في سياق الذم، الذم لها ولأصحابها، وتنفير المسلمين منها ومن أصحابها.

وقد قدم القرآن للمسلمين في تلك المرات كلها البديل الإيجابي العظيم.

فلما كرّههم في «ظن الجاهلية» الباطل الذي عليه المنافقون، في سورة آل عمران، قدم لهم «اليقين الإيماني» العظيم، الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في معركة أحد.

ولما كرّههم في «حكم الجاهلية» الذي عليه اليهود والنصارى في سورة المائدة، قدم لهم البديل العظيم، وهو «حكم الله».

ولما نهى المؤمنات عن «تبرج الجاهلية الأولى» في سورة الأحزاب، دعاهنّ إلى الاستقرار في البيوت وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.

ولما ذمّ كفار قريش لأنهم جعلوا في قلوبهم «حمية الجاهلية» مدح الصحابة لأن الله أنزل عليهم سكينته، وألزمهم كلمة التقوى.

٧- «الجاهلية» في المرات الأربعة وصف لأمور صادرة عن كفار، وليست صادرة عن مسلمين صالحين، ولا مسلمين عصاة: فظنّ الجاهلية في سورة آل عمران صادر عن منافقين كفار، وحكم الجاهلية في سورة المائدة صادر عن أهل الكتاب الكفار، وتبرج الجاهلية في سورة الأحزاب صادر عن نساء متبرجات كافرات، كنّ يعشن في الجاهلية الأولى، وحمية الجاهلية في سورة الفتح صادرة عن كفار قريش.

وإذا ما صدرت تلك التصرفات المنكرة عن مسلمين عصاة، فهذا دليل على ضعف إيمانهم، ونقص تربيتهم، وتأثرهم بالجاهليين الكفار، في تلك الجاهلية.

٨- وصف الجاهلية بالأولى في سورة الأحزاب: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية لأولى» يدل على أنها قد تعود مرة ثانية بعد الإسلام.

صحيح أن الإسلام قد قضى على «الجاهلية الأولى» في الجوانب الأربعة التي ذكرها القرآن، لكن الناس المسلمين قد يرتكسون، والبشرية قد تنتكس، ويعودون للجاهلية من

جديد، فيعيشون الجاهلية الثانية والثالثة والرابعة، وذلك عندما يبتعدون عن منهاج الله، إن كل ابتعاد عن منهاج الله وشرعه في أي زمان ومكان فهو جاهلية.

ولهذا نعيش نحن الآن «جاهلية القرن العشرين» في كافة مجالات الحياة!! .

الفصل الثاني

النموذج الثاني

تفسير موضوعي لموضوع قرآني
الشورى في القرآن

الشورى في القرآن

مقدمة:

«الشورى» موضوع من موضوعات القرآن، عرضته آيات القرآن وتحدثت عنه، إما باللفظ الصريح «شورى»، وإما بألفاظ أخرى قريبة منه.

بل لقد أُطلق هذا المصطلح على إحدى سور القرآن، وهي سورة «الشورى» المكية، وهذا مما يؤكد لنا أهمية هذا الموضوع القرآني.

وبما أن القرآن تحدث عن الشورى، فيمكن بحث الموضوع على أسس وخطوات التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، التي عرضناها في القسم الأول من هذه الدراسة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن مسألة «الشورى» مسألة ضرورية في الحياة، الحياة الفردية والحياة الجماعية، الحياة العامة والحياة الخاصة، في الزمن القديم وفي العصر الحاضر. وتكاد «الشورى» تدخل في كافة مجالات حياة الناس: ممارسات الإنسان نفسه، حياة الأسرة، في العمل والوظيفة، في الإدارات والشركات والمؤسسات والوزارات، في الاقتصاد والاجتماع، في السياسة والحكم، في التخطيط والتنظيم، وفي الحرب والسلم.. كل هذه المجالات والمرافق والميادين تحتاج إلى الشورى، فهي مسألة حياتية، ومشكلة واقعية معاصرة.

ويعاني الناس معاناة شديدة عندما تغيب الشورى عن مجالات وميادين حياتهم، ويدفعون ثمن غيابها أو تغييبها غالياً، لأن البديل عن الشورى كريه أسود، وهو الاستبداد والظلم والاضطهاد والإفساد.

والشورى غابت أو غُيِّبت عن حياة المسلمين المعاصرة، وحلّ محلها الاستبداد والاضطهاد، وهو الذي يعيشونه صباح مساء.

وابتدع الكافرون وسائل خاصة بهم في تنظيم حياتهم هناك، وبخاصة تنظيم شؤون السياسة والإدارة والحكم، سمّوها «ديمقراطية» نالت بها شعوبهم كثيراً من حقوقها، وضبطت كثيراً أداء الحكام والمسؤولين عندهم، لكنها كانت مستمدة من تصورهم لمناهج الحياة، وهو تصور غربي جاهلي كافر، بعيد عن التصور الإسلامي لمناهج الحياة.

وافتتن بعض المسلمين بالديمقراطية الغربية، وأعجبوا بما حققته شعوب الغرب من مكاسب بسببها، وقارنوا ذلك بما يعانيه المسلمون في أقطارهم من مظالم، فنادوا بالديمقراطية حلاً لمشكلات المسلمين المعاصرة، وبالذات المشكلات السياسية المتعلقة بالحكم والإدارة والمسؤولية، وطالبوا أن تطبق تلك الديمقراطية على الأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين.

وكان هؤلاء المسلمون يجهلون مبادئ وحقائق الإسلام حول الشورى، وحول قيام حياة المسلمين في كافة جوانبها عليها، وبالذات حول ممارسة القادة والحكام شؤون الحكم على أساسها.

كانوا يجهلون الحقائق القرآنية عن الشورى، ويجهلون أحاديث رسول الله ﷺ عن الشورى، ويجهلون تغلغل الشورى في سيرة الرسول ﷺ، وتوفّرها في حياته الخاصة، وفي صلاته مع أهل بيته، وفي صلاته مع أصحابه، وفي حربه ومعاركه وغزواته، ويجهلون ممارسات الخلفاء الراشدين حكمهم على أساس الشورى.

«الشورى» مصطلح إسلامي قرآني خاص بالأمة المسلمة، وهو روح إسلامية تسري في كافة ميادين المسلمين، فتدبّ فيها الحياة الطيبة، وهو نور مبارك ينير حياتهم، وإذا تخلوا عن الشورى، فقد خرجت الروح من حياتهم، وأطفئ النور من وجودهم، وتحولت الحياة إلى موات وجماد قاتل، وعاش المسلمون البؤس والشقاء، في ظلام الاضطهاد والاستبداد.

ولا تصلح الديمقراطية بديلاً للشورى، ولا تسد مسدّها، كما أن الديمقراطية ليست هي الشورى، فبين الشورى الإسلامية والديمقراطية الجاهلية فروق جوهرية جذرية، فروق في البواعث والمنطلقات، وفروق في النظر والتصور، وفروق في التكييف والتقعيد، وفروق في الممارسة والتطبيق، وفروق في الضوابط والقيود، وفروق في النتائج والثمرات، وليس الخلاف بينهما ظاهرياً ولا شكلياً ولا هامشياً ولا ثانوياً، كما قد يظن بعض الذين لا يعلمون، وليس هذا موضع الحديث عن الفروق بينهما[1].

(١) انظر – إن شئت – كتاب مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب.

إننا عندما نقرر أن الديمقراطية بضاعة غربية جاهلية لا تصلح لنا، لا نقبل أن يكون البديل عنها في بلاد المسلمين هو الاستبداد والاستعباد والاضطهاد، فهذا لا يرضى به إنسان حي حر كريم.

إن البديل عن الديمقراطية هو الشورى، كما قررها الإسلام، وإن البديل عن الاضطهاد والاستبداد هو الشورى أيضاً.

وبما أن الشورى مسألة حياتية معاصرة، وقضية حيوية حساسة، يحتاجها المسلمون كما يحتاجون الطعام والشراب، فقد أقبل عليها العلماء والمفكرون والباحثون والكاتبون المعاصرون من المسلمين، وأصدروا حولها العديد من الدراسات والأبحاث والكتب.

من الكتب الإسلامية المعاصرة التي تخصصت ببحث الشورى في الإسلام:

١- الشورى وأثرها في الديمقراطية، للدكتور عبدالحميد الأنصاري.
٢- الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي، لعبدالرحمن عبدالخالق.
٣- الشورى بين النظرية والتطبيق، لقحطان الدوري.
٤- الشورى بين الأصالة والمعاصرة، لعز الدين الخطيب.
٥- نظام الشورى في الإسلام، للدكتور محمود الخالدي.
٦- قاعدة الشورى في مجتمع إسلامي معاصر، لأحمد أبو شنب.
٧- مبدأ الشورى، لإسماعيل بدوي.
٨- الشورى في الإسلام، لحسن هويدي.
٩- نظام الشورى في الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة، لزكريا عبدالمنعم.
١٠- الشورى وقضايا الاجتهاد الجماعي، للدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس.
١١- الشورى سلوك والتزام لمحمود بابللي.
١٢- الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام، لمهدي فضل الله.
١٣- مبدأ الشورى في الإسلام مع المقارنة بمبادئ الديمقراطية الغربية والنظام الماركسي، ليعقوب المليجي.
١٤- ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، لعدنان النحوي.

هذه كتب بحثت في الشورى خاصة، وهناك عشرات الكتب الإسلامية المعاصرة تحدثت عن الشورى أثناء بحثها أنظمة الحكم في الإسلام

وفي الثمانينيات فكّر «المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية – مؤسسة آل البيت» في عمان، بإصدار موسوعة «الشورى في الإسلام» فشكّل لجنة من تسعة أعضاء من العلماء والشيوخ في الأردن لإنجاز المشروع.

قسّمت اللجنة موسوعة «الشورى في الإسلام» إلى أربعة وعشرين بحثاً، واستكتبت أربعة وعشرين عالماً وباحثاً في العالم العربي، وكلفت كل واحد منهم بإنجاز بحثه.

وكنت أحد هؤلاء، وكان بحثي «الشورى في القرآن الكريم»، حيث كتبت لهم البحث، ليكون ضمن المشروع.

وفي عام ١٩٨٩ نشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية تلك الأبحاث في موسوعة «الشورى في الإسلام»، وصدرت الموسوعة في ثلاثة أجزاء. وهي موسوعة كبيرة بحثت معظم المسائل التي تتعلق بالشورى في الإسلام.

وكثرة الدراسات والأبحاث والمؤلفات حول الشورى في الإسلام دليل على أهميتها للمسلمين، وعلى أنها مشكلة واقعية حيوية معاشة، وأنها أمل مشرق يتطلع إليه المسلمون المعاصرون، ليتخصلوا مما يعانونه من ظلم واضطهاد واستبداد.

وقد أحببت أن يكون النموذج التطبيقي الثاني في هذه الدراسة، عن «الشورى في القرآن»، باعتباره نموذجاً للتفسير الموضوعي لموضوع قرآني.

وسيكون بحثي له باعتباره موضوعاً قرآنياً، وليس موضوعاً إسلامياً عاماً، وقد فرّقت في القسم الأول من هذه الدراسة بين ثلاثة موضوعات: الموضوع الإسلامي العام، والدراسة القرآنية العامة، والتفسير الموضوعي للموضوع القرآني.

وسوف أسلك في البحث الخطوات المرحلية التي بيّنتها في القسم الأول من هذه الدراسة إن شاء الله.

المبحث الأول
معنى الشورى في اللغة

أولاً: معنى الشورى عند ابن فارس:

الجذر الثلاثي للشورى هو «شور».

قال ابن فارس في معناه: الشين والواو والراء أصلان مطردان:

الأول: إبداء الشيء وإظهاره وعرضه.

والآخر: أخذ الشيء.

فمن الأول قولهم: شِرْتُ الدابة شُوراً، إذا عرضتها. والمكان الذي تُعرض فيه الدواب هو «المِشْوار».

ومن الثاني قولهم: شِرْتُ العسل أشورُه. والمشار هو: الخلية يُشْتار منها العسل. أي يُؤْخَذُ منها.

وقال بعض أهل اللغة: من هذا الباب قولهم: شاوَرْتُ فلاناً في أمري. وهو مشتقّ من شورِ العسل.

فكأنّ المستشير يأخذ الرأي من غيره..[1].

والأصلان اللذان أوردهما ابن فارس في معنى «شُور» متلازمان، وبينهما مرحلية وتدرج.

المرحلة الأولى: أن يقوم أحد الطرفين بإبداء الشيء وتقديمه وعرضه وإظهاره، بحيث يراه الآخر أو يسمعه، وكأنه يدعو الآخر إلى أخذه.

---

(١) مقاييس اللغة، طبعة دار الفكر: ٥٤١-٥٤٢.

المرحلة الثانية: قبول الطرف الآخر لعرض الطرف الأول، حيث يقوم بأخذه واختياره والرضا به.

وهذان الأصلان وما يحملانه من مرحلية وتلازم يتوفران في عملية الشورى، كما سنبين فيما بعد.

ثانياً: معنى الشورى عند الراغب الأصفهاني:

قال الراغب الأصفهاني عن «شور»:

«الشّوار: ما يبدو من المتاع. ويُكنى به عن الفرج، كما يُكنى به عن المتاع.

وشوَّرْتُ به: فعلتُ به ما خجَّلتُه.

وشِرْتُ العسل: أخرجتُه، وشِرْتُ الدابة: استخرجتُ عدوَه.

والتشاور والمشاورة والمشورة: استخراج الرأي، بمراجعة البعض إلى البعض. من قولك: شِرْتُ العسل: إذا استخرجتُه من موضعه.

والشورى: الأمر الذي يُتشاوَرُ فيه»[1].

ما ذكره الراغب الأصفهاني في معنى «شور» واستعمالاته، يتوفر فيه الأصلان اللذان أوردهما ابن فارس: العرض والأخذ.

وأضاف الراغب على ما قاله ابن فارس معنى التشاور ومعنى الشورى.

وفي عملية التشاور نرى عرض آراء مختلفة، واحد يعرض رأيه، والآخر يسمعه أي يأخذه ويفكر فيه، فيعرض رأيه على الأول، فيأخذه الأول ويفكر فيه، وتتم مراجعة البعض إلى البعض، كما قال الراغب.

والشورى هي الشيء المعروض بين الجالسين، أو هي المسألة أو القضية التي يبحثونها ويتدارسونها ويتشاورون فيها، فكأن كل طرف يعرضها من جهته، فيأخذها

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ٤٦٩-٤٧٠.

الطرف الآخر، ويفكر فيها، ثم يعيدها بدوره إلى الطرف الأول، وهكذا، يستمر العرض والأخذ بين المتشاورين حتى يخرجوا بنتيجة يلتزمون جميعاً فيها! .

ثالثاً: معنى الشورى عند السمين الحلبي:

قال السمين الحلبي – أحمد بن يوسف – عن الشورى:

«الشورى: الأمر الذي يُتشاور فيه. والمصدر: المشاورة والتشاور والمشورة.

والمشورة: استخراج رأي المستشار وما عنده.

وأصل ذلك من: شِرْتُ العسل، أي: استخرجته.

قال ابن الأعرابي: الشورة بضم الشين: الجمال. وبفتح الشين: الخجل.

وفي الحديث أن أبا بكر الصديق ركب فرساً يَشورُهُ. أي: يَعْرضه، ويستخرج ما عنده من الجَرْي.

وفي الحديث أن أبا طلحة الأنصاري كان يَشور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ أي: يعرضُها على القتل..»[1].

يركز السمين الحلبي في كلامه على استخراج ما عند الآخر عندما يُستشار، فلما يُشاور الإنسان آخر، فإنما يطلب منه استخراج ما عنده من آراء، ثم عرضها عليه، وذلك ليأخذها منه إن رآها مناسبة.

فها هو الصديق ﷺ يشور الفرس عندما ركبها، ليعرف مدى قوتها، وكأن الفرس تعرض قوتها عليه، وهو يستخرج القوة منها ليأخذها.

وها هو أبو طلحة الأنصاري ﷺ يشور نفسه أمام النبي ﷺ في معركة أحد، أي: يعرض ويظهر قوته على الجهاد، ويستخرج طاقته في ذلك، ليموت في سبيل الله.

ونلحظ توفر المعاني الثلاثة في الشورى، وهي: العرض، والاستخراج، والأخذ.

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين، ٢:٣٤٩.

رابعاً: معنى الشورى في المعجم الوسيط:

نختم كلامنا عن معنى الشورى في المعاجم السابقة بالتوجه إلى معناها في المعجم الوسيط، الذي وضعته لجنة من الأدباء، وأصدره مجمع اللغة العربية في مصر عام ١٩٦٠.

«شارَ الرجل شَوْراً: حَسُنَ منظرُهُ.

وشارَ الرجلُ الشيءَ: عَرَضَه، ليُبديَ ما فيه من محاسن.

وشارَ الرجلُ الدابة: أجْراها عند البيع، ليُظهر قوّتها.

وشارَ الرجل العسلَ: استخرجهُ من الخلية

وأشار الرجل إلى الآخر بيده أو نحوها: أومأ إليه، معبِّراً عن معنى من المعاني، كالدعوة إلى الدخول أو الخروج.

وأشار الرجل على الآخر بكذا: نصحه بأن يفعل الشيء، متبيناً ما فيه من صواب.

وشاور الرجل الآخر مشاورة وشواراً: طلب رأيه في الشيء. قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ .

وشَوَّرَ إليه بيده: أشار إليه بيده.

واشْتَورَ القوم وتشاوَروا: شاوَرَ بعضهم بعضاً.

واستشارَ الرجلُ: إذا لبسَ شارَةً ولِباساً حسناً.

واستشار الرجل الآخر: إذا شاوَرَه في الأمر.

والإشارة: تعيين الشيء باليد أو نحوها. والتلويح بشيء يُفهم منه المراد.

والشّارة: الجمال الرائع: والهيئة الجميلة، واللباس الحسن.

والشورى: التشاور. قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

والشورى هي الأمر الذي يُتشاور فيه.

والشُّوَرةُ: المخبرُ والمنظر.

والشَّيِّرُ: الحَسَنُ جَميلُ المنظر.

والمستشار: العليم الذي يؤخذ رأيه في أمر هامٍّ، علميٍّ أو فنيٍّ أو سياسي أو قضائي أو نحوه.

والمشار: الخلية يُشار منها العسل.

والمِشْوار: عودٌ يُجمع به العسل. والمكان الذي تُعرض فيه السلعة. والمدى الذي تجري فيه الدابة حين البيع.

واستُعمل المِشْوار في المسافة التي يقطعها الإنسان في سيره.

والمشورة: ما يُنصح به من رأي وغيره»[1].

عندما ننظر في المعنى اللغوي للشورى، وفي استعمالاتها، فإننا نخرج من ذلك ببعض اللطائف والإيحاءات:

١- الشورى تقوم على مرحلتين: لأنها وردت على أصلين صحيحين - كما قال ابن فارس - عرضٌ وأخذ.

في المرحلة الأولى: يعرض المستشار رأيه ويقدمه ويُظهره

وفي المرحلة الثانية: يأخذ المستشير ما عرضه المستشار، ويقبله.

٢- وهذه المرحلية في العرض والأخذ تدلنا على وجوب توفر طرفين في الشورى.

الطرف الأول: هو المستشار الذي يُفكر في المسألة المطروحة، ويقدم رأيه للطرف الآخر، ويعرضه عليه.

الطرف الثاني: هو المستشير الذي يسمع ما عند المستشار، ويقبله ويأخذه.

٣- وغالباً يكون الطرفان مختلفين، العارض والآخذ، أو المستشار والمستشير، وينتج عن ذلك رأيان متعارضان. وإذا كان في المسألة أكثر من مستشار، فسوف يُعرض أكثر من رأي، ويأخذ المستشير من هذه الآراء ما هو أرجح وأنسب.

---

(١) المعجم الوسيط، ١:٤٩٩، بتصرف واختصار.

٤- وحتى تتحقق المرحلتان، ويصح وجود طرفين مختلفين، فلا بد أن يكون موضوع الشورى قابلاً للرد والأخذ، صالحاً لوجود أكثر من رأي، مثل الأمور الاجتهادية التي تخص الأفراد أو الجماعات، والتي يمكن أن تختلف فيه الآراء، وتتعدد فيها الاجتهادات.

أما إذا كان الأمر لا يحتمل الخلاف، وليس فيه إلا رأي واحد، فهذا لا يصلح للشورى، ولا يجوز طرحه على جلسة المستشارين وذلك مثل الأحكام الشرعية القاطعة، التي فيها نصوص محكمة من آيات أو أحاديث.

٥- الشورى هي «استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض» كما قال الإمام الراغب الأصفهاني.

أي أنه لا بد في الشورى من أن تجتمع الأفكار والآراء، وتتكامل وتتناسق، ولا بد من أن يفكر المستشارون في المسألة المطروحة بحرية، وأن يقدموا خلاصة أفكارهم بحرية، ولا يجوز للمستشير – وبخاصة إذا كان مسؤولاً – أن يحجر على رأي معروض، أو أن يُعاقب صاحبه، له أن لا يأخذ بذلك الرأي إن لم يجده مناسباً، أما أن يحاسب صاحبه إذا خالفه، فلا.

٦- المستشار الذي يقدم رأيه لا بد أن يفكر في الموضوع، ويُقلب وجوهه، ويكد ذهنه، ويُعمل عقله، ويشحذ أفكاره، ويبذل في ذلك أقصى جهده وطاقته، ويفعل ذلك بتفاعل وحيوية واهتمام، ثم يختار من نظراته وآرائه الأجود والأفضل والأحسن.

ويفعل ذلك كما يفعل مشتار العسل من الخلية، حيث يأتي خلية النحل، ويستخرج منها أجود ما فيها، وهو العسل الذي فيه شفاء للناس.

٧- عندما يكون المستشارون جماعة، تكون الشورى نتيجة التفكير الجماعي، والاجتهاد الجماعي، وثمرة العقول الواعية الناضجة مجتمعة يقدمون خلاصة أفكارهم، وهي إن هؤلاء المستشارين يقدمون خلاصة أفكارهم وأجود ما عندهم، وأكثره نفعاً وفائدة، ويضعونها هدية بين يدي الحاكم الذي استشارهم.

وهم في ذلك يشابهون «شغّالات النحل» التي تذهب إلى الورود والأزهار، فتأخذ أجود وأحلى وأنفع ما فيها من رحيق وشذى، ثم تصنعه في الخلية، ليكون عسلاً فيه شفاء للناس.

العسل فيه شفاء للناس بنص القرآن، والشورى فيها شفاء للناس، وإذا كان العسل شفاء من أمراض الأجساد، فإن الشورى شفاء من أمراض المجتمع والأمة، وهي أخطر من أمراض الأفراد، الشورى شفاء من الأمراض السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والشورى شفاء من أمراض الظلم والاستبداد والاضطهاد.

٨- الشورى والشارة متلازمان، والشارة هي الهيئة الحسنة، واللباس الحسن، والجمال والأناقة.

وإذا كانت الشارة الحسنة ضرورية لكلم شخص، ليكون جميلاً أنيقاً، مقبولاً عند الآخرين، فإن الشورى هي شارة الأمة المسلمة المعنوية، وهي عنوان جمالها المعنوي، وأناقتها الخارجية.

الشورى لا تكون إلا جميلة، والأمة بالشورى لا تكون إلا جميلة، وأنظمة الحكم عندما تؤسس على الشورى، لا تكون إلا جميلة، حسنة المنظر، جيدة الشارة!!.

المبحث الثاني
الشورى في السياق القرآني

وردت اشتقاقات مادة «شَوْر» في القرآن أربع مرات. مرتين في القرآن المكي، ومرتين في القرآن المدني.

الأولى: «**أشارَتْ**»: الفعل الماضي من الإشارة، حيث أخبر القرآن عن إشارة مريم البتول رضي الله عنها إلى وليدها عيسى عليه السلام ، ليقدم نفسه إلى قومها. قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ [مريم:٢٩-٣٠].

الثانية: «**شورى**»: وهي الاسم من «شارَ»، حيث أخبر القرآن عن تعمق الشورى في حياة المسلمين. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٨].

الثالثة: «**تشاور**»: المصدر من «تشاوَرَ، يَتَشاوَرُ» حيث ورد هذا المصدر في سياق اتفاق الزوجين المتخاصمين على إرضاع ابنهما. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة:٢٣٣].

الرابعة: «**شاوِرْ**»: فعل الأمر من الماضي «شاوَرَ». وورد في القرآن أمراً من الله لرسوله محمد ﷺ ليشاور المسلمين في الأمور. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ونلحظ أن كل مرة من هذه المرات كانت على صيغة غير صيغ المرات الأخرى، فلم تتكرر صيغة في هذه المرات.

«أشارَتْ»: الفعل الماضي من الإشارة. تقول: أشارَ، إشارةً.
«الشورى»: الاسمُ من الفعل «شارَ». تقول: شارَ، شُورى.
«تشاوُر»: المصدر من الماضي «تشاوَرَ». تقول: تشاوَرَ، تشاوُراً.
«شاوِرْ»: الأمر من الماضي «شاوَرَ». تقول: شاوَرَ، يُشاوِرُ، شاوِرْ.

وسوف نقف وقفة تحليلية مع هذه التصريفات الأربعة، لنستخلص بعض الدلالات واللطائف والإيحاءات.

المطلب الأول
الإشارة الحسية من مريم رضي الله عنها

لما غادرت مريم أهلها إلى مكان خاص، واتخذت من دونهم حجاباً، أرسل الله إليها جبريل عليه السلام، متحولاً إلى صورة رجل، وبعدما جرى حوار بينه وبينها، نفخ فيها من روح الله، بأمر من الله، فحملت بعيسى عليه السلام، ثم وضعته، وخاطبها ابنها عيسى فور ولادته بأن لا تكلم أحداً من قومها، وإنما تشير إليه، وهو على حضنها، وسوف يقدم هو نفسه إلى الناس.

وأتت قومها، ونفذت ما قاله وليدها، وقدّم نفسه للناس، وأعلن أنه عبدالله، وأن الله سيبعثه نبياً. وتحدثت عن هذه القصة آيات من سورة مريم وهي آيات: (١٦-٣٤).

في هذا السياق ورد قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٣٠].

لقد أصيب قومها بمجموعة متتابعة من المفاجآت، أوقعتهم بمزيد من الدهشة والاستغراب والتعجب.

فوجئوا أولاً بابنتهم العفيفة قادمة وهي تحمل طفلاً وليداً، ثم فوجئوا بها وهي لا تكلمهم على تساؤلاتهم، لأنها كانت قد صامت عن الكلام، ثم فوجئوا بها وهي تشير إلى

وليدها على حضنها ليكلمهم نيابةً عنها، ويخبرهم حقيقة ما حدث، ويبرئ أمه، واستغربوا: هل يتكلم وليد مضى على ولادته عدة ساعات؟ وكانت المفاجأة الكبيرة المدهشة عندما سمعوا الوليد يتكلم فعلاً، ويقدم نفسه إليهم، ويخبرهم بحقيقة ما جرى.

الشاهد في الآيات قوله: «فأشارت إليه». وكانت إشارتها إلى وليدها جواباً على سؤال قومها: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

والإشارة قريبة من الشورى، ومادتها – الجذر الثلاثي – واحدة، وهي «شَوْر».

والإشارة قد تكون إشارة حسية، باليد أو العين أو غير ذلك، وهذا هو الأصل فيها، وتكون هذه الحركة الحسية تعبيراً عن معنى يريده صاحب الإشارة، كالدعوة إلى الخروج أو الدخول أو السكوت أو الكلام.

وقد تكون الإشارة معنوية، بأن يشير الرجل على آخر بأن يفعل كذا، وهنا تحمل معنى النصيحة والاقتراح وتقديم الرأي، وهذه هي الشورى.

فالإشارة الحسية إشارة كإشارة مريم رضي الله عنها إلى ابنها.

والإشارة المعنوية شورى، حيث يشير الرجل على الآخر بكذا.

وقد بيّن الإمام الكفوي الضابط في التفريق بين الإشارة الحسية والشورى المعنوية.

قال: «الإشارة: التلويح بشيء يُفهم منه النطق. فهي ترادف النطق في فهم المعنى.

والإشارة إذا استُعملت بحرف «على» يكن المراد الإشارة بالرأي، وإذا استعملت بحرف «إلى» يكون المراد الإيماء باليد.

والإشارة عبارة عن أن يشير المتكلم إلى معانٍ كثيرة بكلام قليل، يشبه الإشارة باليد، فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبّر عنها لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة..»[1].

---

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ١٢٠.

أي أن الفعل «أشار» إذا تعدى بحرف الجر «إلى» كان المراد الإشارة الحسية، كإشارة مريم إلى وليدها: «فأشارت إليه».

وإذا تعدى «أشار» بحرف الجر «على» كان المراد الإشارة المعنوية، وهي الشورى والنصيحة. تقول: أشار فلان على فلان بكذا أو كذا. أي: اقترح عليه ونصحه.

وكانت إشارة مريم رضي الله عنها إلى ابنها ليتكلم مع قومها نيابة عنها: وفهم وليدها ابن الساعات إشارتها، وتكلم كلاماً فصيحاً مفهماً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

المطلب الثاني
التشاور بين الزوجين بشأن الطفل

قد يختلف الزوجان ويتخاصمان، وقد يقود هذا الاختلاف إلى الطلاق، وقد يكون لهما أطفال صغار رضّع، فما هو مصير هؤلاء الرّضع بعد الطلاق؟ هل يهملونهم مع حاجتهم لحليب أمهاتهم؟ .

لا بد من أن يجتمع الزوجان المختلفان المتخاصمان، ليتدارسا الأمر، ويتشاورا في إرضاع الأطفال ومصيرهم فإذا اتفقا بعد التشاور على فِطام الطفل بعد السنتين ورضيا بذلك فلا حرج عليهما.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

تقدم لنا هذه الآية مجموعة من الأحكام والتوجيهات القرآنية، بشأن الإرضاع والفطام والأجرة والنفقة، وتحدد العلاقة بين الزوجين المتخاصمين حول هذه المسائل.

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ .

المراد بالوالدات هنا المطلقات، لأن الآية وما قبلها تتحدث عن الطلاق والعدة والمراجعة.

فتقرر الآية حقاً للزوجة المطلقة في إرضاع ابنها حولين كاملين، ولا يجوز لزوجها الذي طلقها أن يحرمها من هذا الحق.

وتحدد الآية أقصى مدة للرضاع بأنها حولان كاملان، ومعلوم مدى أهمية الرّضاع للطفل الرضيع خلال السنتين.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ : إرضاع الطفل حولين كاملين ليس ملزماً للزوجين المطلقين، فهو بيان أقصى مدة للإرضاع، ويجوز لهما أن يُنقصا المدة عن حولين، إذا اتفقا على ذلك، وكانت صحة الطفل تسمح بذلك، فإرضاع الطفل حولين لمن أراد أن يُتمّ الرضاعة.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

المولود له هو والد الطفل الرضيع، لأنه طلق أمّه، والطفل سيصير إليه، فعلى الأب أن يقدم «الرزق» والكسوة والنفقة لمطلقته أثناء إرضاعها لابنه، فكما أنه يجب على المرأة المطلقة إرضاع ابنها، كذلك يجب على أبيه الإنفاق عليها أثناء إرضاعها لابنه.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

إن الأوضاع المادية للأزواج المطلقين تختلف من زوج لآخر، ولذلك يختلف تقدير النفقة لزوجاتهم المطلقات على أساس ذلك، فيتم تقديرها على أساس إيسار الزوج وإعساره، ولا يكلف الله نفساً إلى وسعها.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ .

هذه جملة معترضة في سياق أحكام الرضاع، يلتفت فيها إلى كل من الزوجين ويُنهى كل منهما عن إضرار الآخر، واستغلال حالته وصلته بالطفل الرضيع.

لا يجوز للزوج المطلق أن يستغل عاطفة الأم تجاه ابنها، وحرصها على إرضاعه، فيظلمها ويوقع الضرر بها، ويمنع أو يقلل نفقتها، كما لا يجوز للزوجة أن تستغل حرص الأب على ابنه، فتشتط وتبالغ في طلباتها.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ .

إذا مات الزوج – الأب – أثناء فترة الإرضاع فكل الوجبات التي عليه لمطلقته المرضع تنتقل للوارث، ويجب عليه أداؤها.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ .

الفِصال هو الفطام للرضيع، وسمي فصالاً لأن الطفل ينفصل عن ثدي أمه.

يجيز هذا المقطع من الآية للزوجين المتخاصمين المطلقين فطام طفلهما قبل مضي الحولين الكاملين، إن دعت مصلحة الطفل إلى ذلك، على أن يتم ذلك بعد اتفاقهما.

فعليهما أن يلتقيا، ويتدارسا الأمر، ويتشاورا في الموضوع، ثم يقررا بعد التشاور التراضي فِطام الطفل.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ .

إذا لم يتم الاتفاق بين الزوجين المطلقين على إرضاع الطفل، فلا مانع أن يبحث والد الطفل عن مرضع أخرى، واستئجارها لترضع ابنه، على أن يدفع لها أجرتها مقابل الإرضاع بالمعروف.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

ختمت الآية الأحكام المتعلقة بالإرضاع والأجرة والنفقة بتوجيه الزوجين المتخاصمين إلى تقوى الله، وتذكيرهما بأن الله مطلع عليهما، بصير بأحوالهما، عالم بأعمالهما.

فعليهما أن يلتزما بتلك الأحكام حتى ينالا رضوان الله، وليحذرا المخالفة حتى لا يتعرضا لعذاب الله!! .

التشاور الخاص والعام في الآية:

الشاهد في الآية أن الله قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ .

و«تشاوُر» في الآية مصدر. وفعله الماضي خماسي وهو «تشاوَرَ».

تقول: شار الرجل بكذا، أي: نصح بكذا.

وتقول: شاوَرَ الرجل أخاه بكذا، أي: التقيا وتدارسا، وكلٌّ طلب من الآخر رأيه ومشورَته.

ونقول: تشاوَرَ الرجلان في كذا. إذا تفاعلان مع التشاور أكثر.

التشاور بين الزوجين المتخاصمين يحقق المعنى اللغوي للشورى، وهي العرض والطرح من جانب، والأخذ والقبول من جانب آخر.

والتشاور بينهما بشأن إرضاع الطفل وفطامه، بأن يجلسا ويتكلما، ويتناقشا ويتجادلا، ويقدم كل منهما خلاصة رأيه، وأجود وأفضل وأنفع ما عنده للطرف الآخر، وبعد ذلك يتفق الطرفان على ما فيه مصلحة الطفل، ويخرجان بنتيجة مريحة يرضيانها.

و«تشاوُر» في الآية معطوفة على «تراضٍ». فالشورى تحقق التراضي لكل منهما، والتشاور فيه التراضي.

ووجه ارتباط التشاور بالتراضي أن التشاور يدل على أن لكل منهما شخصية معنوية اعتبارية، وله رأي وكلمة عند الطرف الآخر، فهما جالسان يتحدثان ويتكلمان ويتناقشان ويتجادلان، وكل منهما يشعر بمنزلته ووجوده وشخصيته، وهو يطرح رأيه ويقدم ما عنده.

وبهذه الجلسة التشاورية لا يُغَيَّبُ أحد منهما، ولا يُغفل ولا يُهمّش ولا يُترك، والإنسان لا يرضى أن يكون مهملاً نكرة متروكاً.

أي قرار أو حكم لا يكون بعد التشاور، لا يحقق التراضي، ولو كان قراراً صواباً، لأنه يُلغي اعتبار أو قيمة الطرف الآخر، وأي قرار أو حكم يكون بعد الاتفاق والتشاور يحقق التراضي بين الطرفين: «عن تراضٍ منهما وتشاور».

وهناك حكمة لطيفة نشير إليها وهي: أن الآية تقرر مبدأ التشاور بين الزوجين المتخاصمين بشأن موضوع خاص، وهو إرضاع وفِطام طفل صغير، وذلك لأهمية الشورى في هذه المسألة الفرعية الخاصة، المتعلقة بطفل رضيع.

وهذا يدل على أهمية التشاور بين المسلمين في القضايا والأمور العامة، فإذا كان إرضاع طفل أو فطامه يحتاج إلى تشاور ورضا بين أبويه، فما بالك بأمور المسلمين الكلية العامة الهامة؟

ولهذا كم كان الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله فطِناً وموفقاً عندما لاحظ الربط بين التشاور في المسألة الجزئية بشأن الطفل الرضيع، وبين المسائل العامة عند المسلمين! .

قال في تفسيره لهذه الآية: «إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال تربية الولد، ولا يبيح لأحد والديه الاستبداد بذلك دون الآخر، فهل يبيح لرجل واحد أن يستبدّ بالأمة كلها!؟ - وأمر تربيتها وإقامة العدل فيها أعسر، ورحمة الأمراء أو الملوك دون رحمة الوالدين بالولد وأنقص!!» [(١)].

المطلب الثالث
الشورى من أهم الصفات المميزة للأمة

مما يدل على أهمية الشورى في الإسلام، واهتمام القرآن بها، تسمية سورة من سور القرآن بها، والعجيب أن سورة «الشورى» مكية، وقد جاء وصف المسلمين في تلك السورة بالصفة المميزة لهم، وهي: «وأمرهم شورى بينهم».

جاء وصف المسلمين بأن أمرهم شورى بينهم في هذه السورة المكية، وهم مستضعفون في مكة، وقبل أن يُهاجروا إلى المدينة، وقبل أن يكون لهم دولة وكيان ونظام حكم.

---

(١) تفسير المنار، ٢/ ٤١٤.

وهذا دلالة على أهمية الشورى في حياة المسلمين، وعلى شمولها لكل جوانب حياة المسلمين، وعدم تخصيصها في الجانب السياسي أو الإداري أو الرسمي! .

قال الله عز وجل: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٣٦-٤٣].

ذكرت هذه الآيات مجموعة متناسقة من صفات المؤمنين: «وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة، المختارة لقيادة البشرية، وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، ذكْرها في سورة مكية، وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلاً، جدير بالتأمل، فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية..

ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلاً.. ما هي؟ ما حقيقتها؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً؟ .

إنها: الإيمان. والتوكل. واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والشورى الشاملة، والإنفاق مما رزق الله، والانتصار من البغي، والعفو.. والإصلاح. والصبر..» [1].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ :

هذا من خصائص الجماعة المسلمة، وأبرز صفاتها، وقد ورد هذا في آية من سورة مكية «مما يوحي بأن وَضْعَ الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً

---

(١) في ظلال القرآن، ٥:٣١٦١.

سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة..»[1].

لطائف ودلالات من الآية:

عندما نمعن النظر في سياق قوله عن المؤمنين: «وأمرهم شورى بينهم» فسوف نخرج من ذلك ببعض اللطائف والدلالات. منها:

١- وصف المؤمنين في مكة بأن أمرهم شورى بينهم، وذلك قبل قيام مجتمعهم ودولتهم في المدينة دليل على أهمية الشورى لهم، وشمولها لجوانب حياتهم، وتأصلها صفة أساسية ركينة في كيانهم.

٢- عبّر القرآن عن تعاملهم على أساس الشورى بالجملة الاسمية «وأمرهم شورى بينهم» وهذا تأكيد للنقطة السابقة، ودليل على ثبات حقيقة الشورى ورسوخها واستقرارها عندهم، لأن الجملة الاسمية توحي بهذه المعاني.

٣- الشورى في حياة المسلمين عامة، شاملة لمختلف الميادين والمجالات والموضوعات، ودل على عمومها وشمولها كلمة «أمرهم» فهي نكرة، والتنكير يدل على العموم والشمول.

إن كل أمر يهم المسلمين يتعاملون معه بالشورى، وكل قضية تخصهم يفكرون بها على أساس الشورى، وكل جانب من جوانب حياتهم يعيشونه بالشورى، وكل مشكلة تواجههم يحلّونها على أساس الشورى، وكل أزمة تمر بهم يتجاوزونها بالشورى.

٤- تنكير كلمة «شورى» في الآية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يؤكد النقطة السابقة، ويشير إلى شمولها لكافة المجالات والميادين.

الشورى عند المسلمين في الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والإدارية، والوظيفية، والمحلية، والدولية، والداخلية، والخارجية، والجماعية، والفردية، والأسرية، والشخصية.. أمرهم كله شورى بينهم..

---

(١) المرجع السابق، ٥:٣١٦٠.

٥- وصف المؤمنين بالشورى ورد بين صفتين لهم، كل صفة منها عبادة: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إن الصلاة عبادة، والإنفاق في سبيل الله عبادة، فما حكمة توسط الكلام عن الشورى بين هاتين العبادتين؟ .

لم توضع الشورى بين العبادتين مصادفة، وإنما لهدف مقصود وحكمة مرادة، لعلها الإشارة إلى شمول العبادة في الإسلام لكافة حياة المسلمين، وعدم قصْرها على الشعائر التعبدية كالصلاة والزكاة.

ولعل الحكمة في ذلك، التأكيد على أن «الشورى» عبادة، فكما أن المسلمين يعبدون ربّهم في الصلاة، ويعبدون ربهم بإنفاق المال في سبيل الله، فهم كذلك يعبدون ربهم من خلال إقامة حياتهم ومجتمعهم ونظامهم على الشورى.

٦- عطفت الآية الصفات الثلاثة على صفة للمسلمين قبلها: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . فالصلاة والشورى والزكاة معطوفة على الاستجابة.

وهذا يؤكد أن المسلمين مأمورون من ربهم بالشورى، كما أنهم مأمورون بالصلاة وبالزكاة، فهم عندما يُصَلُّون يستجيبون لربهم، وهم عندما يزكون يستجيبون لربهم، كذلك هم عندما يعيشون بالشورى يكونون مستجيبين لربهم! .

٧- قدمت الآية ممارسة المسلمين للشورى على إيتاء الزكاة، وذكرته بعد إقامتهم للصلاة مباشرة: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

إن من معاني الصلاة وإيحاءاتها المساواة بين المسلمين، فهم يقفون في الصلاة متساوين بدون تمييز ولا تكبر ولا استثناء، وذكر الشورى بعد الصلاة يوحي بهذا المعنى، فكما أنهم يتساوون في الصلاة، فلا بد أن يتساووا في الشورى، ولا يجوز أن يُحرم أحد من حقه في الشورى، لأنه لا يُحرم من الصلاة، وعلى الآخرين أن يسمعوا لرأيه في الشورى، ويساووه بهم كما يساوونه بهم في الصلاة: «الصلاة مظهر المساواة بين العباد في الصف

الواحد، رُكّعاً سُجّداً، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم رِجل على رِجل.. ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى، قبل أن يذكر الزكاة..»[1].

وأختم كلامي عن الشورى في سورة الشورى بتسجيل ما أورده سيد قطب في «الظلال» عنها:

«والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، وهو كما قلنا نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة المسلمة في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة المسلمة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة، وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة.

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية. والنظم الإسلامية ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة..»[2].

المطلب الرابع
أمر الرسول ﷺ بمشاورة المسلمين

أمر الله رسوله ﷺ بمشاورة المسلمين، وجاء هذا الأمر في آيات مدنية، تتحدث عن غزوة أحد، التي كان لها تأثير خاص على المسلمين، وكان للشورى فيها نتائج خطيرة على المسلمين.

---

(١) في ظلال القرآن، ٥:٣١٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٥:٣١٦٥.

قال الله عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

أولاً: المعنى الإجمالي للآية:

يمتنُّ الله على نبيه ﷺ ، ويُثني على أخلاقه العظيمة السمحة مع أصحابه، فالرسول ﷺ كان هيّناً ليّناً متواضعاً سمحاً رفيقاً مع المسلمين، وهذا اللين والرفق رحمة من الله، ولو لم يرحمه الله بتحسين أخلاقه لكان سيِّئ الخلق معهم.

ولين الرسول ﷺ مع أصحابه، جعلهم يحبونه أكثر، ويزدادون قرباً منه، ويجتمعون عنده، ويوثقون صلتهم به. أما لو كان معهم فظاً شديداً قاسياً غليظ القلب صعب المعاملة، فإنهم سينفضون عنه، ويتخلون عنه، ويبتعدون عنه، ويتركونه، لأن الناس لا يُقبلون على فظّ غليظ القلب.

ويوجه الله رسوله ﷺ إلى العفو عن المسلمين عندما يُخطئون، وأن يستغفر الله لهم، طالباً منه أن يتجاوز عن ذنوبهم وأخطائهم.

ويأمر الله رسوله ﷺ باستشارة المسلمين في أمورهم، بأن يعرض الأمر عليهم ويطلب منهم التفكير فيه، وتقديم آرائهم حوله، لينظر في هذه الآراء، ويأخذ المناسب منها.

وبعد ما يشاور الرسول ﷺ المسلمين في الأمر، وبعدما يأخذ بالرأي الأنسب، فعليه بأن يعزم على تنفيذ وإمضاء ما ارتآه، وأن لا يتردد في ذلك، وأن يتوكل على الله، ويُفوِّض أمره إليه.

ثانياً: الجو الذي نزلت فيه الآية:

هذه الآية مع آيات قبلها وبعدها، أنزلها الله في التعقيب على أحداث غزوة أحد، واستخلاص دروس ودلالات وعبر منها، وقد شاور الرسول ﷺ أصحابه قبل الخروج إلى ميدان المعركة، ونتج عن الشورى أحداث شديدة قاسية على المسلمين، فأنزل الله هذه الآية يؤكد فيها الأمر على رسوله ﷺ بالشورى.

وحتى ندرك أبعاد الآية وحقائقها وأهمية توجيهاتها، فعلينا أن نعيش «الجو» الذي نزلت فيه، وأن نستحضر ذلك الجو الذي عاشه الصحابة.

تحدث محمد بن إسحاق في السيرة عن خروج قريش لقتال المسلمين، في السنة الثالثة، فلما علم بهم رسول الله ﷺ جمع المسلمين، واستشارهم في الأمر.

وقبل أن يستشير رسول الله ﷺ أصحابه في أمر المعركة كان قد رأى رؤيا عجيبة، لها ارتباط مباشر بالمعركة.

رأى ﷺ بقراً يُذبح، رأى في سيفه ثلمَة – أي نقصاً – ورأى أنه أدخل يده في درع حصينة.

ولما قصّ رؤياه على الصحابة قالوا له: ما أوّلت الرؤيا يا رسول الله؟ .

قال: البقر الذي يُذبح هم ناس من أصحابي يُقتلون في المعركة. والثلمة التي في سيفي رجل من أهل بيتي يقتل. والدرع الحصينة هي المدينة.

وقد تحققت رؤيا الرسول ﷺ ، لأن رؤيا الأنبياء حق،حيث استُشهد سبعون من الصحابة، وجُرح سبعون، وكان في مقدمة الشهداء عم الرسول ﷺ حمزة ﷺ . وعاد الرسول ﷺ مع المسلمين إلى المدينة، ولم تحقق قريش أهدافها، مع ارتفاع الضحايا عند المسلمين.

ومع هذه الرؤيا فإن رسول الله ﷺ قد استشار أصحابه في مكان المعركة، هل يُقاتلون قريشاً في المدينة، أم يُقاتلونها خارج المدينة؟ .

وكان رأي الرسول ﷺ أن لا يخرجوا من المدينة، بل يتحصنون فيها، فإذا دخلت قريش المدينة، قاتلها المسلمون في الشوارع والحارات والأزقة.

وكان مع الرسول ﷺ على هذا الرأي مجموعة كبيرة من المسلمين، وكان هذا رأي عبدالله بن أبيّ زعيم المنافقين.

ولكن الأكثرية من المسلمين كان لهم رأي آخر، وبخاصة الذين لم يشتركوا في معركة بدر، فقد كان رأيهم الخروج خارج المدينة، وقتال قريش بعيداً عنها.

قالوا للرسول ﷺ : يا رسول الله: اخرج بنا إلى أعدائنا، لئلا يروا أنا جَبُنّا وضعفنا عنهم.

وقال آخرون: يا رسول الله: أقم بالمدينة، ولا تخرج إلى قريش، فوالله ما خرجنا من المدينة إلى عدوٍّ إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا عدو إلا أصبنا منه. فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا علينا المدينة قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم.

وما زال أصحاب هذا الرأي بالرسول ﷺ حتى دخل بيته، ولبس «لأمَتَه» - درعه- وخرج على أصحابه الذين كانوا بانتظاره.

ولما رآه الذين أشاروا عليه بالخروج، تراجعوا عن رأيهم، وندموا عليه، وقالوا: أكْرَهْنا رسول الله ﷺ على الخروج، ولا يحق لنا ذلك! .

ثم خاطبوا الرسول ﷺ قائلين: يا رسول الله: لقد استكرهناك على الخروج، فإن أحببت أن نمكث في المدينة فافعل! .

فقال لهم: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه».

استعمل الرسول ﷺ على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم ﷺ ، وخرج بألف من المسلمين، متوجِّهين إلى «أحد» لقتال قريش.

فلما كانوا في منتصف الطريق بين المدينة وأحد، انخذل عنهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبيّ، وأخذ معه ثلث الجيش.

وأعلن ابن أبيّ غضبه، وقال: محمد يعصيني، ويطيع هؤلاء الفتية، ما ندري على ماذا نقتل أنفسنا أيها الناس؟ .

ولما أخذ ابن أبيّ معه حوالي ثلث الجيش، لحق بهم عبدالله بن حرام ﷺ راجياً منهم أن يعودوا للمعركة وأن لا يتخلوا عن المسلمين، وقال لهم: يا قوم: أسألكم بالله أن لا تخذلوا نبيّكم وقومكم، وأن لا تتخلوا عنهم عندما حضر عدوّكم!! .

فردّوا عليه قائلين: لو نعلم أنكم ستقاتلون قريشاً لما أسلمناكم، ولكننا نرى أنه لن يكون قتال بينكم وبينهم! .

فلما لم يستجيبوا لعبدالله بن حرام ﷺ ، وأصروا على الانصراف، قال لهم ابن حرام: أبعدكم الله يا أعداء الله، سوف يغنينا الله عنكم.

واختلف الصحابة في الموقف من هؤلاء المنافقين المنصرفين:

فقال بعض الصحابة: لا بد أن نقاتلهم لأنهم خذلونا.

وقال آخرون: لا داعي لقتالهم، فنحن خارجون لقتال قريش.

فقال ﷺ : «دعوهم إنها طيبة، تنفي الذنوب، كما تنفي النار خبث الفضة».

وأشار على الرسول ﷺ بعض المسلمين أن يستعين باليهود في المدينة على قتال قريش في أحد. فأبى ﷺ ، وقال: «لا نستعين بالكافرين على المشركين»!! [1].

وصل الجيش المجاهد إلى أحد، ووقعت المعركة، وانتصر المسلمون في الجولة الأولى منها، وانهزمت قريش، ونزل الرماة المجاهدون عن الجبل، ورأى المشركون تلك الثغرة على الجبل، والتفوا على المسلمين، ودارت الدائرة على المسلمين، ومرّت عليهم الساعات شديدة، وقذف الله في قلوب قريش الانصراف، وتركوا ميدان المعركة، وقدّم المسلمون في المعركة سبعين شهيداً، وسبعين جريحاً، ودفعوا الثمن غالياً.

وأسعف الله المسلمين، وعالج آلامهم النفسية، فأنزل آيات من سورة آل عمران، تسجل بعض لقطات المعركة، وتستخلص منها الدروس والعبر، ومن الآيات هذه الآية التي تتحدث عن الشورى.

هذا هو الجو الذي نزلت فيه هذه الآية.

ثالثاً: نقض شبهات المنافقين حول الشورى:

استغلّ المنافقون الأحداث المفاجئة في غزوة أحد، وما نتج عنها من نتائج وآلام، وحمّلوا مسؤولية ذلك للنبي ﷺ وأصحابه، وصاروا يثيرون الشبهات ضد القيادة النبوية،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٣:٦٦-٦٨.

واعتبروا أن استشارة النبي ﷺ هي السبب، وأنه لما خالف رأي عبدالله بن أبي وخرج إلى أحد فقد أخطأ، وأنهم لو لم يخرجوا إلى أحد لما حصل ما حصل.

وقد أنزل الله آيات من سورة آل عمران، تعالج أحداث غزوة أحد، وتعرض بعض شبهات واتهامات المنافقين، وتنقضها وتبطلها، وتؤكّد على أهمية الشورى، وتوجب على النبي ﷺ ممارستها، وتأمره بمشاورة المسلمين في أمورهم.

من شبهات المنافقين وأقوالهم التي أوردتها الآيات، وتولت نقضها:

١- زعم المنافقون أنه ليس لهم شيء من الأمر، وأن النبي ﷺ ترك رأيهم وأخذ برأي المندفعين، وترد الآيات بأن الأمر في الحقيقة لله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾ [آل عمران:١٥٤].

٢- زعم المنافقون أن نتيجة الشورى التي أخذ بها النبي ﷺ كانت خطأ، وأن المسلمين الذي قُتلوا في المعركة، لو لم يخرجوا لما قُتلوا، وترد الآيات بأن الله أخرجهم ليُقتلوا في المعركة لانتهاء آجالهم: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٤].

٣- زعم المنافقون أن المسلمين لو بقوا في المدينة لما قُتل منهم أحد، وترد الآيات عليهم بأنهم لا يعرفون قدر الله، ولا يستسلمون لأمر الله، ولذلك تمتلئ قلوبهم حسرة وهماً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ [آل عمران:١٥٦].

٤- زعم المنافقون أنهم لم يخرجوا مع المسلمين إلى ميدان المعركة احتجاجاً على نتيجة الشورى، ولأنه لن يكون في أحد قتال مع المشركين، وترد الآيات عليهم بأن هذا تمويه وإخفاء لنفاقهم، وأن سبب عدم خروجهم هو نفاقهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ

﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٧].

٥- زعم المنافقون أن الرسول ﷺ لو أخذ برأيهم في الشورى، ولو أطاعهم وبقي في المدينة، لما قُتل أحد من المسلمين، وتردّ الآيات عليهم بتحدّيهم أن يدفعوا الموت عنهم عندما تنتهي آجالهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨].

٦- زعم المنافقون أن الذين قُتلوا في معركة أحد قد خسروا حياتهم، وأنهم ماتوا دون أن يحققوا شيئاً، فترد الآيات عليهم بأن الشهداء لم يخسروا ولم يموتوا في الحقيقة، وإنما هم أحياء عند ربهم يُرزقون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

في هذا الجو، وفي سياق نقض وإبطال شبهات وإشاعات المنافقين عن الشورى، أنزل الله آية تأمر النبي ﷺ باستشارة المسلمين في أمورهم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

قال سيد قطب وهو يفسر هذه الآية: بهذا النص الجازم «وشاورهم في الأمر» يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى ومحمد ﷺ هو الذي يتولاه، وهو نص قاطع، لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على سواه. أما شكل الشورى، والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير، وفق أوضاع الأمة، وملابسات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها – فهي من الإسلام.

لقد كان هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى، تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها – ظاهرياً – وقوع خلل في وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء ، فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة مُحتمين بها، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه

الأزقة.. وتحمّست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين، وكان من نتائج هذا الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف.

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج، فلقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة.. وكان من حقه أن يُلغي ما استقرّ عليه الأمر نتيجة الشورى، ولكنه أمضاها، وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات، لأن إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية.

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف، وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربّيها، ويعدّها لقيادة البشرية، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الراشدة أن تُربّى بالشورى، وأن تُدرّب على حمل التبعة، وأن تخطئ - مهما يكن الخطأ جسيماً ذا نتائج مريرة - لتعرف كيف تصحح خطأها، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها، فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ!!.

.. ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أخطر الشؤون. لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي، ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون، لكان وجود محمد ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى، كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى.. ولكن وجود محمد ﷺ، ومعه الوحي الإلهي، ووقوع تلك الأحداث، ووجود تلك الملابسات، لم يُلْغ هذا الحق.

.. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي، في هذا الوقت بالذات: «فاعف عنه واستغفر له وشاورهم في الأمر» ليقرر المبدأ في مواجهة أخطر الأخطار التي صاحبت استعماله، وليثبّت هذا القرارَ في حياة الأمة المسلمة، أياً كانت الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق، وليسقط الحجة الواهية التي تثار، لإبطال هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة، ولو كان هو انقسام الصف، كما حدث في «أحد»، والعدو على الأبواب.. لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق..

.. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

إن مهمة الشورى هي تقليب أوجه الرأي، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ، التنفيذ في عزم وحسم، وفي توكل على الله، يصل الأمر بقدر الله، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء.

وكما ألقى النبي ﷺ درسه النبوي الرباني وهو يعلم الأمة الشورى، ويعلمها إبداء الرأي، واحتمال تبعته بتنفيذه، في أخطر الشؤون وأكبرها، كذلك ألقى عليها درسه الثاني في إمضاء بعض الشورى، وفي التوكل على الله، وإسلام النفس لقدره – على علم بمجراه واتجاهه، فأمضى الأمر في الخروج، ودخل بيته، ولبس درعه ولأمته – وهو يعلم إلى أين هو ماضٍ، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات.

إنه أراد أن يعلمهم الدرس كله، درس الشورى، ثم العزم والمضي، مع التوكل على الله والاستسلام لقدره، وأن يُعلمهم أن للشورى وقتها، ولا مجال للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأي من جديد، فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي..

إنما هو: رأي وشورى، وعزم ومضاء، وتوكّل على الله، يحبه الله..[1].

رابعاً: لطائف ودلالات من الآية:

نقف الآن وقفة تدبرية تحليلية، مع قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ونستخلص من هذه الآية أهم لطائفها ودلالاتها، مما يتصل بالشورى، والصلة بين الراعي والرعية، وأخلاقه الضرورية لقيادة الرعية.

١- الآية خطاب لرسول الله ﷺ ، وأمر له بمشاورة المسلمين في أمورهم، وأمر له بالعفو عنهم والاستغفار لهم، وتوجيه له إلى العزم بعد الشورى متوكّلاً على الله، وتبين أن

(١) في ظلال القرآن، ١:٥٠١-٥٠٣ باختصار.

التزامه بذلك مع المسلمين لين منه لهم، يجعلهم يزدادون محبةً له وارتباطاً به، وإن لم يلتزم بذلك فإنهم سوف ينفضّون عنه.

والخطاب في الآية يشمل كل إمام وخليفة وحاكم للمسلمين من بعده، والأوامر والتوجيهات في الآية موجّهة لكل من وليَ شيئاً من أمور المسلمين، سواء كان ولاية عامة، أو ولاية خاصة جزئية.

وعمَّمنا الآية على ولاة الأمر وفق القاعدة المطَّرِدَة في أصول التفسير: «خطاب الرسول ﷺ في القرآن خطاب لأمته، ما لم يقم دليل على تخصيص الخطاب به وحده».

٢- ترشد الآية الحكام والخلفاء وولاة الأمر إلى مجموعة من الأخلاق الأساسية، وتوجب عليهم الاتصاف بها، ليُحسنوا قيادة الرعية، فإن تخلّوا عنها كانت قيادتهم شقاءً وخسارة.

من هذه الأخلاق: اللين مع الرعية. وترك الفظاظة وغلظ القلب. والاقتراب من الرعية. والعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في أمورهم. والعزم بعد مشاورتهم. والتوكل على الله.

هذه أخلاق ثمانية أساسية، ضرورية لكل حاكم، لتكون فترة حكمه للرعية سعادةً وخيراً وبركة.

٣- يمتنُّ الله على نبيه ﷺ بأنه من رحمته به جعله هيّناً ليّناً مع المسلمين: «فبما رحمة من الله لنت لهم».

الله رحمه فجعل اللين واليسر والسماحة سجيةً فيه، ولو نزع الله منه هذا اللين، لرفع الرحمة عنه، وتحولت حياته إلى شقاء.

والله رحم به المسلمين، لما تعامل معهم باللين، وقادهم باليسر والسماحة.

وهكذا يكون الحاكم المرحوم الذي رحمه الله، ورحم به رعيته، فالله يرحمه بجعل اللين واليسر والرفق سجيةً له، ويرحم الرعية عندما يوفِّق الحاكم إلى قيادتهم بهذه السجية.

٤- ونقيض اللين والرفق هو الفظاظة والجلافة والغلظة، فإذا تعامل الحاكم مع الرعية بهذه الصفات فسوف يُشقيهم ويزعجهم ويشقّ عليهم، ويفسد حياتهم، ويقضي على حرياتهم ومواهبهم.

قد يظن حاكم أن تعامله مع الرعية باللين يجعله ضعيفاً أمامهم، ويُطمعهم فيه، ويظن أنه لن يفرض احترامه عليهم، ولن يضمن طاعتهم وخضوعهم، إلا بالشدة والغلظة والفظاظة.

وهذا ظن خاطئ، إن اللين معهم لا يعني الضعف، فقد كان رسول الله ﷺ هيّناً ليّناً سمِحاً ودوداً متواضعاً، وهذا من أسباب محبتهم له، وارتباطهم به، وطاعته وتنفيذ أوامره.

لو لجأ الحاكم إلى الفظاظة والغلظة لكرّه الرعية به، وأدى إلى انصرافهم عنه، وانفضاضهم من حوله: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك».

وعند ذلك سيلجأ هذا الحاكم إلى الاستبداد والشدة بحجة عصيانهم له ونفورهم منه، وبذلك يُشقيهم ويشقُّ عليهم! وهو السبب في ذلك وليسوا هم!! .

٥- يأمر الله رسوله ﷺ - وكل حاكم من بعده - بالعفو عن المسلمين، وهذا العفو من مظاهر اللين لهم والرحمة به: «فاعف عنهم».

إن الناس قد يُقصِّرون وقد يضعفون، وقد يُخطئون ويعصون، وعلى الحاكم أن يكون رفيقاً بهم حريصاً عليهم، وأن يكون أكبر منهم قلباً، وأكثر منهم حلماً، فلا يحاسب على كل صغيرة، ولا ينسى أية إساءة، بل يتجاوز عن المسيء، ويعفو عن المخطئ، وبذلك يُربّيهم، ويزيدهم محبةً وطاعةً له.

٦- بعد العفو عن الرعية يوجه الله الحاكم إلى الاستغفار لهم: «واستغفر لهم».

والاستغفار لهم بأن يدعو الله لهم، ويطلب منه سبحانه يتوب على المخطئين المقصرين، وأن يغفر لهم.

وهو يفعل ذلك بعدما عفا هو عنهم وسامحهم، واستغفاره لهم من مظاهر محبته لهم، وإشفاقه وحرصه عليهم، وهذا يوحي بأن الأصل في الحاكم أن يكون أكثر أفراد الرعية إيماناً وعبادةً وتقوى، وطاعةً لله، وإقبالاً عليه.

٧- مشاورة الحاكم للرعية خلق عظيم منه، وهو مرتبط مع أخلاق عظيمة قبله، ولهذا ورد الأمر بالمشاورة في الآية، بعد أوامر سابقة: «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر..».

الصفات الحميدة مذكورة في الآية على هذا الترتيب: اللين للرعية، عدم الفظاظة والغلظة، العفو عنهم، الاستغفار لهم، ثم المشاورة لهم.

فهو لا يشاورهم إلا إذا كان ليناً معهم، ليس غليظاً ولا فظّاً، عفوّاً عنهم، مستغفراً لهم.

فالشورى ثمرة لمحبته لهم وحرصه عليهم، وإذا لم يشاورهم فلأنه لا يحبهم ولا يحرص عليهم! .

٨- «شاورهم» فعل أمر. والأمر للوجوب - كما قال علماء الأصول والتفسير - وهذا معناه أن «الشورى» في النظام الإسلامي واجبة، وأن الحاكم مأمور بمشاورة الرعية، فإذا داوم على استشارتهم فقد نفّذ الأمر وأدى الواجب.

وإذا لم يشاورهم فهو آثم، لأنه مخالف لأمر الله، عاصٍ له.

إن الشورى واجبة، وليست مندوبة ولا نافلةً ولا تطوعاً، وإذا ما شاور الحاكم الرعية فلا يمنُّ عليهم بذلك، ولا يعتبره تفضُّلاً وكرماً منه، لأنه بذلك ينفذ أمر الله، وينقذ نفسه من عذاب الله! .

٩- الضمير «هُمْ» في فعل «شاورهم» يراد به المسلمون جميعاً، فعلى الإمام أن يشاور المسلمين، ولم تُخصص الآية بعض المسلمين بالشورى دون بعض، كما لم تحدد كيفية استشارتهم.

من هم الذين يُشاوَرون؟ وكيف يُستشارون؟ وما هي الكيفية التي تنفذ بها الشورى؟

الآية لم تحدد هذا، وتركت كيفية ممارسة الشورى للأمة المسلمة، لأنها «شكل» أو ترتيب إجرائي، يختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، والمسلمون في الأمور الإجرائية الإدارية يختارون الأنسب لهم.

فقد تتحقق الشورى باستفتاء عام – صادق نزيه – وقد تتحقق بانتخاب ممثلين عن الأمة، يكونون أعضاء في مجلس للشورى، وقد تتحقق في أية صورة أخرى.

الآية لم تقيد المسلمين في ذلك بشيء، المهم هو المضمون، والإحسان في ممارسة الشورى، وتمكين المسلمين من مزاولة حقّهم في الشورى

١٠- ما هي الأمور التي تصلح موضوعات للشورى؟ الآية تقول: «وشاورهم في الأمر». وجعلت «الأمر» عاماً، شاملاً للموضوعات والأمور التي تهمّ المسلمين.

أل التعريف في «الأمر» للاستغراق، فالكلمة تستغرق كل صورة الأمر الذي يهم المسلمين ومجالاته وألوانه.

الأمر الذي يشاور الإمام فيه الرعية، قد يكون له مضمون اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي أو قانوني أو تعليمي أو إداري أو مالي أو جهادي أو دولي.

إن الله يعلم أن أمور المسلمين لا تسير إلا بالشورى، ولذلك أوجب على الإمام مشاورة الرعية في كل الأمور التي تهمهم.

١١- ندعو إلى الجمع بين الآيتين:

آية سورة الشورى، التي وصفت المسلمين بأنهم: «أمرهم شورى بينهم».

وآية سورة آل عمران التي أمرت الإمام باستشارة الرعية: «وشاورهم في الأمر».

إنا نرى تركيزاً في الآيتين على «الأمر» الذي هو موضوع الشورى، وتأكيداً على عمومه وشموله لكل ما يهم المسلمين من أمور.

لا يُستثنى من الأمر إلا ما كان حكْماً من الله سبحانه، فالأحكام الشرعية التكليفية، المتمثلة في الأوامر والنواهي، والواجبات والمحرمات، هذه أمر الله المسلمين جميعاً – حكاماً ومحكومين – بالالتزام بها، وعدم مخالفتها.

فهي ليست خاضعةً للشورى، ولا قابلة للأخذ والرد، أو القبول والرفض، أو التأييد والمعارضة.

ونرى ارتباطاً وثيقاً بين آية سورة الشورى المكية وآية سورة آل عمران المدنية، وكأنهما تحدثان عن «مرحلتين»:

المرحلة الأولى: حياة المسلمين العامة فيما بينهم تقوم على الشورى، وعلى هذا آية سورة الشورى المكية: «وأمرهم شورى بينهم».

المرحلة الثانية: صلة المسلمين بالحاكم، وصلة الراعي بالرعية، تقوم أيضاً على الشورى، لأن الراعي من المسلمين، ولأن المسلمين هم الذين يُفرزون نظام الحكم على أساس الإسلام، ولهذا تنعكس الصفة الشورية العامة لهم على تلك الناحية الفردية الخاصة، وهي صلة الحاكم بهم، الذي هو مأمور بمشاورتهم: «وشاورهم في الأمر».

١٢- لا يجوز أن تقوم الشورى إلى الفوضى وانفلات الأمور، ولا يجوز أن يكون الحاكم المستشير ضعيفاً بحجة الشورى.

إن الحاكم يشاور الأمة في الأمر، ويستمتع منهم إلى وجهات النظر، ويقلب هو الأمر على وجوهه، وبعد ذلك يختار هو من الآراء ما يحقق مصلحة الأمة، ويرجح ذلك الرأي.

عند ذلك لا بد أن «يعزم» ويجزم، ويمضي ما رجّحه ويُنفذه، متوكلاً على الله: «وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله..».

الأمر موضوع الشورى عند الحاكم يمر بمرحلتين توحي بهما الآية:

المرحلة الأولى: مرحلة الشورى وسماع الآراء، والتفكير في وجهات النظر المعروضة، ومحاولة الخروج برأي: «وشاورهم في الأمر».

المرحلة الثانية: مرحلة «العزم» أي: اتخاذ قرار، اعتماداً على ما رجّحه الحاكم من الآراء التي أمامه، وفي هذه المرحلة لا بد للحاكم من الحزم والحسم والعزم والتنفيذ، فإن لم يفعل بقيت القضية عائمة مائعة رخوة منفلتة.

١٣- فِعْلا الأمر في الآية: «فاعف عنهم واستغفر لهم» لهما دلالة هامة في موضوع الشورى.

فالإمام عندما يشاور الأمة، قد يسمع وجهات نظر متعارضة، وقد يخالفه ويعارضه بعض أفراد الرعية، وقد يقدِّم بعضهم رأياً آخر، مخالفاً لرأي الإمام، فما موقف الإمام من المعارضين أو المخالفين له؟ .

لا يجوز له أن «يُحاسب» المخالف، ولا أن يعاقب المعارض، ولا أن يعتبر ذلك خروجاً عليه، أو تشكيكاً في طاعته له، بل على العكس، فالمطلوب من الحاكم أن يقدِّر المخالف ويحترم المعارض.

إن تقديم أحد الرعية لرأي يخالف رأي الحاكم، لا يجوز أن يقود إلى تغيير رأي الحاكم فيه، أو تغيير قلبه عليه، ويجب على الحاكم أن يبقى رفيقاً بالمعارض، ليّناً معه، رحيماً به، مستغفراً له، لأن هذا من لوازم الشورى، والكل حريص على مصلحة الأمة، سواء كان موافقاً لرأي الإمام، أو مخالفاً له. فالمسألة مسألة اختلاف آراء، وليست اختلاف قلوب، ولا تشكيكاً في الولاء.

لأجل إزالة ما قد يعلق بنفس الحاكم من غبش أو سوء بالنسبة إلى المخالفين والمعارضين تأمره الآية بالعفو عنهم والاستغفار لهم: «فاعف عنهم واستغفر لهم».

إن الإنسان لا يدعو إلا لمن يحب، ولا يستغفر إلا لمن يقدر ويحترم ويصادق، فدعوة الإمام إلى العفو عن المخالفين والاستغفار لهم، معناها أن يحبهم ويقدرهم ويحترمهم، وهذا لا يكون مع اتهامهم أو التشكيك في ولائهم!! .

١٤- الشورى بطرفيها - عبادة لله، حسب مفهوم العبادة الواسع الشامل في الإسلام، فالحاكم عندما يطلب المشورة يمارس العبادة لله، والمستشارون عندما يقدِّمون المشورة يمارسون العبادة لله، وبعملية الشورى تتحوّل الأمة كلها - حاكمها وأفرادها - إلى عابدين لله، وبهذا تكون الأمة قريبةً من الله، متصلةً بالله، تنال محبة الله، ويظللها رضوان الله: «إن الله يحب المتوكلين».

خامساً: نماذج من الشورى عند رسول الله ﷺ تطبيقاً منه للآية:

لقد أمر الله رسوله ﷺ بمشاورة المسلمين في أمورهم، كما لاحظنا في تفسر قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ .

ومن باب بيان التفسير العملي التطبيقي للأمر الرباني: «وشاورهم في الأمر»، نورد بعض النماذج الثابتة الصحيحة من السيرة النبوية، تثبت تطبيق وتنفيذ الرسول ﷺ لذلك الأمر الرباني.

وقبل أن نورد هذه النماذج العملية، نسجل ما أورده الإمام البخاري في صحيحه، من خلاصة رائعة لفقه الشورى في حياة الرسول ﷺ، وأصحابه من بعده.

أورد البخاري في باب قول الله «وشاورهم في الأمر» من كتاب الاعتصام، «تعليقاً» في ترجمة الباب، ما يلي:

«باب قول الله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم»، وقوله: «وشاورهم في الأمر». وأن المشاورة قبل العزم والتبين، لقوله: «فإذا عزمت فتوكل على الله»، فإذا عزم الرسول ﷺ، لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله.

وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد، في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أَقِمْ. فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها، حتى يحكم الله».

وشاور علياً وأسامة فيما رَمَى به أهلُ الإفكِ عائشةَ فسمع منهما حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله.

فكان الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم، في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنّة لم يتعدّوه إلى غيره، اقتداءً بالنبي ﷺ.

ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله».

فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه عمر بعد ذلك، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة. إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ، في الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

وكان القراء أصحاب مشورة عمر، كُهولاً وشباباً، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل»[1].

هذه الفقرات في «فقه الشورى» كما فهمها الإمام البخاري، تدل على أمور كثيرة، ويمكن أن يُستخرج منها كثير من الدروس والدلالات، وندعو إلى حسن تدبّرها، وحسن استخراج دلالاتها ودروسها.

ونورد فيما يلي نماذج من استشارة الرسول ﷺ لأصحابه:

الاستشارة الأولى: استشارة الرسول ﷺ لأصحابه للخروج لأبي سفيان يوم بدر:

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك ﷺ : «أن رسول الله ﷺ شاور – حين بلغه إقبال أبي سفيان – فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد ابن عبادة، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغِماد لفعلنا، فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً..» [2].

ومعنى قول سعد بن عبادة ﷺ : لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها: لو أمرتنا أن ندخل خيولنا البحر، لتخوض فيه، لفعلنا.

ومعنى قوله: ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا: لو أمرتنا أن نركض بخيولنا مجاهدين حتى نصل بها إلى برك الغماد لفعلنا.

وبرك الغماد: اسم موضع على ساحل البحر باتجاه اليمن.

الاستشارة الثانية من الرسول ﷺ لأصحابه قبل معركة بدر:

استشار الرسول ﷺ الصحابة يوم بدر أكثر من مرة، فكانت الاستشارة الأولى لما علم بقدوم أبي سفيان ومعه القافلة من الشام، فاستشار أصحابه للخروج إليها، فوافقوا على الخروج، كما ذكرنا في النقطة السابقة.

---

(١) صحيح البخاري: ٩٩ باب الاعتصام بالكتاب والسنّة، ٢٨ باب قول الله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم»، ترجمة الباب.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة بدر، حديث رقم (١٧٧٩).

وندب ﷺ الناس للخروج للقافلة، فخرجوا. ولما كانوا في الطريق علم رسول الله ﷺ بنجاة القافلة، وهرب أبي سفيان، بها، وعلم بخروج أبي جهل يقود جيش الكفار لقتال المسلمين.

استشار الرسول ﷺ أصحابه الخارجين معه الاستشارة الثانية:

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وهو يتحدث عن أحداث عزوة بدر: «..وأتى رسول الله ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم، ليمنعوا عيرَهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش.

فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب ﷺ فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو ﷺ فقال: يا رسول الله: امْض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له رسول الله خيراً، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ : «أشيروا عليّ أيها الناس».

وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدَدُ الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: إنا بُرءاءُ من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ ليس في بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال سعد بن معاذ ﷺ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل!» .

قال سعد: قد آمنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا

رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله.

فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله كأني أنظر إلى مصارع القوم...» [1].

الاستشارة الثالثة: استشارة الرسول ﷺ في مكان معركة بدر:

قال الواقدي في المغازي: لما اقترب رسول الله ﷺ من مكان بدر، نزل منزلاً ثم قال: أشيروا عليّ في المنزل.

فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله: أريت هذا المنزل، أمنزلٌ أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: فإن هذا ليس بمنزل! انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم، فإني عالم بها وبقُلبِها، بها قليب قد عرفت عُذوبة مائه، وماء كثير لا ينزح، ثم نبني عليها حوضاً، نقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونغوِّر ما سواها من القُلب.

فقال رسول الله ﷺ: «يا حُباب: أشرتَ بالرأي» [2].

فنهض ﷺ بالصحابة، ونزل في المكان الذي أشار به الحُباب، وكان هو الخير.

الاستشارة الرابعة: استشارة الرسول ﷺ في أسرى بدر:

«قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: لما أَسَرَ المسلمون الأسرى بعد بدر، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر وعمر وعليّ ما ترون في هؤلاء الأسرى؟»».

فقال أبو بكر: يا نبي الله: هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١:٦١٤-٦١٥. ودلائل النبوة للبيهقي، ٣:٣٢، ومجمع الزوائد، ٦:٧٣. وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي: ١٦٧.

(٢) المغازي للواقدي، ١:٥٣-٥٤.

فقال ﷺ : «ما ترى يا ابنَ الخطاب؟».

قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر. ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتُمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكّني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت. فلما كان من الغد، جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان.

قلت يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما! .

فقال رسول الله ﷺ : «أبكي للذي عُرض على أصحابك، من أخذِهم الفِداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - شجرة قريبة من رسول الله ﷺ - .

وقد أنزل الله عز وجل قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩].

فأحلّ الله الغنيمة لهم»[1].

إن استشارة الرسول ﷺ لأصحابه أربع مرات في معركة واحدة - معركة بدر - دليل على تغلغل الشورى في سيرته وحياته ﷺ ، حيث كان يكثر منها تطبيقاً لأمر الله.

ونكتفي بهذه النماذج الأربعة الدالة، ولا نزيد عليها حتى لا نطيل[2].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة. حديث رقم:١٧٦٣. وانظر صحيح السيرة النبوية: ١٨٦-١٨٧.

(٢) انظر بحث الدكتور همام سعيد «عرض الأحاديث النبوية المتعلقة بالشورى» من موسوعة الشورى في الإسلام، ١:٨٥-١٠٧.

المبحث الثالث

وقائع من الشورى في القصص القرآني

نعلم أن القصص القرآني مظهر من مظاهر انطباق حقائق الحق وأباطيل الباطل على الواقع، وبيان تمثلها في أشخاص وأحداث ووقائع، فهذا القصص القرآني تفسير عملي ميداني لمبادئ القرآن ومقاصده وحقائقه.

وإذا كانت «الشورى» حقيقة من قصص القرآن الأصلية، ومبدءاً من مبادئه الثابتة، فلها «حصة» من قصص القرآن، وجزء من ميادينه.

لم ترد كلمة «شورى» في القصص القرآني، ولكن وردت حوادث ووقائع وأحداث ومشاهد، تمثلت فيها الشورى بشكل واضح.

ومن باب استكمال بحثنا عن «الشورى في القرآن» ستوجّه إلى ميدان القصص القرآني – وهو ميدان فسيح – لنقف على وقائع الشورى فيه، التي وردت في مشاهده ولقطاته.

وقائع الشورى في القصص القرآني لها جانبان:

الأول: الشورى الإيجابية الخيرة، حيث كان الرأي المقدّم فيها جيداً إيجابياً، وكان هذا في الشورى بين أناس صالحين مسلمين – غالباً – .

الثاني: الشورى السلبية السيئة، حيث كان الرأي المقدم فيها سيئاً، يقوم على الكيد والمكر والتآمر، وكان هذا في الشورى بين أناس كافرين طغاة، يحاربون الحق وأهله.

وسنورد فيما يلي نماذج لكل منهما:

المطلب الأول

وقائع من الشورى الإيجابية الأخيرة

أولاً: إبراهيم يشاور إسماعيل عليهما السلام في رؤياه بذبحه:

رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام ، وهو يعلم أن رؤيا الأنبياء حق، ولذلك اعتبرها أمراً من الله بذبحه، فذهب لينفذ الأمر.

ولكنه قبل التنفيذ أحبّ أن يُشرك ابنه معه في لذة طاعة أمر الله، والاستسلام له، فعرض عليه الأمر، وقصّ عليه الرؤيا، وشاوره في الموضوع.

قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١-١٠٧].

عرض إبراهيم الأمر على إسماعيل – عليهما السلام – بقوله: «انظر ماذا ترى». والمراد بالنظر هنا التفكر والتدبر، وإعمال العقل، للخروج بالرأي الصواب.

إن إبراهيم وهو يشاور إسماعيل عليهما السلام بقوله: «انظر ماذا ترى» يعلم حقيقة موقف ابنه، وحرصه على الاستسلام لأمر الله، فهو لن يشير عليه بمخالفة أمر الله، ولو كان أمر الله هو ذبحه هو. إبراهيم يعلم ذلك، لكنه استشاره ليُشركه معه في الاستسلام الطوعي الاختياري العبادي لله سبحانه وتعالى.

أشار إسماعيل على أبيه – عليهما السلام – بتنفيذ أمر الله، والقيام بذبحه، وهذه قمة الاستسلام والإسلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

اجتمع الأب والابن على تنفيذ أمر الله، وكانت هذه نتيجة الشورى عندهما، وعزم الأب على التنفيذ، وخطا مع ابنه خطوات عملية، وأسلما معاً لله، وتلّ الأب ابنه، وألقاه على جبينه، وأخذ سكينه، وأقبل به على رقبة ابنه، وأوشك على ذبحه.

وأظهرا لله صدق التزامهما وتنفيذهما، والقمة في إسلامهما واستسلامهما، وتحقق ما يريده الله منهما، ولم يبقَ إلا ذبح الابن، وإخراج روحه من جسمه، وهذا ليس مهماً بعد ذلك الاستسلام والإسلام..

أنقذ الله إسماعيل من الذبح، وفداه بذبح عظيم، ونادى إبراهيم أن لا يذبحه، وأثنى عليه بأنه صدّق الرؤيا، وصَدَق في إسلامه لله.

ونلاحظ أن الشورى في هذا المشهد تمت بقول إبراهيم لابنه عليهما السلام:

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وجواب الابن: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ .

ثانياً: إبراهيم يشاور إسماعيل عليهما السلام في بناء الكعبة:

بعد فترة من الاستشارة السابقة بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حصلت بينهما استشارة أخرى. أشار لها القرآن وحديث رسول الله ﷺ .

أمر الله إبراهيم عليه السلام وهو في الأرض المقدسة ببناء بيت لله في الوادي غير ذي الزرع، الذي يقيم فيه إسماعيل، فتوجّه إبراهيم إلى ابنه عليهما السلام، وشاوَرَه في الأمر، ليُشركه معه في لذة العبادة والطاعة لله سبحانه وتعالى.

وقد بيّن لنا رسول الله ﷺ بعض ما جرى بينهما من حوار.

أخرج البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ ، من حديث طويل: «... ثم جاء إبراهيم بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبْلاً له، تحت دوحة، قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد.

ثم قال: يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربّك.

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك.

قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً – وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حولها .

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر، فوضعه له..» [(1)].

كلف إبراهيم ابنه عليهما السلام بمساعدته في بناء الكعبة عن طريق المحاورة والشورى، حيث استشاره في معاونته، فأبدى إسماعيل الموافقة، وأشار عليه بتنفيذ أمر الله، وأعلن مساعدته، وقاما معاً ببناء الكعبة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، حيث رقم: ٣٣٦٤.

وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

ثالثاً: إخوة يوسف يتشاورون بشأن أخيهم الموقوف:

لإخوة يوسف عليه السلام جلستان للشورى:

الأولى: جلسة شورى مذمومة سيئة، عندما تشاوروا في كيفية التخلص من يوسف، واتفقوا على إلقائه في البئر، وسنعود لها فيما بعد إن شاء الله.

الثانية: جلسة شورى طيبة، وهي التي تعنينا هنا.

جاء إخوة يوسف عليه السلام إليه وهو في مصر، ليشتروا منه الطعام، وطلب منهم أن يُحضروا معهم في المرة القادمة أخاً لهم من أبيهم، غيرَ شقيق لهم، وأحضروا أخاهم معهم، ودبّر يوسف عليه السلام وسيلةً ليحتفظ بذلك الأخ عنده.

وضع يوسف عليه السلام صُواع الملك في رَحْل أخيه، دون علم أحد، وفقد الموظفون الصّواع، وفتّشوا عليه، ووجدوه في رَحْل ذلك الأخ، وأخذه يوسف عنده بتهمة السرقة.

وفوجئ الإخوة بما رأوا، فقد عاهدوا أباهم على أن يعودوا بأخيهم معهم، وها هو أخوهم يؤخذ بتهمة السرقة، فكيف يواجهون أباهم؟ .

عرضوا على عزيز مصر – يوسف – أن يطلق سراح أخيهم، وأن يأخذ أحدهم مكانه، لكن عزيز مصر رفض، وأصرّ على أخذ من وُجد الصواع عنده[1].

ولم يجد الإخوة وسيلة إلا أن يجتمعوا سراً فيما بينهم، وليتشاوروا في الأمر، ويتدارسوا كيفية تخليص أخيهم، أو إخبار أبيهم.

---

(١) للوقوف على هذه المشاهد واللقطات: انظر سورة يوسف آيات:٥٨-٧٩.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٠-٨٢].

عبرت الآيات عن جلسة شورى الإخوة بقولها: «خلصوا نجياً».

أي: لما استيأسوا من إنقاذ أخيهم ذهبوا إلى مكان خاص، ليتناجوا ويتدارسوا ويتشاوروا.

وبعد حوارٍ وكلام، أداره أخوهم الكبير، بعدما سمع ما أشاوروا عليه به، ذكّرهم بما فعلوه من كيد سابق ضدّ يوسف، وما عاهدوا عليه أباهم بإعادة أخيهم، وأخبرهم أنه سيبقى في مصر، لمحاولة تخليص أخيهم، ولن يغادرها حتى يأذن له أبوه، أو يفرِّج الله الأزمة.

وأمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم، وأن يخبروه بتفاصيل ما جرى، وأن أخاهم غير الشقيق أُخِذَ من قِبَل العزيز بتهمة السرقة، وأن أخاهم الكبير بقي في مصر لمتابعة الموضوع. وإن شك في صدقهم فليسأل غيرهم، القرية التي كانوا فيها، والعير التي أقبلوا فيها.

المهم أن الآيات عبرت عن تشاور الإخوة المجتمعين بقولها: «خلصوا نجياً..».

واعتبرناها شورى إيجابيةً خيرة، لأن الإخوة كانوا مؤمنين، وكانوا تائبين من جريمتهم السابقة في التآمر على يوسف، وكانوا حريصين على إنقاذ وتخليص أخيهم الموقوف.

رابعاً: أخت موسى الرضيع تشير على آل فرعون:

بعدما وضعت أم موسى ابنها، أمرها الله أن تضعه في التابوت، ثم تضع التابوت في اليم. ونفذت الأم أمر الله، وحمل اليم التابوت إلى قصر فرعون، وأخذ آل فرعون

التابوت، وأخرجوا الوليد منه، أحبّته امرأة فرعون، وتبنّته، وأمرت فرعون أن يبقيه عندها، فنفّذ ما أرادت..

ويبكي الوليد الرضيع، وتقدمت المراضع لإرضاعه، ولكن الله أمر شفتيه الصغيرتين برفض جميع «الأثداء»، وعدم الرضاعة منها !! .

وصارت حياة الوليد الرضيع في خطر، وأسقط في أيدي جميع آل فرعون، وصاروا حريصين على إنقاذ حياة الوليد، راضين بأي مشورة تقدّم لهم، تُنقذ حياته، وتحقق إرضاعه.

في هذا الظرف المناسب تقدمت أخت موسى الوليد، وكانت كبيرةً واعيةً ناضجة، تراقب تطورات الأحداث المثيرة، وأشارت على آل فرعون بامرأة مرضع يقبلها الوليد، وكانت «شورى» أخت موسى وضعاً للأمر موضعه الصحيح، حيث أشارت عليهم بإعادته إلى أمه، دون أن يعلموا أنها أمه التي ولدته! ودون أن يعلموا أن المشيرة هي أخته!! .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:١١-١٣].

قدمت أخت موسى عليه السلام مشورتها بقولها: «هل أدلكم»، وهذا استفهام منها للتشويق والتلطف في تقديم رأيها.

خامساً: مشاورة ملكة سبأ لقومها بشأن رسالة سليمان عليه السلام:

أخبر الهدهد سليمان عليه السلام عن مملكة سبأ، وعبادتهم للشمس من دون الله، وعن عرش ملكتهم العظيم. وحمّله سليمان عليه السلام رسالة إليهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وطلب منه الانتظار لمعرفة موقفهم. قال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل:٢٨].

وحمل الهدهد الكتاب من سليمان عليه السلام، وذهب به إلى سبأ، وألقاه إلى الملكة. ولما قرأت الملكة الكتاب، فهمت دعوة سلمیان عليه السلام، وأنها إن لم تدخل في الإسلام، فسوف يُعلن عليها الحرب، وعرفت أنها مُقدمة على تطورات خطيرة، وأحداث كبيرة.

جمعت ملكة سبأ مجلس الشورى عندها، ودعت الملأ المستشارين إلى التفكير في الأمر، وطلبت مشورتهم، وأخبرتهم أنها لا تقطع أمراً من أمور الدولة إلا بعد موافقتهم ورضاهم واستشارتهم..

قال الله عز وجل: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٢٩-٣٥].

وعندما ننظر في هذه المحاورة الاستشارية بين ملكة سبأ وبين الملأ المستشارين من قومها، فإننا نخرج بما يلي:

١- نظام الحكم في مملكة سبأ اليمنية العربية كان «ملكياً شورياً»، على رأسه الملكة، وحولها ملأ مستشارون من قومها.

٢- كانت الملكة تشاور الملأ من قومها في القضايا العامة، وتلتزم بما يشيرون به عليها، ولا تتخذ قراراً، ولا تقطع أمراً، إلا بعد استشارتهم، بدليل قولها: «ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون».

٣- عبّرت الملكة عن طلب المشورة من مستشاريها بقولها: «يا أيها الملأ: أفتوني في أمري». فهي تطلب الفتوى، لتعرف كيف تتصرف.

٤- العجيب أن المستشارين في هذه المسألة لم يشيروا عليها بشي، بل أعادوا القرار إليها، وما هم إلا قوم مأمورون، ينفّذون ما تأمرهم به: «والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين». الأمر أمرها، والرأي رأيها، والقرار قرارها.

٥- صارَحوها بأنهم أمامها لا يجيدون إلا التنفيذ، فهم أولو قوةٍ وأولو بأس شديد، أما التفكير فلا يجيدونه، التفكير والرأي والقرار لها، والفعل والتنفيذ عليهم: «قالوا نحن أولو قوة، وأولو بأس شديد، والأمر إليك...» فماذا تقول في هؤلاء المستشارين؟ تخبرهم الملكة أنها بحاجة ماسة لرأيهم، والبلاد بحاجة ماسة لرأيهم، فيخبرونها بأنهم ليسوا أولي فكر ورأي ومشورة، وإنما أولو قوة في التنفيذ، وبأس شديد في العمل!! .

٦- وبما أن المستشارين جعلوا الرأي والأمر والقرار إليها، وفوّضوها في الرد المناسب على رسالة سليمان ﵇، فقد كان قرارها وتصرفها يتفق مع طبيعة النساء في الغالب.

إن معظم النساء لا يفضلن الحرب والقتال وسفك الدماء، وإنما يفضلن المسالمة والمهادنة والملاينة، وعندما تلي المرأة أمر الأمة، فإنها – غالباً – تميل إلى السلام والموادعة.

كان رأي ملكة سبأ نبذ الحرب والقتال، خوفاً على بلدها من التدمير والفساد، وعلّلت ذلك بقولها: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون».

قررت ملكة سبأ موادعة سليمان ﵇ ومصانعته، بإرسال الهدايا له، لعلها تسكته عن دعوته، وتكفُّه عن التوجه إليها واحتلال بدلاها: «وإني مرسلة إليهم بهدية، فناظرة بم يرجع المرسلون».

لكن سليمان ﵇ كان ملكاً عادلاً، وكان نبياً رسولاً، لذلك رفض هذه المحاولة من ملكة سبأ، وأعاد الهدية مع حامليها، وهدّد بغزو بلادها، إن لم تأتِ مسلمة مع قومها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٦-٣٧].

وبعد تطورات ومفاجآت، جاءت ملكة سبأ مسلمةً لله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

الشورى في آيات قصة ملكة سبأ، وردت بصيغة الفتوى، وبإعلانها الالتزام بما يشيرون به: «أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون...».

سادساً: الشورى في قصة أصحاب الكهف:

وردت الشورى في قصة أصحاب الكهف مرتين:

الأولى: بعدما استيقظ أصحاب الكهف من نومهم، الذي استمرّ ثلاثمائة وتسع سنين، صاروا يتساءلون ويتشاورون فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١٩].

كان أصحاب الكهف سبعة، ولما جلسوا يتشاورون فيما بينهم، طرح أحدهم سؤالاً، فقال: كم لبثتم في نومكم؟ .

فأجاب آخر منهم: لبثنا نائمين يوماً أو بعض يوم.

ولم يلاحظوا التغير الذي طرأ طيلة مدة نومهم، ولم يَدْروا أنهم ناموا أكثر من ثلاثة قرون! .

وكان شخص آخر منهم أكثر بصيرةً وإدراكاً، حيث فوّض العلم بذلك إلى الله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

ونتج عن جلسة الشورى التي عقدوها عدم الخوض في تحديد مدة نومهم، لعدم إمكانية ذلك من قِبَلِهم، وفوّضوا ذلك إلى الله، واتفقوا على البحث في المهم الضروري النافع، وهو إحضار الطعام، فبعثوا أحدهم إلى المدينة ليُحضر لهم الطعام، وأمروه بالحذر والتلطف، لئلا ينكشف أمرهم عند قومهم: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف:١٩-٢٠].

الثانية: تشاور أهل المدينة في أمر أصحاب الكهف: وذلك أن أهل المدينة عرفوا الشخص المبعوث من أصحاب الكهف ليشتري لهم الطعام، فعثروا عليهم وعلى كهفهم، ولما أتوهم داخل الكهف وجدوهم قد ماتوا، ماتوا موتاً حقيقياً في هذه المرة، ولم تخبرنا آيات سورة الكهف عن تفاصيل ذلك.

المهم أن أهل المدينة تشاوروا في أصحاب الكهف، وتنازعوا في التصرف المناسب بهم، واختلفوا في تحديد عددهم، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢١-٢٢].

تنازع أهل المدينة أثناء مشاورتهم بشأن أصحاب الكهف، واختلفوا في التصرف المناسب، وطرحت عدة آراء حول الموضوع سجلت الآيات رأيين منها:

الأول: قال أصحابه: ابنوا على كهف أصحاب الكهف بنياناً، وأبقوهم داخله مكرّمين، وفوّضوا العلم بهم إلى الله، فنحن لا نعلم عنهم شيئاً: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾.

الثاني: قال أصحابه: لا نريد أن نبني عليهم بنياناً عادياً، إنما هم أكرم من ذلك، والذي يليق بهم هو بناء مسجد عليهم، بحيث يأتي الناس إلى هذا المسجد لعبادة الله فيه، وهذا أفضل لهم لأنهم يُصلُّون بالقرب من أصحاب الكهف! .

وكان أصحاب الرأي الثاني هم المتنفذين المسؤولين في قومهم، ولذلك قدّموا رأيهم بصيغة الجزم والحزم والتوكيد: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

ويبدو أنهم نفذوا رأيهم، وبنوا عليهم المسجد.

وبعدما بُني المسجدُ، ومات ذلك الجيل، ومرّت السنوات، جاءت أجيال جديدة، لم تعرف عدد أصحاب الكهف، واختلف الناس في ذلك، ومن الأقوال التي أوردتها الآيات:

الأول: هم ثلاثة، رابعهم كلبهم.

الثاني: هم خمسة، سادسهم كلبهم.

الثالث: هم سبعة، وثامنهم كلبهم.

ويبدو أن القول الثالث هو الراجح، بدليل أن الآية عقّبت على القولين الأول والثاني بأنهما رجمٌ بالغيب «رجماً بالغيب» وهذا وصفُ ذم. بينما سكتت عن القول الثالث، وبيّنت أن بعض الناس قد يعلم عدتهم: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

المطلب الثاني
وقائع من الشورى السيئة الشريرة

أولاً: الرهط من قوم ثمود يتآمرون على صالح ﷺ :

دعا صالح ﷺ قومه ثمودَ إلى عبادة الله وحده، وإلى طاعته هو، وتنفيذ ما يأمرهم به، ونهاهم عن طاعة الملأ المسرفين الكافرين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٠-١٥٢].

ولكن الملأ المفسدين المسرفين لم تعجبهم دعوتُه، ولم يستجيبوا لها، وأصروا على كفرهم وطغيانهم.

اجتمع تسعة مفسدون منهم، وتآمروا على صالح ﷺ ، وتشاوروا في كيفية التخلص منه. قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٤٨-٥١].

لما اجتمع الرهط التسعة، وتشاوروا في قتل صالح ﷺ، اتفقوا على أن يهاجموا بيته ليلاً، والناس نيام، ثم يقومون بقتله هو وأهله جميعاً، ويخرجون من البيت دون أن يعلم بهم أحد. وفي الصباح يُظهرون المفاجأة والتأثر من تلك المجزرة الليلية، ويشتركون في تقديم العزاء لوليِّ صالح وأهله، ويُقسمون الأيمان لذلك الولي أنهم لا علم لهم بتلك المجزرة، ولا بمن ارتكبوها.

وبعدما اتفقوا على هذا الرأي الشيطاني الشرير، تقاسموا بالله فيما بينهم على تنفيذه، وتعاهدوا عليه.

ولكن الله كان لهم بالمرصاد، حيث أبطل كيدهم ومكرهم، وأنجى صالحاً ﷺ مما خططوا وبيّتوا، ودمَّرهم وقومهم الكافرين أجمعين.

ثانياً: تآمر إخوة يوسف عليه وهو صغير:

حَقَدَ إخوة يوسف الكبار عليه وهو غلام صغير، واتهموا أباهم النبيَّ يعقوب ﷺ بالانحياز إلى أخيهم، ومحبته أكثر منهم، وحكموا عليه بالضلال المبين بسبب ذلك. قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف:٧-٨].

ودفعهم حقدُهم الأسودُ إلى التآمر على يوسف الصغير والكيدِ به، فذهبوا إلى مكان خاص، وجلسوا يتشاورون في كيفية التخلص من الغلام، وطرحوا في تلك الجلسة عدة آراء، هي:

١- أشار أحدهم بقتل يوسف.
٢- وأشار آخر بإبعاده عن أبيه، وإرساله إلى بلاد أخرى.
٣- وأشار ثالث بإلقائه في قعر بئر مظلم على طريق التجار.

وبعد مشاورات ومداولات اتفقوا على الرأي الثالث، وأجمعوا على التحايل على أبيهم، ليأذن بإرسال أخيهم معهم، وبعد ذلك، يقومون بإلقائه في غيابة الجُبّ، ليأخذه بعض التجار المسافرين معهم، ويذهبوا به إلى بلاد أخرى، وبذلك يستريحون منه.

وراود الإخوة المتآمرون الحاقدون أباهم على إرسال أخيهم يوسف معهم، وأظهروا للأب حرصهم على الغلام، ورغبتهم في تمكينه من اللعب. وأخذوا يوسف معهم بعيداً، وهناك نفّذوا ما قرروه، وألقوه في غيابة جُبٍّ على طريق القوافل.

وعاد المتآمرون إلى أبيهم عشاء، وهم يُظهرون التأثرَ والحزنَ والبكاء، وزعموا لأبيهم أن الذئب قد أكل أخاهم يوسف، بينما كانوا يتسابقون ويركضون.

قال تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:٩-١٨].

وقد اعتبر القرآن ذكر هذه الأخبارِ والمعلوماتِ والمشاوراتِ لمحمد ﷺ دليلاً على أن القرآن كلامُ الله، وأن محمداً رسولُ الله ﷺ ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٢].

ثالثاً: ائتمار ملأ فرعون بموسى قبل النبوة:

بعدما شبّ موسى عليه السلام في بيت فرعون، دخل المدينة يوماً، على حين غفلة من أهلها، فوجد في المدينة رجلين يقتتلان، أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى ضدّ القبطي، فوكز موسى القبطيّ فقتله.

وعلم الملأ من قوم فرعون بأن موسى هو الذي قتل القبطي، فاجتمعوا يتشاورون في أمر موسى، وائتمروا به، واتخذوا قرارهم بقتله.

وعلم بذلك الائتمار والقرار أحد المقربين منهم، وكان رجلاً مؤمناً صالحاً، محباً لموسى ﷺ، وعلى صلة به.

فأتاه من أقصى المدينة يسعى إليه، ليسبق رجالَ الملأ القادمين لقتله، وأخبره بما اتفقوا عليه، ونصحه بالخروج من المدينة ليسلم من كيدهم وشرهم، فخرج موسى ﷺ من مصر إلى مدين.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٠-٢٢].

عبّرت الآيات عن استشارة الملأ فيما بينهم بشأن موسى بلفظ الائتمار. ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ والائتمار من التآمر القائم على الكيد.

رابعاً: فرعون يستشير الملأ بشأن موسى الرسول:

بعد سنوات أقامها موسى ﷺ في مدين، بعثه الله نبياً رسولاً، وكلّفه بالذهاب إلى فرعون الطاغية، وجعل معه أخاه هارون نبياً، ودخل موسى على فرعون، وأبلغه رسالته، وطلب منه فرعون دليلاً، فقدّم له آيتين: عصاه تنقلب حيةً تسعى، ويده السوداء تصبح بيضاء من غير سوء.

جمع فرعون الملأ المستشارين من قومه، واستشارهم في التصرف المناسب مع موسى، فقالوا له: إن موسى ليس نبياً، بل هو ساحر من السحرة، بدليل عصاه ويده، وبما أنه ساحر فلا بد له من سحرة، ليواجهوه ويغلبوه.

أشار الملأ المستشارون على فرعون بأن «يُرْجِهَ» موسى وأخاه، أي: يحسبهما عنده، وأن يجمع السحرة من كل مدن وقرى الدولة، وأن يحشرهم عنده في العاصمة، وأن يُجري

بينهم وبين موسى مباراةً حاسمةً في السحر، وهم موقنون بأن السحرة سوف يغلبون موسى.

ونفذ فرعون ما أشار به عليه الملأ، وجمع الناس لمشاهدة المباراة، وحدد موعدها بأن تكون «يوم الزينة»، وحدد وقتها بأن يُجمع الناس ضحى، وانتهت المباراة بانتصار موسى، وإيمان السحرة بالله رب العالمين.

وأورد القرآن مشهد استشارة فرعون للملأ من قومه في أكثر من موضع، ويهمنا أن نقف مع آيات تتحدث عن ذلك في سورة الشعراء، وفي سورة الأعراف.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

و«أرْجِهْ» فعل أمر، من الإرجاء، وهو التأخير. أي أرْجِئ موسى وأخاه هارون، وأخِّرهما واحبسهما عندك، واجمع السحرة من البلاد، وكلف الشرطة أن يأتوا بهم أجمعين.

تخبر هذه الآيات من سورة الشعراء أن فرعون هو الذي استشار الملأ من حوله: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

وتخبر الآيات أن الملأ المستشارين أشاروا على فرعون بحبس موسى وإحضار السحرة: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

أما آيات سورة الأعراف التي تتحدث عن نفس الموضوع، فإنها تنسب الاستشارة إلى الملأ من قوم فرعون، وليس إلى فرعون نفسه، وتنسب تقديم المشورة إلى آخرين من غير الملأ. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٢].

فما تقرره آيات سورة الأعراف غير ما تقرره آيات سورة الشعراء عن نفس الموضوع. فمن هو الذي استشار؟ فرعون أم الملأ من قومه؟ ومن هم الذين أشاروا؟ الملأ أم قوم آخرون؟ وكيف نجمع بين الآيات في السورتين؟ .

ليس هناك تعارض حقيقي بين الآيات، فقد استشار فرعون الملأ، واستشار الملأ آخرين، وأشار الملأ على فرعون، وأشار آخرون على الملأ.

وهذا معناه أن الاستشارة تمت على مرحلتين، تحدثت آيات سورة الشعراء عن المرحلة الأولى، وتحدثت آيات سورة الأعراف عن المرحلة الثانية.

المرحلة الأولى: جمع فرعون الملأ الخاصين، وأركان حكمه المقربين، والتقى بهم التقاءً سرياً خاصاً، وتدارسوا أمر موسى ﷺ.

أخبر فرعون ملأه المقربين أن موسى ساحر عليم، يريد أن يُخرجهم من أرضهم بسحره: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ ﴾ .

وقد قال لهم هذا قبل أن يستشيرهم بقوله: «فماذا تأمرون؟» وذلك ليوحي لهم بما سيشيرون به، ويُلقنَهم الشورى تلقيناً غير مباشر، فرأي فرعون في موسى أنه ساحر عليم، وأنه يريد تخريب البلاد بسحره.

وبما أن هذا هو رأي فرعون في موسى، وهذا حكمه عليه، فمن الذين سيخالف رأيه، ولو كان من أركان حكمه؟ .

ولذلك كان رأي المستشارين المقرّبين في موسى نفسَ رأي فرعون، وكل ما في الأمر أنهم أشاروا على فرعون بطريقة إجرائية عملية في مواجهة موسى، وتطبيق حكم فرعون عليه: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾ .

عند ذلك اتفق فرعون مع ملئه المستشارين على ذلك الأمر، وأجمعوا على ذلك القرار.

المرحلة الثانية: بعد اتفاق فرعون مع مستشاريه الخاصين، أراد أن يظهر أمام نظامه ووجوه قومه بمظهر المستشير الحريص على العودة إلى الرعية، وأوحى للملأ المقربين بترتيب لقاء موسّع لوجوه القوم للتشاور في قضية موسى عليه السلام.

رتّب الملأ الخاصون اللقاء الموسّع لوجوه القوم مع فرعون، وأخبروا المستشارين الجدد خبر موسى، وقالوا لهم نفس العبارات التي قالها فرعون عن موسى من قبل.

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾.

ثم استشاروا الملأ الجدد بقولهم لهم: «فماذا تأمرون؟».

إن المستشارين الخاصين يريدون أن يوحوا للمستشارين العامين الجدد بما يقولونه ويقررونه ويشيرون به، وكأنهم يُعرِّفونهم بأن هذا هو رأي فرعون، وهم بهذا يلقِّنون الملأ الجدد بما لقنهم فرعون من قبل.

وما كان من المستشارين الجدد إلا أن أشاروا بما أشار به المستشارون الخاصون من قبل: «قالوا: أرجه وأخاه، وأرسل في المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم».

وبهذا نرى أن الشورى في النظام الفرعوني مسرحية هزلية، وتمثيلية إعلامية، أراد بها فرعون تقديم نفسه لرعيته، وإظهار نفسه بأنه حريص على رأيهم واستشارتهم، وعلى تنفيذ ما يشيرون عليه به.

بينما يلقِّن ملأه الخاصين بما يريد من وراء الكواليس، وهم يلقنون الآخرين بما يريد من وراء الكواليس، ويظهرون أمام الرعية بحرصهم على الرعية والتقرب إليها.

والخلاصة في آيات السورتين: الشعراء والأعراف: أن ملأ فرعون ملآن: ملأ مقربون من فرعون، وملأ آخرون أعم منهم.

والمستشارون فريقان: مستشارون خاصون، ومستشارون عامون.

تحدثت آيات سورة الشعراء عن الاستشارة الخاصة، التي استشار فرعون فيها الملأ الخاصين، والمستشارين المقربين.

وتحدثت آيات سورة الأعراف عن الاستشارة الثانية العامة، التي استشار فيها الملأ الخاصون الملأ العامين، ولقّنوهم برأي فرعون بطريقة غير مباشرة.

وكانت نتيجة الشورى في المرحلتين والجلستين واحدة، حيث أيّد الفريقان رأى فرعون في موسى ﷺ، ووافقوه على حكمه، واتفقوا على طريقة تنفيذ ذلك الحكم.

وصدر رأي فرعون باسم المجلسين، مجلس الشورى الخاص، ومجلس الشورى العام! وانطلت مسرحية الاستشارة على الرعية!! .

خامساً: فرعون يستأذن في قتل موسى وموقف الرجل المؤمن:

أشارت سورة المؤمن – سورة غافر – إلى استشارة أخرى، طلبها فرعون من الملأ بشأن موسى ﷺ . وكانت هذه الاستشارة الثانية بعد المباراة بين موسى ﷺ وبين السحرة، والتي أدت إلى إيمان السحرة.

ويبدو أن فرعون جمع الملأ من قومه، واستأذنهم في قتل موسى ﷺ ، وطلب مشورتهم في ذلك، وأراد أخذ موافقتهم وقرارهم. وبرّر لهم الطلب بأن موسى خطر عليهم وعلى دينهم وعلى بلادهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦].

وما كان فرعون جاداً في استشارة الملأ واستئذانهم في قتل موسى ﷺ ، فهو يعلم أنهم معه، ولا يُخالفون له رأياً، ولا يُنكرون له فعلاً، ولو قتل موسى قبل استشارتهم لما أنكر عليه أحد منهم.

إذن لماذا يستأذنهم ويستشيرهم؟ .

يبدو أنه أراد تحقيق أمرين من هذه الاستشارة:

الأول: الظهور بمظهر القريب منهم، المستشير لهم، الذي يعرف قدْرَهم، فلا يهملهم ولا يتخذ قراراً دونهم.

الثاني: إشراكهم معه في تحمل مسؤولية قتل موسى، ليشعرهم أنهم قتلوا موسى معه، ولم يقتله وحده.

ولا تذكر آيات سورة غافر ردّ الملأ المستشارين على فرعون، لأن موقفهم معروف من خلال آيات أخرى، حيث كانوا موافقين له، يشيرون عليه بما يوحي به إليهم.

لكن آيات سورة غافر تبرز لنا موقفاً إيمانياً عظيماً لرجل مؤمن من آل فرعون، كان يكتم إيمانه، ويبدو أنه كان حاضراً مع الملأ تلك الجلسة الاستشارية.

أشار الرجل المؤمن بغير ما يريد فرعون، وردّ على فرعون دعوته، ودافع عن موسى عليه السلام دفاع الرجال المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

وقدّم الرجل المؤمن بياناً إيمانياً دعوياً لفرعون وملئه وقومه، وأبطل اتهام فرعون لموسى عليه السلام.

وفوجئ فرعون بموقف ذلك الرجل المؤمن، وعجب كيف يجرؤ أحد آله على مخالفته وردّ دعوته، وكيف يشير عليه بغير ما يريد، وكيف يخرج عن اللعبة الاستشارية الفرعونية!!.

عند ذلك ظهر فرعون المستشير على حقيقته، حاكماً ظالماً، وطاغيةً مستبداً، وأزال ذلك القناع الاستشاري، الذي حاول أن يبدو به أمام ملئه، وألغى تلك المشورة التي طلبها منهم، وخاطبهم بعبارة استبدادية صريحة، سجّلها قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

ولم يسكت الرجل المؤمن، صاحب الموقف العظيم على هذه الدعوة من فرعون، ولم يرهبه بطش فرعون ولا استبداده، ودعا القوم ليكونوا معه، ويتّبعوه ويسيروا معه في طريق الإيمان. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨].

وتَعجبُ من تحدي الرجل المؤن لفرعون، والمجاهرة بمخالفته، والرد عليه، فرعون يقول لقومه: «ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد».

والرجل المؤمن يُكذِّب فرعون، ويقول: «يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد».

ويدعو الرجل قومه إلى المقارنة بين الدعوتين الموجَّهتين لهم: دعوة فرعون لهم التي اعتبرها دعوةً إلى النار، ودعوته لهم إلى الجنة. قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

ونشير إلى ما خُتمت به آيات قصة مؤمن آل فرعون، من النهاية السعيدة لذلك الرجل المؤمن، بسبب إيمانه وصدقه، وما أشار به من الرأي الصادق الشجاع، والنهاية التعيسة البائسة لأولئك الملأ المستشارين، الذين كانوا أتباعاً مستضعفين لفرعون، يشيرون عليه بما يريد منهم.

قال تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤-٤٨].

من هذه الوقائع الاستشارية السيئة في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، نرى أن فرعون قد استشار الملأ من قومه ثلاث مرات:

١ - استشارهم في كيفية التخلص من موسى عليه السلام، لما قتل القبطي.

٢- واستشارهم في كيفية مواجهة موسى بعدما دعاه إلى الله، وقدّم له الأدلة على نبوته.

٣- واستشارهم في كيفية التخلص من موسى وقتْله، بعدما اتبعه السحرة وفريق من قومه.

ورأينا كيف أن استشارة فرعون الشريرة السيئة في هذه الوقائع الثلاثة كانت مسرحية تمثيلية هزلية، وأن الملأ المستشارين كانوا يشيرون عليه بما يريد، وأن فرعون كان في الحقيقة ظالماً مستبداً، وليس استشارياً عادلاً.

ثم رأينا النتيجة المرة لغياب الشورى الحقيقية في النظام الفرعوني، حيث خرّب فرعون في استبداده البلاد والعباد، وقاد جيشه وملأه إلى الهلاك والغرق في الدنيا، وقادهم يوم القيامة إلى جهنم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

وهذه هي النتيجة المرّة المظلمة لكل نظام تغيب عنه الشورى الحقيقية، ويُحال بين الناس وبين تقديم آرائهم بحرية وحيادية ونزاهة، ويتحول الحاكم إلى مستبد طاغية ظالم!! .

سادساً: قريش تتشاور في محاربة الرسول ﷺ والقرآن:

لما سمع كفار قريش القرآن من رسول الله ﷺ كفروا به وحاربوه، وزعموا أنه ليس من كلام الله، وأطلقوا حوله شبهات كثيرة، فقالوا: إنه سحر، وإنه شعر، وإنه كذب، وإنه أساطير الأولين.

وتواصوا فيما بينهم على عدم السماع للقرآن، والتشويش على رسول الله ﷺ، ليحولوا بينه وبين إسماع الآخرين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وأراد الملأ الكفار من زعماء قريش الاتفاق على رأي موحد، يقولونه في القرآن، وينشرونه بين الناس، وبخاصة القادمين من المناطق الأخرى للحج، لأن الرسول ﷺ سيلتقي بالناس في موسم الحج، ويسمعهم القرآن، وقد يتأثرون به ويتبعونه.

دعا الملأ من قريش إلى لقاء، وجلسوا يتشاورون فيما بينهم، ويتدارسون المسألة، ويُقلبون وجوه النظر، بهدف الخروج من تلك الجلسة الاستشارية بقرار موحد، وكان

«الوليد بن المغيرة» حاضراً ذلك الاجتماع، وهو زعيم من كبار زعمائهم، يرجعون إليه، ويوافقونه فيما يراه.

أورد ابن إسحاق في السيرة بعض الآراء التي طُرحت في تلك الجلسة الاستشارية، وبعض الحوار الذي جرى بين المتحاورين.

قال: «إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم.

فقال لهم: يا معشر قريش: إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيُكذِّب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأَقِمْ لنا رأياً نقُلْ به.

قال: بل أنتم قولوا، وأنا أسمع! .

قالوا: نقول: محمد كاهن.

قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سَجْعه!.

قالوا: نقول: محمد مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه.

قالوا: نقول: محمد شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله.

قالوا: نقول: محمد ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحّار وسِحْرهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل!

وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: محمد ساحر، جاء بقول هو سحر، يُفرِّق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته!! .

فتفرقوا عنه بذلك!» [1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١:٢٨٨-٢٨٩.

إن نتيجة جلسة الشورى مضحكة سخيفة، وإن الوليد بن المغيرة يعلم أن الناس لا يُصدقون ما سيقولونه عن القرآن، ولهذا ردّ جميع الاقتراحات المطروحة، لأنها لا تثبت أمام العقل والمنطق: «ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل».

وصرّح الوليد أن الناس لا يُصدِّقون اتهام محمد ﷺ بأنه كاهن، أو شاعر، أو مجنون، أو ساحر، ولا يُصدِّقون أن القرآن كهانة، أو جنون، أو شعر، أو سحر.

لكن لا بد من أن يقولوا، ولو كانوا غير مقتنعين، بما سيقولونه، وإن كان الناس لا يصدِّقون ما سيقولونه! فلما طلبوا من الوليد أن يقول كلاماً ليقولوا به، قال نفس الكلام الذي نفاه: محمد ساحر، والقرآن سحر!! .

وقد سجلت آيات القرآن النتيجة السخيفة المضحكة التي خرج بها الملأ المتشاورون، والرأي المتهافت للوليد بن المغيرة الذي نشروه بين الناس، وصوّرت الآيات الوليد وهو يكدّ ذهنه ويعصر فكره، وعرضت له صورة منفرة ساخرة.

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:١١-٣٠].

سابعاً: قريش تتشاور ضد الرسول ﷺ ليلة الهجرة:

لما بدأ الصحابة يهاجرون من مكة إلى المدينة خافت قريش أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وبذلك ينتشر دينُه، ولا يقدرون على مقاومته.

فتداعى زعماء قريش إلى اجتماع مغلق، ليتشاوروا في الموضوع، ويتَّفقوا على قرار، وحضر ذلك الإجماع إبليس في صورة شيخ نجدي.

وقد سجّل ابن إسحاق بعض ما جرى في ذلك الاجتماع الاستشاري: «فحذروا خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، فاجتمع الملأ منهم في دار الندوة، يتشاورون فيها، وما يصنعون برسول الله ﷺ.

فاعترضهم «إبليس» في صورة شيخ نجدي. وقال لهم: أنا شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتّعدتم له واجتمعتم من أجله، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدِمَكم منه رأياً ونصحاً.

فدخل معهم، يسمع ما يشيرون به. وطُرِحت بعض الآراء في الإجماع، يشير بها أصحابها إلى التصرف المناسب.

قال أحدهم: احبسوا محمداً في الحديد، وأغلِقوا عليه باباً، ثم تربّصوا به الموت.

فقال الشيخ النجدي – إبليس – : لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه، ليُخرجَنَّه أصحابه، ولينتزعَنَّه من أيديكم.

وقال آخر: نُخرجه من بين أظهرنا، وننفيه من بلادنا وإذا أُخرج عنا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيث وقع.

فقال النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، لئن أخرجتموه ستتابعه العرب، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم.

وقدّم أبو جهل الرأي الثالث: وأشار على الجالسين قائلاً: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، وعندها يتفرق دمه في القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا منا بالدية!!.

وعلق الشيخ النجدي – إبليس – على ما أشار به أبو جهل قائلاً: القول ما قال هذا الرجل، هذا هو الرأي الذي لا رأي غيره.

أجمع الزعماء المتشاورون على رأي أبي جهل، بعدما زكّاه إبليس وأقرّه، واعتمدوه، وجمعوا الشباب على باب بيت الرسول ﷺ ليلة الهجرة، ومعهم سيوفهم، لينفِّذوا ما اتفق عليه زعماء قريش.

ولكن الله حمى رسوله ﷺ من مكرهم وكيدهم، فخرج من وسطهم ليلاً، سالماً، بحفظ الله له، ثم هاجر إلى المدينة ﷺ[1].

وقد أشار القرآن إلى تلك الجلسة الاستشارية الشريرة، وإلى بعض الآراء الشيطانية التي طرحت فيها، والمكائد التي ذُكرت أثناءها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

ذكرت الآية الآراء الثلاثة التي طُرحت في الجلسة:

الأول: «لِيُثْبِتوك»: والإثبات هو الإلقاء في السجن.

الثاني: «أو يقتلوك»: قتل الرسول ﷺ ، وهو الذي أشار به أبو جهل، ثم اعتمده المتشاورون المتآمرون.

الثالث: «أو يخرجوك»: إخراجه من مكة.

والآية اعتبرت تلك الجلسة الاستشارية مكراً، واعتبرت أصحابها المتشاورين ماكرين، وقررت أن الله هو الذي أبطل كيدهم ومكرهم: «ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين».

نكتفي بهذه الوقائع السبعة للشورى الشريرة السيئة، التي أشارت لها آيات القصص القرآني، وقد أوردنا قبلها وقائع ستة للشورى الإيجابية من القصص القرآني.

وقد لاحظنا من هذه الوقائع الثلاثة عشرة أن كلمة «شورى» لم ترد فيها باللفظ، وإنما برزت من خلالها، وقد وردت فيها ألفاظ قريبة من معنى الشورى.منها: تقاسموا بالله. ماذا تأمرون، أجمعوا أمرهم، انظر ماذا ترى، خلصوا نجياً، وهم يمكرون، أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، الأمر إليك، يمكر بك الذين كفروا.

ولاحظنا أن القرآن لم يُطلق على الشورى الشريرة السيئة كلمة «شورى» وإنما أطلق عليها ألفاظاً أخرى: مثل: مكر، كيد، إبرام، تنازع، اختصام، ائتمار،تآمر.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ٢:١٢٤-١٢٨.

وبهذا تنتهي جولتنا مع «الشورى في القرآن» باعتبارها موضوعاً قرآنياً حياتياً، تحدث عنه القرآن وقرره وأمر به، وجعله أساساً لحياة المسلمين الفردية والجماعية، ومظهراً لسعادتهم وتوفيقهم ونجاحهم. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

النموذج الثالث

تفسير موضوعي لسورة قرآنية

سورة محمد ﷺ

دراسة موضوعية

موقع السورة من القرآن:

سورة محمد هي السورة السابعة والأربعون، حسب ترتيب المصحف التوقيفي، وهي بداية ثلاث سورة مدنية – محمد والفتح والحجرات – وهذه السور الثلاثة بين عدة سور مكية

أما من حيث ترتيب النزول التاريخي فقد ذكر العلماء أن سورة محمد هي السورة التاسعة ضمن السور المدنية، نزلت قبلها سورة الحديد، ونزلت بعدها سورة الرعد(١).

وأشير هنا إلى أن ترتيب السور حسب النزول ليس دقيقاً في مجمله، ومن ثم لي يقينياً ولا يمكن الجزم به، لعدم وجود أدلة صحيحة موثوقة يعتمد عليها في ذلك، ويمكن أن نأخذ بعض الأقوال في الترتيب التاريخي من باب الاستئناس لا من باب الجزم واليقين.

المطلب الأول
المقدمة

أولاً: أسماء السورة:

ذكر العلماء ثلاثة أسماء للسورة(٢):

١- سورة محمد: وهو أشهر أسمائها، وهو الذي أطلق عليها في المصحف. وسميت به لأنه ذُكر في الآية الثانية منها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

(١) البرهان للزركشي: ١/ ١٩٤.

(٢) نظم الدر للبقاعي: ١٨/ ١٩٤

وهذا الاسم توقيفي، أي أن الله هو الذي سماها به.

٢- سورة القتال: وهو اسم توقيفي آخر، فيقال: سورة محمد أو سورة القتال.

وسميت به لأنه مذكور في الآية العشرين منها. قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ ...﴾ [محمد:٢٠].

٣- سورة الذين كفروا: وهذا الاسم مذكور في بعض كتب التفسير، مثل تفسير «نظم الدرر» للإمام برهان الدين البقاعي[1]. وسميت به لأنه مذكور في الآية الأولى منها. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:١].

وهذه الأسماء الثلاثة متناسقة مع موضوع السورة، وهو جهاد الكفار وقتالهم.

كما أن هذه الأسماء الثلاثة متناسقة فيما بينها، وتلتقي على تقرير حقيقة الجهاد في سبيل الله، وهو أصيل في هذا الدين.

والحقيقة التي نخرج بها من جمع هذه الأسماء هي: «محمد» ﷺ هو إمام المجاهدين، في «قتال» الأعداء «الذين كفروا».

ثانياً: محمد مذكور أربع مرات في أربع سور مدنية:

قبل السير مع التفسير الموضوعي للسورة، نتوقف لحظة لننظر في ورود اسم النبي المبارك ﷺ في القرآن، ونخرج ببعض اللطائف من ذلك.

«محمد» اسم النبي ﷺ، وهو مشتق من الحمد.

تقول: حمد، يحمد، حامد، محمود، أحمد، فهو محمد.

أي: أن اسم «محمد» قد جمع الاشتقاقات التي قبله.

محمد: «حامد» لله أولاً، وهو «محمود» ثانياً، محمود لصفاته وأخلاقه وأعماله، يحمده الآخرون، عليها. وهو «أحمد» من غيره لربه، وأكثر حمداً من غيره.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ١٨/ ١٩٤.

وبما أنه حامد لربه، ومحمود من غيره، وأحمد لربه من غيره، فهو «محمد» ﷺ .

ولهذا الاعتبار أخبر عيسى عليه السلام عنه بأنه اسمه «أحمد».

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

ولعل اختيار عيسى عليه السلام لاسم «أحمد» الذي هو أفعل تفضيل، للإشارة إلى فضل رسول الله محمد ﷺ ، وأنه أفضل من الأنبياء الآخرين، وكأن عيسى عليه السلام يقول: الرسول أحمد الذي يأتي بعدي، أكثر مني حمداً لله.

وقد ورد اسم «محمد» ﷺ أربع مرات، في أربع سور، وكل السور التي ورد فيها مدنية!! .

١- تكلمت آيات من سورة آل عمران عن غزوة أحد، وكان قد أشيع أثناء الغزوة أن محمداً ﷺ قد قُتل، فتأثر بعض الصحابة لذلك، ونزلت آيات من السورة تعالج ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران:١٤٤].

٢- عرضت آيات من سورة الأحزاب إلى قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكانت زوجاً لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فطلقها، ثم تزوجها الرسول ﷺ ،وقد أشاع المغرضون إشاعات عن هذا الزواج، لأن زيد بن حارثة كان قد تبناه الرسول ﷺ قبل البعثة، فكان يقال: زيد بن محمد، فلما تزوج الرسول ﷺ بزينب قال المغرضون: تزوج الرسول زوج ابنه زيدا! .

فنزلت آية تبين أنه ليس أباً لزيد، وأن الله قد أبطل التبني، وأنه لا شيء من زواجه بزينب لأنها لم تكن زوجاً لابنه.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

٣- وقال تعالى في سورة محمد عن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [محمد:٢].

٤- وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح:٢٩].

ثالثاً: لطائف من ورود «محمد» في القرآن:

عندما نمعن النظر في الآيات الأربعة من السور الأربعة، التي ورد فيها اسم محمد ﷺ، فسوف نخرج من ذلك ببعض اللطائف والدلالات، منها:

١- السور الأربعة سور مدنية.

٢- اقترن اسم محمد ﷺ في المرات الأربعة بوصف النبوة والرسالة. ففي سورة آل عمران قال: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل..» وفي سورة الأحزاب قال: «ولكن رسول الله وخاتم النبيين..». وفي سورة محمد قال: «وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق»، وفي سورة الفتح قال: «محمد رسول الله...».

واقتران اسمه ﷺ بوصف الرسالة لتقرير هذه الحقيقة وتأكيدها، فهو رسول الله وخاتم النبيين ﷺ.

٣- السور المدنية الأربعة سور جهادية، وهي: آل عمران، والأحزاب ومحمد والفتح، لأنها تتحدث عن جهاد الأعداء وقتالهم.

فسورة آل عمران نزلت بعد غزوة أحد، وآياتها تتحدث عن هذه الغزوة ودروسها.

وسورة الأحزاب نزلت بعد غزوة الخندق وغزوة بني قريظة، وآياتها تتحدث عن هاتين الغزوتين.

وسورة محمد موضوعها هو القتال، وتتحدث عن قتل الكفار وضرب رقابهم وأخذ الأسرى منهم.

وسورة الفتح تتحدث عن صلح الحديبية وحكمته، وتشير إلى فتح خيبر وأخذها من اليهود، وتبشر بفتح مكة.

٤- ورود اسم محمد ﷺ في أربع سور مدنية جهادية يشير إلى عمق الخط الجهادي في شخصية وسيرة رسول الله ﷺ .

وعنوان سيرة الرسول ﷺ هو: «سيرة نبي إمام مجاهد».

ولا تعارض بين كون النبي ﷺ إمام المجاهدين، وأنه بُعث بالجهاد، وبين كونه رحمةً للعالمين.

محمد ﷺ «نبيُّ المرحمة ونبيُّ الملحمة»:

هو نبي مرحمة ورحمة لمن آمن به واتبعه، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

بينما هو نبي الملحمة والجهاد لمن كفر به وحاربه من الكفار، سواء كانوا منافقين أو يهوداً أو نصارى أو مشركين، حيث أمره الله بجهاد هؤلاء الكفار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة:٧٣].

حتى جهادِ الرسول ﷺ للكفار من باب رحمته بهم، فهو يقاتل أئمة الكفر، والأنظمة والجيوش الكفارة، ولا يحارب الشعوب الكافرة نفسها.

إن الجهاد في الإسلام موجّه للأنظمة والسادة والملأ من الكفار، وهم الذين يقفون أمام الإسلام وانتشار أنواره، ويصدّون شعوبهم وأتباعهم عن الدخول فيه، ويحرمونهم من هذه الرحمة الربانية.

وعندما يُقاتل هؤلاء الأئمة والقادة والجيوش، فإنه يتحطم الحاجز المادي الذي يحول بين الشعوب وبين الحق،ولهذا أمر الله بقتال أئمة الكفر هؤلاء. قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة:١٢].

وعندما يُقضى على «أئمة الكفر» وتتحطم الجيوش الكافرة، تختار الشعوب ما تريد بحرية، وبدون تهديد أو إكراه، فمن شاء الإيمان منهم آمن، ومن شاء منهم الكفر كفر، وعندها يهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

فقتال محمد ﷺ أئمة الكفر رحمةٌ منه بتلك الشعوب الكافرة المستضعفة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٧-١٠٨].

رابعاً: قتال محمد ﷺ للكفار محمود:

قلنا: إن أسماء هذه السورة ثلاثة: محمد، والقتال، والذين كفروا.

وجمعنا هذه الأسماء الثلاثة في جملة صادقة: محمد يقاتل الكفار.

ونرى ارتباطاً وثيقاً بين هذه الأسماء الثلاثة للسورة، دالاً على طبيعة هذه السورة وموضوعها.

فاسم محمد ﷺ مشتق من الحمد، فهو حامد ومحمود وأحمد، والنتيجة أنه محمد ﷺ.

وهذا معناه أن كل أفعال محمد ﷺ محمودة، ليس فيها ما يُذمّ أو يُعاب، فقتاله للكفار محمود، وهو في قتاله وجهاده حامد لله سبحانه.

أما الكفار فإن أفعالهم مذمومة ومنكرة.

وحمد الله لا يتم إلا بالقتال الكفار، الذين يذمون الله بكفرهم، فقتالهم في الإسلام أصيل ومتجذر، من باب حمد الله.

ولذلك قرر الإسلام أن جهاد الكفار وقتالَهم ماضٍ مستمر إلى يوم القيامة، تحقيقاً لحمد الله، ورحمةً لتلك الشعوب، حتى إن سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام يأتي مكمِّلاً لهذا الجانب من رسالة محمد ﷺ ، وهو «القتال المحمود للكفار»، فعندما ينزل في آخر الزمان يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويقاتل الكفار النصارى عُبّاد الصليب! .

والخلاصة في الجمع بين أسماء السورة الثلاثة: الذين كفروا مذمومون، وقتالهم محمود، وإمام المجاهدين هو محمد محمود الفعال، ليتمّ الحمد لله رب العالمين!! .

المطلب الثاني
اسم السورة الاجتهادي

عند إمعان النظر في آيات السورة ودروسها، نجد أنها تتحدث عن جهاد الكفار وقتالهم – كما سنبين فيما بعد إن شاء الله – فظِلُّ الجهاد هو الذي يظللها كلها.

ولهذا يمكن أن نطلق عليها اسماً باجتهادنا، ونسميها «سورة الجهاد»، أو «التربية الجهادية».

إنها تتحدث عن الجهاد والقتال والحرب والمعركة، وتأمر بقتال الكفار، وبضرب رقابهم، وأخذ الأسرى منه، وتأمر المؤمنين بالحشد والإعداد للجهاد، وتنهاهم عن موالاة الكفار.

وتعرض آيات السورة أهم صفات المؤمنين المجاهدين، وأهم صفات الكافرين، وأهم صفات المنافقين، وتقابل بين هذه الصفات، وتدعو المؤمنين إلى الاتصاف بصفات المجاهدين الصادقين.

وتقدم حقائق صادقةً حول الحرب وسيرها، ونتائجها وآثارها، وتقدم بعض الأحكام المتعلقة بها.

ونظراً لهذا الظل الجهادي الذي يظلل آياتها، وهذه الرائحة الجهادية المنبعثة منها، فإنها أشبه ما تكون ببلاغات عسكرية، صادرة من أرض المعركة.

حتى فواصل آياتها تحمل طابع الحسم الجهادي، فهي إما فاصلة بالميم، وإما فاصلة بالألف الممدودة.

هذه كلمات مختومة بالميم الشفوية الحاسمة، انتهت بها بعض الآيات: أعمالهم، بالهم، أمثالهم، أقدامكم، مثوى لهم، أهواءهم، أمعاءهم.

وهذه كلمات مختومة بالألف الممدودة، انتهت بها بعض الآيات: أمثالها، أقفالها.

ولهذا لا نبالغ إذا قلنا: إن هذه السورة سورة تربية جهادية، وحشد وإعداد جهادي، فاسمها الاجتهادي: «سورة الجهاد».

المطلب الثالث

زمان ومكان نزول السورة

المراد بمكان نزول السورة بيان أنها مكية أو مدنية، والمراد بزمان نزولها محاولة تحديد السنّة التي نزلت فيها، والوقوف على حالة ومستوى الدعوة الإسلامية، سواء في الفترة المكية أو المدنية.

سورة محمد سورة مدنية:

وذهب بعض العلماء إلى أن الآية الثالثة عشرة فيها مكية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد:١٣].

حيث نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو في طريقه من مكة إلى المدينة، أثناء الهجرة، وذلك لمواساته وتسليته، حيث أحزنه وآلمه مغادرة مكة وإخراجه منها، وخاطب الكعبة وهو يودعها قائلاً: «والله إنك أحبُّ البقاع إلى الله، وإنك لأحب البقاع إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت..»

فأخبره الله في هذه الآية أن الكفار السابقين كانوا أقوى من كفار قريش، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم أمام انتقام الله منهم، ولم تدفع عنهم عذاب الله، فلما أوقع الله بهم عذابه أهلكهم ودمّر قراهم وقضى عليهم.

وقريش ليسوا أفضل من أولئك الكفار السابقين، فإن أصروا على كفرهم وحربهم لمحمد ﷺ فإن الله سيدمّرهم ويُهلكهم، كما فعل بالكفار من قبلهم، الذين كانوا أقوى منهم.

وسورة محمد هي السورة التاسعة، حسب ترتيب نزول السور المدنية، ونزلت قبلها سورة الحديد، وبعدها سورة الرعد، كما قال العلماء الذين رتبوا السور حسب زمان النزول[1].

---

(١) انظر البرهان للزركشي: ١/ ١٩٤.

وسورة الفتح التي بعدها، هي السورة الخامسة والعشرون، في ترتيب السور المدنية، والحجرات هي السورة العشرون.

فمع أن سورة الفتح في المصحف بعد سورة محمد مباشرة، إلا أنها لم تنزل بعدها، إذ نزل بينهما ست عشرة سورة، وهذا يعني أن بين السورتين فترة زمنية طويلة.

وقد نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة بإجماع المؤرخين وأصحاب السير. وهذا معناه أن سورة محمد نزلت قبل السنة السادسة بسنوات.

وقدر سيد قطب الفترة الزمنية التي بين نزول السورتين بحوالي ثلاث سنوات. وعقد في تقديمه لسورة الفتح مقارنةً بين السورتين ولاحظ فيها التغييرات الإيجابية التي طرأت على الجماعة المسلمة خلال تلك الفترة، واستخرج ذلك من خلال نظراته النافذة في آيات السورتين، ومقارنته الموفقة بينهما[1]، وسنشير إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله.

وإذا اعتمدنا هذه المدة الزمنية بين نزول السورتين، فإن نزول سورة محمد كان في نهاية السنة الثالثة، أو بداية السنة الرابعة.

وهذا يعني أن سورة محمد نزلت قبل سورة الأحزاب، التي نزلت في السنة الخامسة بعد غزوة الخندق.

ونشير إلى ترتيب السور الأربعة التي ورد فيها اسم محمد ﷺ حسب النزول: حيث نزلت سورة آل عمران في السنة الثالثة بعد غزوة أحد، وبعدها سورة محمد في السنة الرابعة، وبعدها سورة الأحزاب في السنة الخامسة، ثم سورة الفتح في السنة السادسة. والسور الأربعة سور جهادية، وكل سورة نازلة في أعقاب معركة، وتتحدث عن الحرب والقتال. وقد سبق أن أشرنا إلى دلالة ذلك.

وبما أن السورة نازلة في هذه الفترة، وفي هذا الجو، فهي ذات مهمة تربوية جهادية، تريد تحقيقها بين المسلمين.

---

(١) انظر الظلال، ٦: ٣٣٠٦ و ٣٣١٤-٣٣١٦.

المطلب الرابع

جو نزول السورة وملامح الجماعة المسلمة من خلالها

نزلت سورة محمد في جو جهاديّ خاص، هو جو الإعداد والتربية للجماعة المسلمة، وتهيئتها تهيئة جهادية، والارتقاء بمستوى المسلمين الإيماني والأخلاقي والجهادي، وتقديم حقائق إيمانية وقاطعة حول الكفار، ومعالجة مظاهر الضعف والتثاقل عند الجهاد عند بعض المسلمين.

فجو السورة جو تربية إيمانية دعوة جهادية.

وعند إمعان النظر في آيات السورة، فإنه يمكن من خلالها ملاحظة واقع المسلمين، والوقوف على مظاهر النقاء والصفاء والالتزام عندهم، والوقوف على مظاهر الضعف والخلخلة والتثاقل عند بعضهم.

إن آيات السورة توقفنا على المظاهر التالية عند المجتمع الإسلامي:

١- خطا المسلمون خطوات متقدمة في الجهاد: لأننا رجّحنا نزول السورة في بداية السنة الرابعة للهجرة، أي أنه وقعت قبل نزولها غزوات ومعارك فاصلة، كغزوة بدر وأحد. ولهذا وجدنا في آيات السورة تقريراً لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالجهاد، كضرب رقاب الكفار، وشدّ وثاق بعضهم وأخذهم أسرى.

٢- كان معظم المسلمين مندفعين للجهاد، متحمسين له: وتزيدهم آيات السورة اندفاعاً وحماساً، وترتقي بمستوى تفاعلهم مع الجهاد، وتقدم لهم حقائق صادقة حول الجهاد والاستشهاد، والثواب والجنة.

٣- وُجد عند بعض ضعاف الإيمان من المسلمين تثاقل عن الجهاد: حيث كانوا ينكصون عنه، ويبخلون عن دعمه والإنفاق عليه.

وقد تولت آيات السورة علاج هذا التثاقل، ومن أساليب العلاج الذي قررته الآيات:

أ- الحث على الاستبسال والاندفاع في قتال الكفار، والتحريض على قتلهم وضرب رقابهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤].

ب- إخبار المسلمين بالحكمة الربانية من الجهاد، وأمر الله لهم بقتال الكفار: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ .

ج- ذكر ما للشهداء عند الله من النعيم والثواب: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ .

د- تصوير حالات الجبن والخوف عند الجبناء، وعرضها بصورة منفرة، ليتخلوا عن ذلك الجبن: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ .

هـ- التهديد بفضح وكشف المتثاقلين عن الجهاد: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

و- نهي المؤمنين عن الوهن والضعف، والدعوة إلى استسلام أمام الأعداء، وتذكيرهم بأن الله معهم: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ز- علاج مظاهر البخل عن النفقة في دعم الجهاد والمجاهدين: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ .

ح- تهديد المتثاقلين بالاستبدال، إن أصروا على تثاقلهم وبخلهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ .

هذه التهديدات والتحذيرات والتنبيهات تشير إلى وجود بعض مظاهر الضعف والخلخلة والتثاقل عند بعض المسلمين، مما استدعى التركيز عليها، وتقديم العلاج لها.

٤- كان للمنافقين دور خطير في زعزعة صف المسلمين: فقد كان المنافقون ينشطون في إضعاف الصف من الداخل، ويُحيكون المكائد والمؤامرات ضد المسلمين، وينشرون إشاعاتهم وأراجيفهم بين المسلمين، ويستعينون في ذلك بشياطينهم من اليهود.

وقد تولت آيات السورة علاج هذا المرض النفاقي، وكشف هؤلاء المنافقين، وتحذير المسلمين من إشاعاتهم ومكائدهم، ويمكن الوقوف على هذه المظاهر حول الموضوع:

أ- كان المنافقون يقومون بحملة تشكيك خبيثة ضد القرآن، ويزعمون أنه غير مفهوم. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾.

ب- تولت آيات السورة تعريف المسلمين على أساس الانحراف والمشكلة عند المنافقين، إنه اتباع الهوى الذي يقود إلى الطبع على القلب: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

ج- فضحت الآيات هؤلاء المنافقين الذين في قلوبهم مرض، وصورت جُبنهم عند تكليفهم بالقتال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

د- بينت الآيات أن المنافقين مرتدون على أعقابهم، متّبعون للشيطان، وهذا معناه أن لا يسمع المسلمون لهم، لأنهم من حزب الشيطان: «إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم..».

هـ- كشف الارتباط والتحالف بين المنافقين في الداخل وبين الكفار في الخارج، من اليهود والمشركين، وذلك لتنفير المسلمين من هؤلاء المنافقين: «ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، والله يعلم إسرارهم..».

و- تعريف المسلمين بالملامح والسمات، الكاشفة عن خفايا هؤلاء المنافقين، وذلك ليُحسنوا كشفهم، ويحذروا منهم: «ولو نشاء لأريناكهم، فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول..».

٥- تتولى آيات السورة مواجهة الفريق الثاني من أعداء المسلمين: وهم الكفار العلنيون، فتعرّف المسلمين عليهم، وتكشف ملامحهم وصفاتهم للمسلمين، وتهيّج المسلمين على معاداتهم وقتالهم، وتعمّق عند المسلمين معاني البراءة منهم.

أي أن السورة تتولى فضح وكشف معسكري الأعداء: أعداء الداخل وهم المنافقون، وأعداء الخارج وهم الكفار العلنيون.

آيات السورة: ١-١٥ تتحدث عن أعداء الخارج الكفار.

وآيات السورة: ١٦-٣٢ تتحدث عن أعداء الداخل المنافقين.

وتقدم هذه الآيات للمسلمين ثقافة دعوية جهادية، وتزيدهم فقهاً وبصيرة بأعدائهم.

الكفار من خلال آيات السورة هم:

كفروا وصدّوا عن سبيل الله، فأضلّ الله أعمالهم.

واتبعوا الباطل، ولذلك يجب قتلهم وضرب رقابهم.

وهم تعساء، ولذلك أضلّ الله أعمالهم.

وهم كرهوا ما أنزل الله، فأحبط الله أعمالهم.

وبما أنهم كفروا وصدّوا عن سبيل الله، فإن الله سيدمِّرهم.

وبما أنهم كفروا فقد تخلى الله عنهم، وصاروا لا مولى لهم.

وهم كالدواب في التمتع والأكل، وتنتظرهم النار لتكون مثوى لهم.

وكفرهم قد زيّن لهم سوء عملهم، فقبلوا به، واتّبعوا أهواءهم.

وهم في الآخرة مخلدون في النار، ويُسقون ماءً حميماً فيقطع أمعاءهم.

وهذا بسبب جرائمهم في الدنيا حيث صدوا عن سبيل الله فأحبط الله أعمالهم.

وإذا بقوا على كفرهم فماتوا وهم كفار فإن الله لن يغفر لهم.

إن هذه الآيات تقدم للمسلمين صورة صادقة كاشفة، واضحة الملامح للكفار، والكفار أصبحوا معروفين للمسلمين، مكشوفين أمامهم، بفضل بيان الآيات لصفاتهم وأعمالهم.

٦- **من مظاهر التهييج والحشد والتهيئة والتربية الجهادية:** ما تقدمه آياتها من ترغيب المسلمين في الجهاد والإنفاق عليه، وما تعرضه من مظاهر أجر المجاهدين، ومن ألوان النعيم الذي ينتظرهم في الجنة.

فالذين قُتلوا في سبيل الله من خلال آيات السورة: لن يضل الله أعمالهم، حيث سيهديهم ويصلح بالهم، وسيدخلهم الجنة عرّفها لهم، وهم قد نصروا الله فنصرهم الله وثبّت أقدامهم، ولهم في الجنة أنهار من لبن وخمر وعسل وماء، ومن كل الثمرات، ولهم مغفرة من ربهم. وقد نالوا هذا الفضل العظيم لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، وأطاعوا الله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله.

المطلب الخامس
أهداف السورة الأساسية

يكون الوقوف على أهداف السورة بعد القراءة المتكررة لها، والتدبر البصير لسياقه، والنظرات النافذة في آياتها.

وأهم أهداف السورة هي:

١- الدعوة إلى حفظ الإسلام والمسلمين عن طريق قتال الكفار وجهادهم وإبطال مكائدهم، فجهاد الكفار يوقف أطماعهم ضد الإسلام والمسلمين.
٢- تقرير أصالة الجهاد في الإسلام، وبيان ضرورته وأهميته.
٣- بيان عمق الخط الجهادي في سيرة رسول الله ﷺ ، حيث كانت حياته كلها جهاداً للكفار ومواجهة لهم.
٤- دعوة المسلمين إلى مواجهة الكفار وجهادهم وإبطال كيدهم، وتحريض المؤمنين على قتالهم، وتهييجهم ضدهم.
٥- تشريع بعض الأحكام الشرعية الناتجة عن الجهاد، كأخذ الأسرى من الكفار، والتصرف فيهم بعد الأسر، والدعوة إلى الإنفاق، والنهي عن الجبن والهوان، ومنع الدعوة إلى الاستسلام
٦- عقد مقارنة ومقابلة بين المعسكرين في المعركة: معسكر المؤمنين ومعسكر الكافرين، وبيان أهم صفات كل منهما، واختلافهما في المنطلق والطريق والنتيجة، والنهاية في الآخرة.
٧- تحليل نفسيات الكافرين، وبيان سر كفرهم، وتحليل نفسيات المنافقين، وبيان موالاتهم للكفار.

٨- علاج مظاهر الضعف والنقص عند ضعاف المؤمنين، وتصوير جبنهم وتثاقلهم، والارتقاء بمستواهم الإيماني والسلوكي والجهادي.

٩- كشف جرائم المنافقين ومكائدهم في زعزعة الصف المجاهد، وتحذير المسلمين منهم، وإبطال شبهاتهم وإشاعاتهم.

١٠- تقرير بعض السنن الربانية المرتبطة بالجهاد، مثل شرط النصر، وسبب الهزيمة، وحكمة الجهاد، وأثره في هدوء البال، واستبدال المتثاقلين.

١١- ربط أنظار المجاهدين بالجنة، وترغيبهم في الجهاد والاستشهاد، وبيان ما للشهداء عند الله، وتقديم صورة عن بعض مظاهر النعيم فيها.

١٢- التحذير من الجبن والبخل والاستسلام، وتهديد الناكصين المتثاقلين بالاستبدال.

المطلب السادس
شخصية السورة وخطوطها الرئيسية

شخصية السورة: بعد حديثنا عن زمان نزول السورة، وعن جو ذلك النزول، وعن ملامح الجماعة المسلمة من خلالها، وعن موضوعها وأهدافها، بعد هذا كله يمكن التعرف على شخصيتها.

إن شخصية السورة هي الجهاد، لأن موضوعها هو الجهاد، وهدفها هو التربية الجهادية، وإعداد المسلمين لمواجهة الكفار، والارتقاء بمستواهم الجهادي، ودعوتهم إلى حسن الاقتداء بالنبي ﷺ، الذي هو إمام المجاهدين في مواجهة وقتال الكافرين.

هذا «اللون الجهادي» يلوّن آيات السورة، ويبدو واضحاً فيها، ومذاق مواجهة الأعداء يتذوقه كل قارئ بصير لآياتها.

ويمكن الوقوف على خطوط السورة الأساسية، وهذه الخطوط بارزة في كل دروسها وآياتها، وتربط موضوعاتها وحقائقها برباط وثيق، وتجمع بين معانيها ودلالاتها، وتنسق بينها:

وخطوط السورة الرئيسية هي:

١- عرض أهم صفات المؤمنين المجاهدين، وتحليل نفسياتهم المتناسقة، وبيان أعمالهم الصالحة الناجحة.

٢- عرض أهم صفات الكافرين، وتحليل نفسياتهم المضطربة، وبيان أعمالهم السيئة الحابطة الضالة.

٣- عرض أهم صفات المنافقين، وتحليل نفسياتهم المعقدة، وبيان أعمالهم الباطلة، والتحذير من مكائدهم الخطيرة.

٤- تقرير حقائق أساسية حول الجهاد ومتطلباته وحكمته وثمرته، ودعوة المسلمين إلى أن يفاصلوا الكفار، ولا يوالوهم، وتعميق تميز المسلمين بإيمانهم ومنهاجهم وطريقهم وصفاتهم وأخلاقهم وحياتهم ومماتهم ومصيرهم في الآخرة.

ودعوة المسلمين إلى الاعتزاز بهذا التميز، والاستعلاء بإيمانهم ومنهاجهم.

وفيما يلي بعض بيان لهذه الخطوط الأربعة:

الخط الأول: أهم صفات المؤمنين المجاهدين المنبثقة عن إيمانهم، وأهم أعمالهم المنسجمة مع إيمانهم، واضحة في آيات السورة:

١- الإيمان والعمل الصالح المنبثق منه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

٢- الإيمان بالقرآن: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ .

٣- تكفير السيئات وإصلاح البال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ .

٤- اتباع منهاج الله وشرعه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ .

٥- الشدة على الكفار بضرب رقابهم وأخذ الأسرى منهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ .

٦- أعمالهم مقبولة عند الله غير ضالة ولا حابطة: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ .

٧- إدخالهم الجنة برحمة الله: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ .

٨- هم نصروا الله ودينه، فنصرهم الله على أعدائهم وثبّت أقدامهم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

٩- الله يتولاهم ويحفظهم ويرعاهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

١٠- طريقهم واضحة، وهم على بينة ونور: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ .

١١- هم منعَّمون في الجنة ونعيمها وأنهارها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ .

١٢- الله يمنّ عليهم بالمغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ .

١٣- هم ساروا في طريق الهدى فزادهم الله هدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ .

١٤- زيادتهم من الهدى تحقق لهم التقوى: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ .

١٥- يعلمون حقيقة ومضمون الشهادة: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ .

١٦- هم كثيرو الاستغفار لهم ولإخوانهم: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾.

١٧- يتسابقون في الجهاد ويصدقون الله عند اللقاء: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ .

١٨- الإيمان والجهاد أوجد عندهم ذكاءً وفطنة، اكتشفوا بهما المنافقين، وعرفوهم من صفاتهم: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ .

١٩- هم مجاهدون صابرون ثابتون: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

٢٠- هم مطيعون لله والرسول، حريصون على عدم إبطال أعمالهم: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ .

٢١- هم أعزة كرام، لا يستسلمون أمام الأعداء: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ .

٢٢- الله معهم، يتقبل أعمالهم ويحفظها لهم غير منقوصة: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ .

٢٣- الله يعطيهم أجورهم لأنهم حققوا شرط قبول الأعمال، وهو الإيمان والتقوى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ .

٢٤- لا يتولون ولا يتثاقلون ولا ينكصون: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ...﴾ .

الخط الثاني: أهم صفات وأعمال وملامح الكفار، المرتبطة مع كفرهم، والمنبثقة منه، واضحة كذلك في آيات السورة:

١- هم كفروا وصدّوا عن سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

٢- أعمالهم ضالة ضائعة: ﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ .

٣- هم متّبعون للباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ .

٤- مهزومون أمام المسلمين، مقتولون ومأسورون: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ .

٥- حياتهم تعيسة وأعمالهم ضالة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ .

٦- عندهم كراهية شديدة لما أنزل الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ .

٧- أحبط الله أعمالهم بسبب كراهيتهم لما أنزل الله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ .

٨- لا يعتبرون ولا يتعظون مما جرى للكفار من قبلهم: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ .

٩- تهديدهم بالهلاك والتدمير: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ .

١٠- ضائعون في الحياة لأن الله لم يتولاهم: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ .

١١- هم كالأنعام في التمتع والأكل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ .

١٢- النار مثواهم ومصيرهم ومستقرهم: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ .

١٣- هالكون لعدم وجود ناصر لهم: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

١٤- زُيِّن لهم عملهم السيئ، فرأوه حسناً ورضوا به: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ .

١٥- متَّبعون لأهوائهم: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ .

١٦- مخلدون بالعذاب في النار: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ .

١٧- شرابه في النار حميم يُقطع أمعاءهم: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ .

١٨- قاموا بالصد عن سبيل الله: ﴿كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

١٩- خالفوا الرسول ﷺ وشاقوه: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ .

٢٠- لا يغفر لهم لموتهم كفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ .

الخط الثالث: أهم صفات المنافقين وأعمالهم السيئة، المنبثقة عن النفاق، واضحة كذلك في آيات السورة:

١- يستمعون القرآن من الرسول ﷺ، ويُظهرون الحرص على الاستماع، للتشكيك فيه، ونشر الشبهات حوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ .

٢- طبع الله على قلوبهم بسبب نفاقهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ .

٣- متّبعون للهوى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ .

٤- تهديدهم بالعذاب: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ .

٥- جبنهم وخوفهم وفزعهم عند تكليفهم بالقتال، وعرض صورة منفرة لهم: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ .

٦- لا يعرفون الطاعة ولا القول المعروف: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ ﴾ .

٧- لا يصدقون الله في قول ولا فعل ولا موقف: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

٨- هم مفسدون في الأرض لإعراضهم عن الحق: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

٩- هم قاطعون لأرحامهم: ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

١٠- أوقع الله بهم لعنته: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

١١- وعاقبهم بأن أصمهم وأعماهم: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ .

١٢- لا يتدبرون القرآن للأقفال على قلوبهم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .

١٣- مرتدون على أدبارهم لنفاقهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ﴾ .

١٤- تمكّن الشيطان منهم واستحوذ عليهم، فسوّل لهم وأملى لهم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ .

١٥- هم موالون للكفار مطيعون لهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ .

١٦- من نفاقهم أنهم يُظهرون شيئاً، ويسرون ويخفون أشياء، لكن الله يعلم ما يسرون: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ .

١٧- في قلوبهم مرض ونفاق وضغائن سوداء، وسوف يخرجها الله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ .

١٨- معروفون بسيماهم وملامحهم، التي تكشف عما في قلوبهم من نفاق: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ .

١٩- يلحنون في كلامهم، ويحرّفون أقوالهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ .

٢٠- يبخلون عندما يدعون إلى الإنفاق في سبيل الله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ .

الخط الرابع: تقرير حقائق أساسية حول الجهاد ومتطلباته وحكمته وثمرته، وحول الإنفاق والعزة والتميز ومفاصلة الكفار، وهذه الحقائق واضحة في آيات السورة:

١- الأصل الشدة والغلظة في قتال الكفار، وأخذ الأسرى بعد إثخان الكفار وإضعافهم بضرب رقابهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ .

٢- عند أخذ الأسرى من الكفار يخيّر الإمام بين المنّ عليهم وإطلاق سراحهم بدون مقابل، وبين أخذ الفداء مقابل فك أسرهم: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ .

٣- حكمة الجهاد أن يتدرب ويتقوى المؤمنون عند جهاد الكفار، وأن يرتقوا بمستواهم الجهادي، ويرتفعوا بهممهم وعزائمهم: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ .

٤- الشهداء هم الذين يفوزون ويربحون ويكسبون، وثمن الشهادة وجزاؤها عظيم الأثر على نفسيات ومشاعر الشهداء، واستقرارهم منعّمين في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ .

٥- لا ينصر الله إلا من ينصر دينه، ويصدق في الالتزام به، فإن لم يقم بذلك فأين هو من نصر الله؟ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ .

٦- المؤمنون المجاهدون متميزون في الطريق والسمات والنهاية، وهذه صورة من اختلاف مصيرهم ونهايتهم ومستقرّهم عند الكفار، فبينما هم منعّمون في الجنة ونعيمها وثمراتها وأنهارها، ورضوان الله عليهم فيها، يكون الكفار معذبين مخلدين في النار: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ .

٧- المؤمنون متحمسون للجهاد متشوقون له، ولهذا يتمنون إنزال سورة محكمة تدعوهم إليه ليسارعوا بتنفيذ دعوتها: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ . فإذا كانت أفعال المنافقين مذمومة لجبنهم ونكوصهم، فإن المؤمنين المجاهدين سالمون من هذه الأمراض والصفات القبيحة.

٨- البديل عن القتال والجهاد شاق مكلف، والتخلي عن الجهاد يقود إلى عقوبات شديدة، فإما أن يجاهد المسلمون، فيعيشوا بعزة وكرامة، ويجتمعوا عليه، وتتوثق صلاتهم، وإما أن يتركوه فتنقطع أرحامهم، ويقع الشقاق والنزاع بينهم، ثم يلعنهم الله: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ .

٩- لا يجوز موالاة الكفار، ولا تأييدهم ومناصرتهم، ولا حتى طاعتهم في بعض ما يأمرون به، واعتبرت الآيات أن طاعة الكفار في بعض الأمر ردة عن الدين، وخروج إلى الكفر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى

ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾. اعتبر الآيات القوم مرتدين، حيث وصفتهم بأنهم ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، والسبب في ارتدادهم أنهم قالوا للكفار الذين كرهوا ما أنزل الله من الحق: سنطيعكم في بعض الأمر. إن هذه الطاعة للكفار موالاة لهم وهي ردة مخرجة من دين الله!! .

١٠- كلف الله المؤمنين بالجهاد والقتال، ابتلاءً منه لهم، وهذه حقيقة قرآنية قاطعة، فالتكليف بالجهاد والقتال والمواجهة ابتلاء وامتحان، يظهر فيه المؤمن الصادق المجاهد الصابر، فينطلق للجهاد بتفاعل وحماس، ويظهر الخائن الجبان، فيتثاقل وينكص ويتراجع ويتخلف، ولولا الجهاد لما تميزت الصفوف ولما تقدم الرواد، ولما انكشف الجبناء. وتصرح آيات السورة بهذه الحقيقة القرآنية: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ .

١١- تخبرنا آيات السورة عن أسباب الضعف والاستسلام، وتنهانا عن ذلك، وتدلنا على أسباب الشعور بالعزة، والاستعلاء بالإيمان: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ . الدعوة إلى الاستسلام للأعداء محرمة، لأن الواجب هو قتالهم وقتلهم، وليس الاستسلام لهم، وسبب الدعوة إلى الاستسلام هو الشعور بالوهن والضعف، وهو حالة نفسية مرضية، ولذلك حرّم الله هذا الوهن كما حرّم الدعوة إلى الاستسلام. ودعت الآيات المؤمنين إلى الشعور بالاستعلاء، واليقين بأنهم الأعلون على الكفار، فكيف يستسلم الأعلى للأسفل؟ وكيف يخضع الأعز للأذل؟ وطريق الشعور بالاستعلاء هو استحضار أن الله معه، فإذا أيقن المؤمن بأن الله معه، ينصره ويحميه ويقوّيه، لم يضعف ولم يهن، وبقي ثابتاً مجاهداً مرابطاً..

١٢- تذكير المؤمنين بأن الجهاد يحتاج إلى إنفاق وبذل، وإعداد وتجهيز، وحثّهم على دعم الجهاد وتمويله والإنفاق عليه، وضمان أجورهم عند الله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ .

١٣- علاج مرض البخل عن الإنفاق، والضنّ بالأموال عن الجهاد، وذم البخلاء وتهديدهم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ . إن من يبخل عن الإنفاق في سبيل الله لا يضر الله، ولا يضر دين الله، لأن الله غني عنه وعن أمواله، وهو سينصر دينه، وهذا البخيل يبخل عن نفسه، ويحرم نفسه أجر البذل والإنفاق، فهو الذي يخسر.

١٤- بعدما بينت آيات السورة الحقائق القاطعة حول الجهاد وحكمته وثمرته ومتطلباته، ونهت عن التثاقل عنه، ختمت ذلك بالتهديد بالاستبدال! فإما أن يقوم المؤمنون بواجبهم في الجهاد ومتطلباته، فينالوا عز الدنيا وسعادة الآخرة، وإما أن يضعفوا ويجبنوا وينكصوا ويتثاقلوا، وعند ذلك يضرون أنفسهم، ولا يضرون الله ولا دينه، فهم في هذه الحالة هم الخاسرون، أما الإسلام فإن الله يختار له قوماً آخرين، يكونون صالحين صادقين مجاهدين، ينصره ويؤيده بهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ . بهذه الحقائق الجهادية يكون خط الجهاد واضحاً في آيات السورة، بارزاً فيها، متغلغلاً في معانيها، وبه تتحقق شخصية السورة الجهادية.

هذه هي خطوط السورة الأربعة:

١- صفات المؤمنين المجاهدين.

٢- صفات الكافرين الضالين.

٣- صفات المنافقين المثبطين.

٤- حقيقة الجهاد وحكمته ومتطلباته وثمرته.

وتلتقي هذه الخطوط وتتناسق فيما بينها، وتتجمع لتكوين شخصية السورة البارزة المتميزة، وهي الإعداد القتالي والتربية الجهادية.

فالكافرون والمنافقون في جانب يحاربون المؤمنين، والمؤمنون المجاهدون في الجانب الآخر، يواجهون معسكر الأعداء – أعداء الداخل وأعداء الخارج – ويجاهدونهم.

ويقتدي المجاهدون في بذلك بإمامهم ﷺ، وقد كانت سيرته جهاداً لأعداء الله.

إن شخصية السورة من خلال خطوطها الأربعة هي: محمد ﷺ يقود المؤمنين المجاهدين، في جهاد الذين كفروا من الكافرين والمنافقين.

المطلب السابع
ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها

قبل سورة محمد سبع سور، تسمى «الحواميم»، لأن كل سورة منها مبدوءة بحرفين هما: «حم».

وسور «الحواميم» السبعة كلها مكية، وهي متتابعة في ترتيب المصحف، كما أنها متتابعة في النزول، حيث كان نزولها على هذا الترتيب.

هذه السور هي: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وبين موضوعات هذه السور المكية وموضوع سورة محمد المدنية صلة وارتباط، مع وجود فترة زمنية بينهما.

ومظهر ارتباط سورة محمد بالحواميم: أن السور السبع تركز على موضوع واحد، وهو البيان النظري للحق، والاحتجاج له، وتفنيدُ الباطل ودحضُه وكشف زيفه، وإثبات الوحدانية وعرض الأدلة عليها، وإثبات النبوة والرسالة.

فهذه السور السبعة تولت مواجهة الكفار مواجهةً نظرية، وأقامت الحجة عليهم، فلا عُذر لهم في الكفر بعدها، ولا شبهة لهم فيه.

وانقسم الناس إزاء هذا البيان النظري في «الحواميم» إلى فريقين:

الفريق الأول: المؤمنون: الذين استجابوا لذلك البيان وتفاعلوا معه.

الفريق الثاني: الكافرون: الذين رفضوا ذلك البيان وأعرضوا عنه.

بذلك تمايزت الصفوف، واتخذ كل إنسان موقفه، واختار موقعه، إما مع الإيمان وإما مع الكفر، وبذلك تم «فرز» الناس وتصنيفهم.

بعد ذلك تأتي سورة محمد لتحدد الخطوة التالية، حيث تأمر الذين آمنوا بقتال الذين كفروا، وتبني القتال العملي على البيان النظري.

هذا عن وجه ارتباط سورة محمد بالحواميم السبعة قبلها، ونقف وقفة مفصلة لبيان أوجه اتصال سورة محمد بسورة الأحقاف على وجه الخصوص:

١- تتولى سورة الأحقاف عرض الأدلة على الوحدانية والرسالة والوحي، وتقوم بنقض الشرك ودحض شبهاته.

وتأتي بعدها سورة محمد لتأمر الذين استجابوا بموضوع سورة الأحقاف بقتال الكفار الذين أعرضوا عن موضوع سورة الأحقاف.

٢- تبين سورة الأحقاف مآل وعاقبة الذين كفروا، وهي الهلاك والدمار والخسران.

وتأتي بعدها سورة محمد لتقرر تطبيق تلك العاقبة عملياً في الدنيا، حيث تأمر الذين آمنوا بقتال الذين كفروا.

٣- تقرر سورة الأحقاف حقيقة فساد قلوب وأرواح الذين كفروا، بحيث لا يستجيبون لبيان أو هدى، فهم صم بكم عمي، فلا تنفع معهم حجة، ولم تعد فيهم فائدة.

وتأتي بعدها سورة محمد لتأمر المؤمنين بقتل هؤلاء الكفار وإزهاق أرواحهم، لفسادها وعطبها.

٤- في آخر سورة الأحقاف تقرير حقيقة عذاب الكفار بالنار يوم القيامة: «ويوم يعرض الذين كفروا على النار. أليس هذا بالحق؟ قالوا: بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب، بما كنتم تكفرون».

وفي سورة محمد بيان عذاب الكفار في الدنيا، حيث تأمر المؤمنين بقتالهم وقتلهم.

٥- في آخر سورة الأحقاف أمر للرسول ﷺ بالصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ .

وفي سورة محمد بيان لميادين الصبر العملية، الصبر في الجهاد والمواجهة والقتال والمعركة، والصبر هو زاد المجاهدين.

٦- في آخر سورة الأحقاف تقرير حقيقة قصر الهلاك على القوم الكافرين الفاسقين، عند وقوع العذاب: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

وفي سورة محمد بيان أهم صفات هؤلاء الفاسقين الكافرين، وتحديد هلاكهم على أيدي المؤمنين بالجهاد.

٧- تتصل آخر جملة من سورة الأحقاف مع أول جملة من سورة محمد، وكأن الجملة الثانية بدل من الجملة الأولى وبيان لها.

في آخر سورة الأحقاف: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

وفي أول سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

ومجموع الجملتين هكذا: فهل يُهلكُ إلا القومُ الفاسقون الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله.

هذا عن اتصال سورة محمد بالحواميم قبلها، وبسورة الأحقاف على وجه الخصوص، ونستكمل هذه المسألة ببيان أوجه اتصال سورة محمد بسورة الفتح التي بعدها في ترتيب المصحف.

بين السورتين صلة وثيقة، مع وجود فترة زمنية بينهما، تقدّر بحوالي ثلاث سنوات، كما قلنا.

من مظاهر الاتصال بين السورتين:

١- في سورة محمد بيان قتال الرسول ﷺ للكفار، وفي سورة الفتح بيان انتصاره عليهم، فمحمد ﷺ هو المقاتل للذين كفروا في سورة محمد، المنصور عليهم في سورة الفتح.

٢- في سورة محمد حديث عن القتال والحرب والجهاد، وفي سورة الفتح تقرير البشارة بالفتح والنصر والظفر.

٣- في سورة محمد وعد عملي بالنصر لمن نصروا الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.

وفي سورة الفتح تحقيق عمليّ ميداني لذلك الوعد النظري: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾.

وهذا معناه أن الصحابة المجاهدين قد حققوا الشرط ونصروا الله في حياتهم وجهادهم، فوفى الله لهم بوعده، ونصرهم.

٤- في آخر سورة محمد تهديد للمسلمين بالاستبدال، إن تولوا وأعرضوا، وتثاقلوا عن الجهاد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

وفي سورة الفتح ثناء على هؤلاء المؤمنين: «محمد رسول الله، والذين معه: أشداء على الكفار رحماء بينهم..»، وبيان نصر الله لهم، وهذا معناه أنهم نفذوا الأوامر الربانية، وقاموا بالواجبات الجهادية، ولم يتولوا، ولذلك لم يستبدلهم.

وفي سياق حديثنا عن أوجه الاتصال بين سورة محمد وسورة الفتح، نورد بعض ما أورده سيد قطب في مقارنته بين السورتين، وملاحظته مدى التطور الإيجابي الذي طرأ على الجماعة المسلمة المجاهدة، في الفترة الزمنية الفاصلة بين نزول السورتين.

يقول سيد قطب في تقديمه لسورة الفتح: «بين وقت نزولها ووقت نزول سورة محمد – التي تسبقها في ترتيب المصحف – نحو من ثلاث سنوات، تمت فيها تغييرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة، تغيرات في موقفها، وموقف المناوئين لها، وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفتها الإيمانية، واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك ونضج عميق..» [1].

ويقول: «ومن سياق السورة وجوها، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف، يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة، في مدى السنوات الثلاث، التي نرجح أنها تفرّق بين السورتين في زمن

---

(١) الظلال، ٦:٣٣٠٦.

النزول، ويتبين مدى فعل القرآن الكريم، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة، التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن، وفي رعاية النبوة، فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل.

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجانست مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين، ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع، كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال، بل عادت محتاجة إلى مَن يخفض حميَّتها، ويُنَهْنِهُ حِدَّتها، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء، والمهادنة بعض الوقت، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة.

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، ولا بمثل قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد، بالحديث عن الشهداء وما أعدّ الله لهم عنده من الكرامة، ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته، كما في سورة محمد، إذ يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم، والمقصود بها تهدئة فورتهم، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ﷺ في المهادنة والملاينة، وعن رضا الله عن المبايعين تحت الشجرة. وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه..»[1].

---

(١) الظلال، ٦: ٣٣١٤-٣٣١٥.

المطلب الثامن
دروس السورة والتنسيق بينها

نعلم أن لكل سورة من القرآن شخصية مستقلة، ولها موضوع أساسي تقرره، وهي من ثم أشبه ما تكون بكتاب، له عنوان، ومقدمة، وفصول، وخاتمة.

وينطبق هذا على سورة محمد، فلها عنوان، ومقدمة، وفصول، وخاتمة.

عنوان السورة هو شخصيتها التي أشرنا لها سابقاً، ويمكن أن نجعل عنوانها: سورة التعبئة الجهادية.

والسورة مكونة من مقدمة، وأربعة دروس، وخاتمة، تلتقي هذه الدروس على تقرير موضوعها الجهادي، وترسيخه في أذهان المسلمين، وتبدو في هذه الدروس خطوط السورة الأربعة التي أشرنا لها من قبل.

وفيما يلي بيان مفصل لهذه الدروس وموضوعاتها والتناسق بينها:

مقدمة السورة

آياتها: ١-٣

موضوعها: تعريف مجمل بطرفي المعركة:

نص الآيات: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١-٣].

مجمل معاني الآيات:

تتحدث الآيات عن معسكري المعركة بين الحق والباطل، معسكر المؤمنين، ومعسكر الكافرين، وتعرض أهم الصفات الأساسية لكل فريق، وتبين الافتراق الموضوعي المنهجي الجذري لسبيل المؤمنين عن سبيل الكافرين، وتقرر أساس صلاح وفلاح المؤمنين، وأساس فساد وخسارة الكافرين.

المعسكر الكافر من خلال آيات المقدمة: الكفار قد كفروا، وصدوا عن سبيل الله، وسبب ذلك أنهم اتبعوا الباطل وتركوا الحق، والنتيجة أن الله أضل أعمالهم.

المعسكر المؤمن من خلال آيات المقدمة: المؤمنون قد آمنوا، وعملوا الصالحات، وآمنوا بالقرآن، وهو كتاب الله الذي أنزله على محمد ﷺ ، وهم بذلك يكونون قد اتبعوا الحق من ربهم، وقد كافأهم الله على هذا بأن كفّر عنهم سيئاتهم، وأصلح بالهم.

وهذا التعريف المجمل بطرفي المعركة، تمهيد للدروس التالية في السورة، حيث يتعرف المجاهدون على طبيعتهم، وعلى طبيعة أعدائهم، ويقفون على الافتراق المنهجي الجذري، الذي يميزهم عن الكفار.

وهذا البيان والتعريف تمهيد للأمر بقتال الكفار وقتلهم، فبما أن الكفار على هذا الانحراف، والافتراق عن المؤمنين، فلا بد أن يُقاتلوا..

الدرس الأول

آياته: ٤-٩

موضوعه: قتال الكفار، وما يترتب عليه من آثار.

نص الآيات: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٤-٩].

مجمل معاني الآيات: يأمر الله المؤمنين بقتال الكفار عند ملاقاتهم، ويطلب منهم الشدة في قتلهم وضرب رقابهم، وعند هزيمتهم في المعركة يوجِّههم إلى أخذ الأسرى منهم، وشدّ وثاقهم، ثم يبين لهم كيفية التصرف في هؤلاء الأسرى، فإما أن يمنّ عليهم الإمام، ويطلق سراحهم بدون مقابل، وإما أن يُفاديهم، بأخذ فدية مالية منهم مقابل عودتهم إلى قومهم.

ثم تبين الآيات حكمة تكليف المؤمنين بقتال الكفار، فالله قوي قادر، ولو شاء أن ينتقم من الكفار ويهلكهم مباشرة لفعل،لكنه بحكمته سبحانه أراد أن يبلوا المؤمنين بالكافرين، ويربيهم من خلال جهادهم فالجهاد له مكاسب وآثار تربوية عند المؤمنين.

وبعد تقرير حكمة الجهاد تنقل الآيات لتتحدث عن ربح وفوز الشهداء، فهم أسعد الناس، والله لا يضل أعمالهم، فهو سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة، وهذا هو الفوز والربح والفلاح.

وتخبر الآيات المؤمنين عن شرط النصر على الكفار، ليحققوه حتى ينالوا النصر، والشرط هو أن ينصروا الله ودينه، ويصدقوا في الالتزام به، فإن فعلوا ذلك فإن الله سينصرهم، ويثبت أقدامهم في مواجهة الكفار.

هذا في جانب المؤمنين، أما في جانب أعدائهم الكفار، فإن الله قد حكم عليهم بالشقاء والتعاسة، وأحبط أعمالهم، وجعلها ضالةً ضائعة، وهو عادل في معاقبتهم، لأنهم كرهوا دينه وشرعه وكتابه، وحاربوا رسوله وجنوده.

والدرس الأول متصل مع المقدمة، متناسق معها. فبعد أن تعرّف المؤمنون على طبيعتهم المخالفة لطبيعة الكفار، يأتي التكليف في الدرس الأول بقتال هؤلاء الكفار.

وتتكامل آيات الدرس وتتناسق في الحديث عن قتال الكفار وحكمته ونتائجه وآثاره: متى يُقتل الكفار؟ ومتى يؤخذ منهم أسرى؟ وكيفية التصرف بالأسرى؟ ومتى تضع الحرب أوزارها؟ وما حكمة تكليف المؤمنين بالقتال؟ وما جزاء الشهداء وثوابهم عند الله؟ وما هي السنّة الربانية في نصر المؤمنين؟ وماذا يفعلون لتنطبق عليهم هذه السنّة؟ وما هي السنّة الربانية في هزيمة الكفار؟ وما هي عقوبة الله لهم؟ ولماذا أوقع الله بهم هذه العقوبة؟ .

كل هذه المعاني والحقائق تعرضها وتقررها آيات الدرس، بتناسق وتتابع وتكامل وتوافق.

الدرس الثاني
آياته: ١٠-١٥

موضوعه: الافتراق بين معسكري المعركة في الدنيا والآخرة.

نص الآيات: قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن

قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٠-١٥].

مجمل معاني الآيات:

تبين آيات الدرس الافتراق المنهجي الجذري بين صفات المؤمنين، وبين صفات الكافرين، وتفصل الإجمال في التفريق بين المعسكرين، الذي أوردته مقدمة السورة.

تبدأ آيات الدرس بتقرير سنّة ربانية مطردة، وهي تدمير الكافرين وأهلاكهم، وتذم الكفار في عصر التنزيل لعدم ملاحظتهم تدمير الكفار السابقين، وتهددهم بأنهم سيواجهون نفس المصير إن أصروا على كفرهم.

وتبين الآيات الفرق بين المؤمنين والكافرين من حيث الولاية، فالله مولى المؤمنين ولذلك ينصرهم، والكافرون لا مولى لهم، فالله يدمرهم.

وتفرق بينهما من حيث الاستمتاع في الدنيا، فالمؤمنون يستمتعون بطيبات الدنيا على منهاج الله، والكفار يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام وتتمتع.

وتفرق بينهما في المصير والمآل، فالله يُدخل المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، ويُدخل الكفار النار.

وتفرق بينهما في التفكير والمعرفة والفهم، فالمؤمنون على بينة من ربهم، حيث بصّرهم الله بطريقهم وهداهم إلى الحق، أما الكفار فقد زُيّن لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم.

وتختم الآيات المقارنة بين المعسكرين بذكر مشهد من مشاهد نعيم المؤمنين، ومن عذاب الكافرين.

فالله أعدّ للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، لهم فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وللمتقين في الجنة من كل الثمرات، والأهم من هذا أن لهم مغفرة ورضواناً من الله.

أما الكفار، فإنهم مخلدون معذبون في نار جهنم، ومن صور عذابهم أنهم يُسقون فيها ماءً حميماً فيقطع أمعاءهم في بطونهم!! .

والدرس الثاني متصل مع الدرس الأول، فبينما كان الكلام في الدرس الأول عن قتال المؤمنين للكافرين، كان الكلام في الدرس الثاني عن بيان الفرق الجذري بين المؤمنين والكافرين، وهو فرق في التصور والفكر والنظر، وفي التصرف والخلق والسلوك، وفي الحياة والممارسة والمعايشة، وفي المرجع والنهاية والمصير، ولذلك يتوجه المؤمنون لقتال الكافرين.

وتتكامل آيات الدرس على تقرير حقائقه: فسنّة الله مطردة في تعذيب الكفار، والعذاب قادم لكفار قريش إن لم يؤمنوا، ولا مولى للكفار يدفع عنهم، والله هو مولى المؤمنين، ويُدخلهم جنات تجري من تحتها النهار، يتنعّمون في نعميها، ويتفكّهون بثمارها، ويشربون من أنهار مائها ولبنها وعسلها وخمرها، وفعل الله ذلك بهم مكافأةً لهم، لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، وكانوا على بينة من ربهم.

أما الكفار فهم سُذَّج غُفُلٌ لا يتّعظون ولا يعتبرون، وهم في حياتهم مثل الأنعام في التمتع بالأكل والشرب، وقد اتبعوا أهواءهم، فعموا عن الحق، وإن الله سيدمرهم في الدنيا، بينما سيُدخلهم في الآخرة عذاب النار، ويخلدهم فيها، ويعذبهم بالحميم يقطع أمعاءهم، إضافة إلى أصناف العذاب الأخرى! .

الدرس الثالث

آياته: ١٦-٣١

موضوعه: بيان أهم صفات وأفعال المنافقين، مقارنةً مع المؤمنين:

نص الآيات: قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:١٦-٣١].

مجمل معاني الآيات:

معسكر الكفار مكوّن من فريقين: الكفار العلنيون، والمنافقون المتسترون بالإسلام.

وقد تكفلت آيات الدرس الثاني بالحديث عن الكفار العلنيين أعداء الخارج، وقارنت بينهم وبين المؤمنين، أما آيات هذا الدرس فقد تكفلت بالحديث عن المنافقين أعداء الداخل، وقارنت بينهم وبين المؤمنين.

أشارت الآيات إلى أساليب المنافقين في التشكيك بالقرآن، فهم يُظهرون للمسلمين حرصهم على الاستماع والاستفادة، ويستمعون القرآن من رسول الله ﷺ ، وعندما يخرجون من عنده يقولون للمؤمنين: القرآن غير مفهوم، فنحن قد استمعناه من النبي ﷺ، ولكن لم نفهم منه شيئاً.

وتسارع الآيات إلى تعليل فعل المنافقين بأن الله قد طبع على قلوبهم لنفاقهم، فاتبعوا أهواءهم، ولذلك لم يفهموا القرآن.

وتقارن الآيات بينهم وبين المؤمنين في هذا الجانب، فبينما المنافقون مطبوع على قلوبهم، متّبعون لأهوائهم، فإن المؤمنين مهتدون، ولذلك زادَهم الله هدى، وآتاهم تقواهم.

وتنتقل آيات الدرس إلى تهديد المنافقين المتلاعبين بالعذاب، فماذا ينتظرون؟ قد يأتي أحدَهم أجلُه فيموت فجأة، وينتقل إلى عذاب الله، وقد تقوم الساعة فجأة، لأن أشراطها وعلاماتها قد جاءت، وبذلك ينتقلون إلى عذاب الآخرة.

ثم تقارن الآيات بينهم وبين المؤمنين في النطق بالشهادتين، فالمنافقون يقولون: لا إله إلا الله، ولكن لا يعلمون معناها، ولم تخرج من قلوبهم باليقين، ولا يستغفرون الله، بينما المؤمنون يعلمون أنه لا إله إلا الله، ويفهمون مضامينها، ويستغفرون الله لهم ولإخوانهم.

بعد ذلك تقارن الآيات بين الفريقين في النظرة إلى القتال، فالمؤمنون مجاهدون متحمسون للقتال، فإذا أنزلت سورة محكمة وكلفتهم بالقتال، سارعوا إلى التنفيذ والحرب، أما المنافقون فهم جبناء، وعندما يكلفون بالقتال، يصابون بالهلع والفزع، وينظرون إلى من يكلفهم بالقتال نظر المغشي عليه من الموت.

وترشد الآيات إلى التصرف الأنسب في ذلك، وهو الطاعة والقول المعروف، فإذا عزم الأمر، ووجب القتال، وكُلف به المسلمون، فعليهم أن يصدقوا الله، ويسارعوا بالقتال.

ثم تقارن الآيات بين المنافقين والمؤمنين في إصلاح الأرض وصلة الأرحام، وتبين أن المؤمنين المجاهدين يجنون ثمار الجهاد في الإصلاح وصلة الأرحام، بينما المنافقون جبناء لا يحاربون، وهذا يدفعهم إلى الإفساد في الأرض وقطع الأرحام، ولذلك لعنهم الله، فأصمّهم وأعمى أبصارهم.

وتقارن الآيات بين الفريقين من حيث النظرة إلى القرآن، فالمؤمنون قلوبهم حية متفاعلة مع القرآن، ولذلك يتدبرون القرآن ويطبقونه، بينما المنافقون وضعوا على قلوبهم الأقفال المحكمة، ولذلك لا يتدبرون القرآن ولا يعونه.

ثم تبين الآيات ارتداد المنافقين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وتعلل هذا الارتداد بأنه نتيجةُ متابعتهم للشيطان، فهو الذي زيّن لهم النفاق وسوّل لهم وأملى لهم.

ثم تبين الآيات «عمالة» المنافقين للكفار العلنيين وارتباطهم بهم، وتقرر أن هذه العمالة والموالاة من أسباب الحكم عليهم بالكفر والردة، فهؤلاء المنافقون قالوا للكفار: سنطيعكم في بعض الأمر.

وتعرض الآيات مشهد احتضار المنافقين عند حلول آجالهم، حيث تأتيهم ملائكة العذاب، تضرب وجوههم وأدبارهم، وعندها يموتون ويذهبون إلى العذاب، فهل ينفعهم أولياؤهم الكافرون؟ .

لقد اتبع المنافقون ما أسخط الله، وأطاعوا أعداءه، وكرهوا رضوان الله، وحاربوا أولياءه، ولذلك أحبط الله أعمالهم.

ثم تهدد الآيات هؤلاء المنافقين الذين في قلوبهم مرض بكشفهم أمام المؤمنين، وإخراج أضغان قلوبهم، وبيان حقدهم، وموالاتهم للكفار.

وتقدم الآيات وسيلة مطردة كاشفة، تضعها بين أيدي المؤمنين، يكشفون بها نفاق المنافقين، وهي معرفتهم المنافقين من خلال لحنهم في أقوالهم، وتحريفهم لكلامهم، وتلاعبهم في عباراتهم، إن هذا التلاعب واللحن والتحريف خلق مذموم من أخلاق المنافقين.

وتُختم الآيات في هذا الدرس بإخبار المؤمنين عن سنّة ربانية مطردة، هي سنّة «الابتلاء»، الابتلاء في مجالاته العديدة، حيث يبتلي الله المؤمنين بالكافرين، عندما يكلفهم بقتالهم، كما يبتليهم بالمنافقين الذين يُشوِّشون عليهم، ويبتليهم بالواجبات والتكاليف والأحكام، وحكمة هذا الابتلاء هي أن تتميز وتتمحص الصفوف، وأن يُعرف المجاهدون والصابرون من المسلمين.

وهكذا تتناسق وتتكامل آيات هذا الدرس، وتلتقي على تحقيق هدفه، من فضح المنافقين، وكشفهم وتعريتهم أمام المؤمنين، والتحذير من صفاتهم وأعمالهم، وإجراء مقارنة في ذلك بينهم وبين المؤمنين.

ويتكامل الدرسان الثاني والثالث، ويلتقيان على فضح وكشف فريقي معسكر الكفر، الكفار أعداء الخارج الذين تكفل بهم الدرس الثاني، والمنافقون أعداء الداخل الذين تكفل بهم الدرس الثالث.

الدرس الرابع

آياته: ٣٢-٣٧

موضوعه: بيان بعض تكاليف وأحكام الجهاد:

نص الآيات: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴾ [محمد:٣٢-٣٧].

مجمل معاني الآيات:

تعرض آيات الدرس بعض ما يحتاجه القتال من إعداد وتهيئة وتجهيز، من حيث الإنفاق والتمويل، وتقرر بعض الأحكام المتعلقة بعزة المسلمين أمام الكافرين.

وفي هذا الدرس تأكيد على بعض المعاني والحقائق والقواعد التي مرّت في الدروس السابقة.

وهذا الدرس متصل بالدروس الثلاثة التي سبقته.

فالدرس الأول: يأمر المؤمنين بقتال الكافرين.

والدرس الثاني: يعرض أهم صفات الكافرين مقارنةً مع صفات المؤمنين المجاهدين.

والدرس الثالث: يعرض أهم صفات المنافقين، مقارنةً مع صفات المؤمنين.

ويتأتي الدرس الرابع في موضعه المناسب ليعرض بعض ما يتطلبه الجهاد من إعداد وإنفاق وتجهيز، وينهى المؤمنين عن الاستسلام الذليل للكفار.

تبدأ الآيات بذكر بعض صفات الكفار، فهم قد كفروا، ثم صدوا عن سبيل الله، وشاقوا الرسول وحاربوه وعادوه، وقد عاقبهم الله على هذه الجرائم، بأن أحبط لهم أعمالهم وأبطلها.

وتلتفت الآيات إلى المؤمنين لتحذِّرهم من الاقتداء بالكفار في تلك الجرائم، فتأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ ، وترشدهم إلى الاهتمام بأعمالهم كي لا تُبطل أو تُحبط.

ثم تختم آيات الدرس كلامها عن الكفار بجزْمها بنهايتهم، وتقديم قاعدة مطردة في ذلك، وهي: كل من كفروا وصدّوا عن سبيل الله، وبقوا على ذلك حتى انتهت أعمارهم، حيث ماتوا وهم كفار، فإن الله لن يغفر لهم، ولن يدخلهم الجنة، وإنما سيخلدهم في النار، لأنهم ماتوا على الكفر! .

وهذه الخاتمة عن الكفار تتناسب مع موضوع السورة، الذي يأمر المسلمين بقتال الكفار، فبما أنهم كفار، وسيخلدون في النار، ولن يغفر الله لهم، فليقاتلهم المجاهدون إذن، وليضربوا رقابهم.

تنتقل آيات الدرس إلى المؤمنين بعد ذلك، فتنهاهم عن الوهن والضعف، وتُحرم عليهم الدعوة إلى الاستسلام أمام الأعداء، والذلة أمامهم، والتنازل لهم.

وتُذكِّرهم بأنهم الأعلون على الكفار، الأعلون بإيمانهم والتزامهم، فكيف يضعفون والله معهم ينصره ويؤيدهم؟ وكيف يستسلمون لخصومهم الكفار وهم أدنى منهم؟ ومنذ متى يستسلم الأعلى للأدنى؟ ويذل الأعز للأذل؟ .

وحتى يبقى المؤمنون في موقف الأعلى والأعز والأكرم، تُخبرهم الآيات بطبيعة الحياة الدنيا، وأنها لعب ولهو، وذلك كي لا ينشغلوا بها ويتركوا رسالتهم، ولا يؤثروها على الآخرة فيضعفوا أمام الكفار ويستسلموا لهم.

ثم تدعو الآيات المؤمنين إلى تمويل الجهاد والإعداد له والإنفاق عليه، وإخراج جزء من أموالهم في سبيل الله ولوجه الله، وتنهاهم عن البخل والضنّ بأموالهم، لأن هذا لا يتفق مع إيمانهم وتقواهم.

وبهذا تتناسق وتتكامل آيات الدرس، وتؤكد بعض الحقائق المذكورة في الدروس السابقة، وتستمر في تعريف المؤمنين على صفات الكافرين، وتهييجهم على قتالهم.

وتُقدم لهم أحكاماً قاطعة في طاعة الله ورسوله، وعدم إبطال الأعمال، وعدم الوهن والاستسلام للكفار، وعدم البخل عن تكاليف الجهاد.

الخاتمة
آية : ٣٨

قلنا: إن سورة محمد مكونة من مقدمة وأربعة دروس، وخاتمة.

والخاتمة هي الآية الأخيرة منها. وهي قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

وموضوع الخاتمة تحذير وتهديد وتذكير.

وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع آيات الدرس الرابع الأخير، وهي الآيات التي تدعو المؤمنين على الإنفاق على الجهاد، وتنهاهم عن البخل.

وقد انقسم المسلمون قسمين في موقفهم من تلك الدعوة.

القسم الأول: وهم معظم المسلمين الذين التزموا بتلك الدعوة، وسارعوا إلى الإنفاق في سبيل الله، وأخرجوا أموالهم في الإعداد للجهاد، ولم يضنّوا بها، وأرضوا بذلك ربّ العالمين.

القسم الثاني: وهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، حيث تثاقلوا عن الجهاد، وضعُفوا عن الإنفاق، وبخلوا بأموالهم، فلم يُخرجوها في سبيل الله.

فتأتي هذه الآية الخاتمة للسورة لتهدد هؤلاء المسلمين المتثاقلين البخلاء، وتلومهم على بخلهم، وتُخبرهم أنهم هم الذين يخسرون عندما يبخلون، أما الإسلام فإنه قوي محفوظ، والله هو الغني عن العالمين، والجهاد ماضٍ، وعدم إنفاقهم لا يوقف الجهاد، وهم بذلك البخل لا يضرون إلا أنفسهم، ولا يبخلون إلا عن أنفسهم.

وهذه الآية تهديد لهؤلاء البخلاء المتثاقلين، كما أنها تحذير للمسلمين، حتى يستمروا في الإنفاق والإعداد، وفي الحشد والجهاد، وحتى لا يتوقفوا أو يبخلوا أو يتراجعوا.

وآخر جملة في هذه الخاتمة تذكير للمؤمنين بسنّة ربانية مطردة، هي سنّة الاستبدال: «وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» وهذا التذكير يحمل معنى التحذير، كما يحمل معنى التهديد.

وخلاصة سنّة الاستبدال: أن الله يرشح قوماً من المسلمين للعزة والريادة والخلافة والأستاذية، ويبتليهم بالتكاليف والواجبات التي تقود إلى ذلك المركز المتقدم، ويجب عليهم الجهاد والمواجهة للباطل وتحدّي جنوده، ويدعوهم إلى الإنفاق على الجهاد ودعمه وتمويله.

فإن قاموا بواجبهم فإن الله يحقق لهم ما يرجون، ويمنّ عليهم بنصره وتأييده، ويحقق لهم العزة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وإن لم يقوموا بواجبهم، بل تولوا وقعدوا، وتخلفوا وبخلوا، وجبنوا واستسلموا، وذلوا وضعفوا، فإنهم لن يضروا الله ولا دينه، لأن الله هو القوي الغني، وهم الفقراء الضعفاء.

عند ذلك يذهب الله بهم، ويُنزلهم عن مكانتهم، ويُلغي ترشيحهم للفضل، ويُعيدهم إلى هامش الحياة والوجود، ثم يأتي بقوم آخرين، أعز وأكرم وأفضل منهم، ينصر بهم دينه، ويقدم لهم فضله وكرمه.

ولقد أثّرت هذه الخاتمة أثرها المطلوب في نفوس المؤمنين، وفهموا ما تحمله من تهديد وتحذير، فتخلّى البخلاء عن بخلهم، واستعلى الضعفاء على ضعفهم، وتخلص المتثاقلون من أمراضهم، وتسابقوا للإنفاق والجهاد.

وبذلك لم يتولّ المؤمنون عن مهمتهم، ولم يتخلّوا عن واجبهم، ولذلك لم يستبدل قوماً غيرهم بهم، وبقوا أمة الخلافة والريادة والجهاد.

وهذه الآية الخاتمة، هي خاتمة موضوعية مناسبة للسورة، فموضوع السورة هو الجهاد، وشخصيتها هي الجهاد، ودروسها تقرر الجهاد، فناسب أن تكون خاتمتها تحذيراً من القعود والنكوص والتثاقل والتولي.

وبهذا تبدو لنا هذه السورة وحدة موضوعية متكاملة متناسقة، ما بين مقدمتها ودروسها الأربعة وخاتمتها وما بين خطوطها الأساسية وحقائقها الجهادية.

وبهذا صحّ اعتبارها سورة التربية الجهادية والتهييج القتالي.

ولهذا سميت سورة محمد، وسورة القتال، وسورة الذين كفروا، محمد ﷺ هو إمام المجاهدين في قتال الذين كفروا !! .

المطلب التاسع
من لطائف السورة

نقف في نهاية دراستنا الموضوعية لسورة محمد، لنسجل بعض لطائف السورة، ونلتفت إلى بعض الكلمات والمصطلحات التي تكررت فيها.

إننا نرى أن سورة محمد حريصة على ترسيخ بعض المصطلحات والألفاظ في تصور المسلمين، ولذلك أوردتها في عدة مواضع من آياتها.

ونورد فيما يلي بعض الألفاظ والمصطلحات التي تكرر ذكرها، ونجمع وننسق بينها، ونستخلص من ذلك اللطائف والدلالات:

أولاً: اسم الموصول: «الذين»:

ورد اسم الموصول «الذين» في آيات السورة أربعاً وعشرين مرة: ولعل الحكمة من كثرة وروده – مع صلته – أن من أهداف السورة التعريف على معسكري المعركة بين الحق والباطل، وبيان أهم صفات المؤمنين، وأهم صفات الكافرين.

و«الذين» كلمة مبهمة، لا تبين إلا بجملة صلة الموصول.

تحدثت كلمة «الذين» مع صلتها عن الكفار والمنافقين أربع عشرة مرة. بينما تحدثت عن المؤمنين عشر مرات.

«الذين كفروا» وردت في هذه الآيات:

١ – ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:١].

٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [آية:٣].

٣- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ...﴾ [آية:٤].

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٨].

٥- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [آية:١٢].

٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آية:٣٢].

٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [آية:٣٤].

ووردت «الذين» مع صلتها في الحديث عن الكفار والمنافقين في هذه الآيات:

١- تحدثت عن الكفار السابقين الذين كانوا قبل الإسلام، وعن إهلاك الله لهم. ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [آية:١٠].

٢- تحدثت عن ضلال المنافقين، والطبع على قلوبهم، بحيث لا يستفيدون ولا يستجيبون للحق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [آية:١٦].

٣- وصفت المنافقين بأنهم في قلوبهم مرض، ولذلك يجبنون عن القتال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [آية:٢٠].

٤- وصفت المنافقين بأنهم في قلوبهم مرض، ولذلك امتلأت قلوبهم بالحقد: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [آية:٢٩].

٥- أخبرت أن الله قد لعن المنافقين لكفرهم ونفاقهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [آية:٢٣].

٦- وحكمت على المنافقين بالردة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [آية:٢٥].

٧- وبيّنت السبب في ردة المنافقين، وهو طاعتهم للكافرين الكارهين لشرع الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [آية:٢٦].

أما «الذين آمنوا» فقد وردت في آيات السورة سبع مرات، هي:

١- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ...﴾ [آية:٢].

٢- ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آية:٣].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [آية:٧].

٤- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آية:١١].

٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [آية:١٢].

٦- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [آية:٢٠].

٧- ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [آية:٣٣].

ووردت «الذين» مع صلتها وصفاً لبعض أعمال المؤمنين ثلاث مرات:

١- ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [آية:٤].

٢- ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [آية:١٦].

٣- ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ...﴾ [آية:١٧].

والخلاصة من هذه الإحصائية:

١- «الذي كفروا»: وردت سبع مرات.

٢- «الذين آمنوا»: وردت سبع مرات.

٣- «الذين»: وصف للمنافقين والكفار: وردت سبع مرات.

٤- «الذين»: وصف للمؤمنين: وردت ثلاث مرات.

وأدعو إلى ملاحظة التوافق الحسابي العددي بين عدد مرات «الذين كفروا» و«الذين آمنوا» والمنافقين.

فليس مصادفة أن ترد «الذين» سبع مرات في الكفار، وسبع مرات في المؤمنين. لأن السورة «تفرز» الناس على أساس الإيمان والكفر، وتقسمهم إلى معسكرين، وتدعو المؤمنين إلى مقاتلة الكافرين، ولذلك جاء «التنصيف» في عدد مرات «الذين».

ثانياً: أعمال المؤمنين وأعمال الكفار بين القبول والإضلال:

وردت مادة «عمل» واشتقاقاتها في آيات السورة اثنتي عشرة مرة.

ست مرات في الحديث عن أعمال المؤمنين، وست مرات في الحديث عن أعمال الكفار. وفق ظاهرة «التنصيف» الإحصائي، في الفرز بين معسكري المعركة.

ورد الحديث عن أعمال الكفار في هذه الآيات:

١- الله أضل أعمالهم: ﴿... أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾ [آية:١].
٢- الله حكم عليهم بالتعاسة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٨].
٣- الله أحبط أعمالهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٩].
٤- زُينت للكفار أعمالهم السيئة: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [آية:١٤].
٥- الله أحبط أعمالهم لكفرهم وكرههم رضوان الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٢٨].
٦- الله أحبط أعمالهم لصدِّهم عن سبيل الله وحربهم لرسوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٣٢].

لماذا يعمل الكفار أعمالهم السيئة، من الكفر والصدّ عن سبيل الله وحرب الحق؟ لأن أعمالهم مزينة لهم، فهم يرونها صواباً وخيراً: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [آية:١٤].

وأعمال الكفار ضالة، أضلها الله عليهم. لأنهم كفروا وصدّوا عن سبيله، وبما أنه أضلها فقد كتب عليهم التعاسة.

وقد أحبط الله أعمالهم وألغاها، والسبب هو كرههم لما أنزل الله، وكرههم لرضوان الله، واتِّباعهم لما أسخط الله، وهؤلاء لن يضروا الله.

أما الحديث عن أعمال المؤمنين فقد ورد في هذه الآيات:

١- هم آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [آية:٢].

٢- الله سيتقبل أعمال الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [آية:٤].

٣- الله يدخلهم الجنة لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ [آية:١٢].

٤- أعمال المؤمنين مكشوفة عند الله، معلومة له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [آية:٣٠].

٥- والله يتقبل أعمال المؤمنين الصالحة، ولهذا عليهم أن لا يُبطلوها: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [آية:٣٣].

٦- والله يُثيبهم على أعمالهم، ولا يُنقصهم شيئاً منها: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [آية:٣٥].

ومعنى: لن يتركم أعمالكم، لن يُنقصكم شيئاً من أجور أعمالكم.

المؤمنون آمنوا، ونتج عن إيمانهم قيامهم بالأعمال الصالحات، وجعلوها لله، وحرصوا عليها، ولم يُبطلوها، فتقبّلها الله منهم، ولم يُضلها ولم ينقضها، وأدخلهم بها الجنة، ولم يُنقصهم شيئاً من أجورهم عليها.

وتدلنا الآيات التي تحدثت عن أعمال المؤمنين المقبولة وأعمال الكفار المردودة على وجوب تعلم أسباب قبول الأعمال، لنأخذ بها، وأسباب إبطال الأعمال لنتجنّبها.

ثالثا: «ذلك» اسم إشارة للتعليل:

«ذلك» اسم إشارة، وقد ورد في آيات السورة ست مرات، وكان وروده في سياق التعليل وبيان الحكمة أو السبب، حيث يسبقه تقرير حكم، أو بيان حقيقة، ويأتي بعده «باء» السببية، فيكون ما بعد «ذلك» هو السبب والعلة والحكمة في وقوع ما قبله.

وفيما يلي وقفة تحليلية مع «ذلك» التعليلية:

١- تخبرنا مقدمة السورة أن الله أضلّ وأبطل أعمال الكفار، الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، بينما تقبّل أعمال المؤمنين الصالحين، وكفّر عنهم سيئاتهم، وأصلح بالهم.

وقد يستغرب بعض الناس، ويتساءلون عن الحكمة في هذا الافتراق، فتنص الآيات على العلة والسبب: إن الله أبطل أعمال الكفار، ذلك لأنهم اتّبعوا الباطل، وقَبِل أعمال المؤمنين لأنهم اتّبعوا الحق.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [الآيات:١-٣].

٢- أمر الله المؤمنين بقتال الكفار، وضرْب رقابهم، وأخْذ الأسرى منهم، والحرب فيها مشقة وتضحية وآلام، وقد يتساءل بعض المسلمين عن حكمة تكليف المؤمنين بالقتال، وتحمّل تبعاته ومشقاته، ولماذا لم يُدمِّر الله الكفار مباشرة، بدون جهد المسلمين؟ .

فيأتي التعليل وبيان الحكمة بأن الله لو شاء لانتصر من الكفار ودمّرهم مباشرة، لكنه يريد أن يربي المؤمنين تربية جهادية عن طريق الجهاد، وأن يقوي عزائمهم، ويرتقي بهممهم ويميز صفوفهم، وهذا كله لا يتحقق إلا عندما يكلفهم بالجهاد.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [آية:٤].

٣- حكم الله على الكفار بالتعاسة والشقاء، وحكم على أعمالهم بالضياع والضلال والبوار، ولا يستغربنّ أحد من هذا، فالله عادل في حكمه عليهم وعقابه لهم.

الحكمة والعلة في ما عاقبهم به أنه جاء بسبب كراهيتهم للحق، ورفضهم لما أنزل الله من الهدى والنور، وسنّة الله أن كل من كرهوا ما أنزل الله فإن الله يحبط أعمالهم، ويُشقيهم في حياتهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الآيتان:٨-٩].

٤- أخبر الله أنه دمّر الكافرين السابقين، ودعا كفار قريش إلى ملاحظة ما جرى لمن سبقوهم من الكفار، كيف كان يدمّر الكافرين ويُنجي المؤمنين.

وتعلل الآيات ما جرى للكافرين من تدمير بأنهم لا مولى لهم يدفع عنهم عذاب الله، وما جرى للمؤمنين من نجاة بأن الله مولاهم يحميهم وينجيهم.

قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [الآيتان:١٠-١١].

٥- أخبر الله أن المنافقين قد ارتدّوا على أدبارهم، وتركوا الهدى بعدما تبيّن ووضح لهم، وبذلك خضعوا للشيطان، حيث سوّل لهم وأملى لهم.

وتعلل الآيات ردة المنافقين بأن سببها هو موالاتهم للكفار الذين كرهوا ما أنزل الله من الحق، وطاعتهم لأولئك الكفار، وإظهارهم الإيمان كذباً ونفاقاً، وإسرارهم الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [الآيتان:٢٥-٢٦].

٦- أخبر الله ببعض ما سيعانيه المنافقون عند الاحتضار من العذاب، قبل خروج أرواحهم من أجسادهم، حيث ستأتيهم ملائكة العذاب، يضربون وجوههم وأدبارهم.

وتعلل الآيات سبب ذلك العذاب عند الاحتضار، بأن المنافقين في حياتهم بحثوا عن كل ما يكرهه الله فعملوه، وبحثوا عن ما يسخطه الله فنفذوه، وعن الذين يُبغضهم الله فاتّبعوهم، وبما أنهم اتّبعوا ما أسخط الله فقد كرهوا رضوانه، لأنهما نقيضان لا يجتمعان.

وقد جازاهم على ذلك بأن أحبط أعمالهم في حياتهم، وأمَرَ الملائكة أن يضربوا وجوههم وأدبارهم عند احتضارهم.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الآيتان:٢٧-٢٨].

وهذه المواضع التعليلية الستّة في السورة تتحدث عن حقائق أساسية في العقيدة، وتجيب على أسئلة متوقعة حول موضوعاتها:

١- أعمال الكفار ضائعة وأعمال المؤمنين مقبولة. لماذا؟ لأن الكفار اتبعوا الباطل، ولأن المؤمنين اتبعوا الحق.
٢- والله كلفنا بالجهاد الشاق الثقيل! لماذا؟ ليبلونا ويمتحننا ويرفع درجاتنا.
٣- والله دمّر الكافرين وأحبط أعمالهم وكتب عليهم التعاسة والشقاء! لماذا؟ لأنهم كرهوا ما أنزل الله من الحق وحاربوه.
٤- والله دمّر الكفار السابقين فلم ينصرهم أحد، وأنجى المؤمنين السابقين فلم يضرهم أحد! لماذا؟ لأن الله مولى المؤمنين، أما الكافرون فلا مولى لهم.
٥- والمنافقون مرتدّون تاركون للهدى بعدما وضح أنهم متبعون للشيطان! لماذا! لأنهم قالوا للكفار الكارهين لشرع الله: سنطيعكم في بعض الأمر.
٦- المنافقون معذّبون عند الاحتضار، تضرب ملائكة العذاب وجوههم وأدبارهم! لماذا؟ لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه.

رابعاً: الاتباع في السورة:

ورد الاتباع في آيات السورة بصيغة الفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة، وورد هذا الفعل: «اتبعوا» خمس مرات.

ورد فعل «اتّبعوا» في اتباع المؤمنين الحق مرة، وفي اتّباع الكافرين الباطل مرتين، وفي اتّباع المنافقين الباطل مرتين أيضاً.

١- المؤمنون صالحون مهتدون، لأنهم اتبعوا الحق من ربهم: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آية:٣].

٢- الكافرون هالكون ضالون، لأنهم اتبعوا الباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ...﴾ [آية:٣].

٣- الكافرون المتّبعون للباطل زُيِّن لهم سوء أعمالهم، فارتكبوا السيئات، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا أهواءهم: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [آية:١٤].

٤- المنافقون لا يعون القرآن ولا يفقهونه، والسبب هو أنهم قد تركوا الحق والهدى، واتبعوا الباطل والهوى، والذين اتبعوا الهوى كيف يتبعون الهدى؟: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [آية:١٦].

٥- المنافقون الضالون المرتدون معذبون عند الاحتضار، تضرب ملائكة العذاب وجوههم وأدبارهم، لأنهم اتبعوا ما أسخط الله، والسبب في اتّباعهم ما أسخط الله هو اتباعهم أهواءهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٢٨].

إن ورود الاتباع في السورة خمس مرات يدلنا على سِرّ الافتراق بين المعسكرين، معسكر الحق الذي مثله المؤمنون، معسكر الباطل الذي يمثله الكافرون والمنافقون.

المؤمنون اتبعوا الحق والهدى. والكافرون والمنافقون اتبعوا الباطل والهوى!! .

خامساً: البخل المذموم في السورة:

ورد البخل في السورة أربع مرات، بصيغة الفعل المضارع، وكان وروده في سياق الذم والإنكار.

١- أخبر الله المؤمنين – وهو يحثهم على الإنفاق للجهاد – بأنه لا يطلب منهم إنفاق كل أموالهم للجهاد، لأنه يعلم أنه إن كلفهم بإنفاقها كلها فسوف يبخل كثيرون منهم، لأنه يشق عليهم إنفاق الأموال كلها، أما إنفاق بعضها فهم قادرون عليه، ولذلك طلب منهم إنفاق بعضها:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [الآيتان:٣٦-٣٧].

٢-٤: والمرات الثلاث مذكورة في الآية الأخيرة، في سياق تهديد المتثاقلين عن الجهاد، الباخلين عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾ [آية:٣٨].

«مَنْ» في قوله: «فمنكم مَنْ يبخل»: اسم موصول بمعنى «الذي» وفعل «يبخل» مضارع مرفوع صلة الموصول. والمعنى: عندما تُدْعون إلى الإنفاق في سبيل الله، فمنكم الذي يبخل عن الإنفاق.

و«مَنْ» الثانية التي في قوله: «ومَنْ يَبْخَلْ فإنما يبخل عن نفسه» اسم شرط. و«يَبْخَلْ» مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط، وجملة «فإنما يبخل عن نفسه» جواب الشرط.

و«يبخلُ» في قوله: «إنما يبخلُ» مضارع مرفوع.

إن فعل «يبخل» في المرات الأربعة ورد في سياق ذمِّ البخلاء عن الإنفاق، من ضعفاء الإيمان من المسلمين.

والفعل المضارع مجزوم مرتين: «تبخلوا» و«مَنْ يبخل».

ومرفوع مرتين: «فمنكم من يَبْخَلُ» و«فإنما يبخل عن نفسه».

والهدف هو نهي المؤمنين عن البخل على الإنفاق، لأن الجهاد يحتاج إلى سخاء وكرم وبذل! .

سادساً: كراهية شرع الله ورضوانه:

الكراهية مذكورة في آيات السورة ثلاث مرات. وهي في هذه المرات في سياق الكلام عن الكفار والمنافقين، الذين كرهوا ما أنزل الله وكرهوا رضوان الله.

١- الكفار كرهوا ما أنزل الله من الحق، وعاقبهم الله على هذه الكراهية بأن أحبط لهم أعمالهم، وكتب عليهم التعاسة والشقاء، جزاءً وفاقاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الآيتان:٨-٩].

٢- والمنافقون اتبعوا الكفار الذين كرهوا ما أنزل الله، ووعدوهم أن يطيعوهم في أمورهم، وهم بتلك المتابعة والطاعة شاركوهم في كراهية ما أنزل الله، فصاروا مرتدِّين كافرين مثلهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الآيتان:٢٥-٢٦].

٣- وبمتابعة المنافقين للكافرين الذين كرهوا ما أنزل الله، صاروا متابعين لما أسخط الله، مختارين لما يُغضبه، وهم بذلك كانوا كارهين لرضوان الله، رافضين لمحبته ورضاه. وأي عاقل يختار هذا؟ أي عاقل يختار ما يُغضب الله، ويتبع ما يُسخطه؟ أي عاقل يكره رضوان الله؟ .

وقد عاقب الله المنافقين على هذا الاختيار البائس، وتفضيلهم لما يُسخطه، وكراهيتهم لما يرضيه، بأن أمر ملائكة العذاب بضربهم عند الاحتضار:

قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الآيتان:٢٧-٢٨].

وتخبرنا هذه الآيات عن هذه الطبيعة المِعوجَّة للكفار والمنافقين، حيث يلتقي الفريقان على كراهية ما أنزل الله، وكراهية رضوان ومحبة الله.

وترتب على هذه الكراهية عقوبة شديدة وهي إحباط أعمال هؤلاء الأعداء!! .

سابعاً: الصد عن سبيل الله:

الصدّ عن سبيل الله المستقيم فعل قبيح مرذول، يقوم به الكافرون الذين كرهوا ما أنزل الله.

وقد ذُكر صدّ الكفار عن سبيل الله ثلاث مرات في آيات السورة، وهذه المرات الثلاث مرتبة ترتيباً مرحلياً.

١- فالكفار أساساً قد كفروا، ونتج عن كُفرهم صدّهم عن سبيل الله، وعاقبهم الله على ذلك بأن أضل وأضاع أعمالهم.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [آية:١].

٢- وبما أن الكفار قد صدّوا عن سبيل الله، فقد شاقوا الرسول من بعد ما بيّن لهم الهدى، واختاروا الجانب الآخر المعادي للرسول ﷺ، المحارب له ولدينه. ولكنهم فاشلون مهزومون خاسرون، فهم لن يضروا الله شيئاً، ولن يغلبوا رسوله، ولن يقضوا على دينه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [آية:٣٢].

٣- وبما أن الكفار قد اختاروا الكفر ومعاداة الحق، فقد «برمجوا» حياتهم على الصد عن سبيل الله، ووقفوا حياتهم كلها على هذا الصدّ عن سبيل الله، واستمرّوا على ذلك حتى الموت، فماتوا وهم كفار صادّون عن سبيل الله.

وبما أنهم عاشوا حياتهم كافرين صادّين عن سبيل الله، فقد حرموا أنفسهم من رحمة الله ومغفرته وجنّته، واستوجبوا بذلك عذابه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [آية:٣٤].

إن الكفار قد صدّوا عن سبيل الله، ثم شاقوا الرسول وحاربوه، واستمروا على ذلك حتى ماتوا.

وترتب على هذه الجرائم أن الله عاقبهم بأن أحبط أعمالهم، وهزمهم وأهلكهم، وحجب عنهم مغفرته ورحمته، وخلدهم معذبين في ناره!! .

ثامناً: الذين في قلوبهم مرض:

«الذين في قلوبهم مرض» جملة قرآنية وردت عدة مرات في القرآن، وكان المراد بها في معظم تلك المرات المنافقون.

ووردت هذه الجملة في سورة محمد مرتين، والمراد بها في المرتين المنافقون.

١- في المرة الأولى وُصف المنافقون بهذا الوصف الكريه، في سياق تصوير جبن المنافقين وخوفهم وهلعهم، عندما يُنزل الله سورةً محكمة، يكلفهم فيها بقتال الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [آية:٢٠].

المرض الذي في قلوب المنافقين هو الكفر والنفاق، وهو أخطر مرض يصيب القلوب، ويقضي على الخير فيها، ويحبط أعمال أصحابها.

ومرض المنافقين في قلوبهم جعل الجبن والفزع في نفوسهم، فعندما يُكلفون بالقتال يصابون بالدوخة والدوران والغشية.

وقد رسمت لهم الآية صورة كريهة منفّرة، فعندما يُؤْمَرون بالقتال، ينظرون إلى الآمر نظر المغشي عليه من الموت.

٢- في المرة الثانية وُصف المنافقون بهذا الوصف في سياق تهديدهم بكشفهم وفضحهم، وإخراج ما في قلوبهم من الأضغان والأحقاد، ووضع أيدي المؤمنين على وسيلة يتعرفون بها على انحراف المنافقين.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [الآيتان:٢٩-٣٠].

والأضغان هي الأحقاد التي في قلوبهم على المؤمنين، من الكراهية والبغضاء واللوم والكيد والمكر والتآمر، وهذه هي الأمراض الفتاكة الخطيرة التي أصابت قلوب المنافقين فأعطبتها وأتلفتها، وماذا يُرجى من أصحاب القلوب المعطوبة؟؟ .

تاسعاً: إصلاح بال المؤمنين:

«إصلاح البال»نعمة كبيرة من الله، وفضلٌ غامر منه سبحانه، يخص به المؤمنين الصالحين، والمجاهدين الشهداء.

وقد ورد إصلاح البال خاصّاً بهؤلاء المؤمنين المجاهدين مرتين في آيات السورة:

١- في المرة الأولى ورد في سياق مكافأة الله للمؤمنين، على ما صدر عنهم من إيمان وعمل صالح، وحُسْن متابعة للنبي ﷺ ، وحُسْن تطبيق للقرآن، فعندما يفعلون ذلك يجزيهم الله خيراً بأن يكفِّر عنهم سيئاتهم ويصلح بالهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [آية:٢].

ونلاحظ أن الآية عطفت إصلاح البال على تكفير السيئات، وجعلت الأمرين ثمرة لما قبلهما من إيمان وعمل صالح، وعطف إصلاح البال على تكفير السيئات لأنه نتيجة له، لأن المؤمن الصالح قد يرتكب السيئات بدون تعمّد، لأنه غير معصوم، ولكنه يبقى خائفاً من السيئات، شاعراً بتأنيب الضمير، أي: يبقى باله مشغولاً، وأعصابه متوترة، ومشاعره مشدودة. فإذا كفّر الله سيئاته وغفر له، منحه راحة البال، والهدوء والطمأنينة والسكينة، وهذا هو المراد بإصلاح البال في الآية.

٢- وفي المرة الثانية ورد في سياق ما أعدّ الله للمجاهدين الشهداء، الذين قُتلوا في سبيل الله، من ثواب وجزاء في الآخرة، حيث يتقبل أعمالهم وجهادهم، ويُصلح بالهم، ويُدخلهم الجنة التي عرّفها وأعدّها وخصّصها لهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [الآيات:٤-٦].

ونلاحظ أن إصلاح البال في الموضعين خاص بالمؤمنين، فهو فضل من الله يسبغه على المؤمنين الصالحين المجاهدين، والكفار محرومون من هذه النعمة، الضرورية جداً للحياة الإنسانية في هذه الدنيا.

الله يمنّ على المؤمنين بإصلاح البال، بينما يعاقب الكافرين والمنافقين بالتعاسة وإحباط الأعمال!! .

ونلاحظ أيضاً المرحلية في الإخبار عن إصلاح بال المؤمنين في الموضعين. حيث جاء في الموضع الأول بصيغة الفعل الماضي: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ . بينما جاء في الموضع الثاني بصيغة الفعل المضارع: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ .

ولعل الحكمة من ذلك هي:

١- الإشارة إلى المرحلية، فإصلاح بال المؤمنين في السابق مرحلة أولى، وإصلاح بالهم في الحاضر مرحلة ثانية، وإصلاح بالهم في المستقبل مرحلة تالية.

٢- شمول نعمة إصلاح بال المؤمنين لطرفي زمانهم، فهم في الماضي قد أصلح الله بالهم، وهم في الحاضر والمستقبل سيصلح الله بالهم، وبذلك تكون حياتهم كلها سعيدة، يعيشونها ويستمتعون بها وقد أصلح الله بالهم.

٣- صلاح بال المؤمنين شامل للدنيا والآخرة، وتخبر المرة الأولى عن إصلاح بالهم فالدنيا، وتخبر الآية الثانية عن إصلاح بالهم في الآخرة.

عبّر عن إصلاح بالهم في الدنيا بصيغة الفعل الماضي: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾.

وعبّر عن إصلاح بالهم في الآخرة بصيغة الفعل المضارع، وقرنها بعدم إخلال وإحباط أعمالهم، وبإدخالهم الجنة، وهذا يكون يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ .

عاشراً: ألفاظ اختصت بها السورة:

تفردت سورة محمد بإيراد ألفاظ لم ترد في غيرها من السور.

من هذه الألفاظ:

١- تعْساً: وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:٨].

وهي دعاء على الكافرين بالتعاسة والشقاء. وهي مصدر. تقول: تعس، يتعس، فهو تعس، ووضْعه تعيس، تعْساً له.

٢- آسن: وردت في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [آية:١٥].

إن «غير آسن» وصف للماء المبارك الذي أجرى الله به أنهار الجنة: «أنهار من ماء غير آسن».

و«آسِن» اسم فاعل. مشتق من «أسَن» تقول: أسِن، يأسَن، فهو آسِن.

ومعنى «أسِن» تغيّر. فمعنى «غير آسِن»: غير متغير.

إن الماء في الدنيا إذا طال مكثه في مكان معين يأسن ويتغير، وقد يفسد ويُنتن، ويصير غير صالح للاستعمال.

أما أنهار الجنة، فإن ماءها الذي يجري فيها لا يأسن ولا يُنتن ولا يتغير.

٣- عسل: وردت في نفس الآية التي تتحدث عن أنهار الجنة، فالنوع الرابع من أنواع أنهارها، أنهار من عسل. قال تعالى: ﴿... وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...﴾ [آية:١٥].

والعسل معروف، شراب فيه شفاء للناس، وورد وصفه بأنه شفاء للناس دون أن يُصرَّح بأنه «عسل» وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

أما كلمة «عسل» فلم ترد إلا في سورة محمد، ونتصور أنهاراً طويلة عريضة في الجنة، مملوءة بالعسل! أنهار عسل وليس أواني أو أوعية عسل.

وعسل الجنة مصفى، ليس فيه أية شوائب أو أجسام غريبة، يتأذى منها الإنسان، ويجتهد في فصلها عن العسل.

٤- أمعاءهم: وردت في نفس الآية الخامسة عشرة من السورة. في معرض الإشارة إلى بعض أصناف عذاب الكفار في النار، بعد الإشارة إلى بعض ألوان نعيم المؤمنين في الجنة. قال تعالى: ﴿... كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [آية:١٥].

والأمعاء جمع «مِعًى»وهو معروف، والأمعاء من أجهزة الجهاز الهضمي للإنسان.

الكفار مخلدون في النار، مخلدون في عذابها، ومن صور عذابهم فيها أنهم يسقون رغم أنوفهم ماءً حمياً، شديد الحرارة. فعندما يدخل بطونهم يصهرها صهراً، وعندما يبلغ أمعاءهم يقطعها.

تفردت الآية الخامسة عشرة من السورة بذكر ثلاثة ألفاظ، لم ترد في غيرها من آيات القرآن، وهي: آسن. عسل. أمعاء.

٥- أشراطها: وردت في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ ﴾ [آية:١٨].

والأشراط جمع «شَرَط» والشَّرَط هو العلامة، والأشراط هي العلامات.

وأشراط الساعة هي علاماتها، وهي مقدماتها التي تسبق قيام الساعة، وتحدث قبلها، مثل ظهور يأجوج ومأجوج وظهور الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

ومن أشراط وعلامات الساعة بعثة محمد ﷺ، لأنه آخر الأنبياء والمرسلين، ودينه آخر الأديان. وقد اعتبرت الآية البعثة المحمدية من أشراط الساعة، وذلك عندما قالت: «فقد جاء أشراطها».

٦- أقفالها: وردت في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [آية:٢٤].

والأقفال جمع «قُفْل» وهو ما يوضع على الشيء عندما يراد إحكام إغلاقه.

والآية في سياق ذم المنافقين لعدم تدبرهم للقرآن، وبيان سبب عدم تدبّرهم، وهو الأقفال المحكمة على قلوبهم، والتي تمنع تدبرهم للقرآن، وتحول دون وصول أنواره إليها.

٧- الأضغان: وردت مرتين في السورة.

المرة الأولى: في سياق تهديد المنافقين بإخراج أضغان قلوبهم وفضحهم أمام المؤمنين. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [آية:٢٩].

المرة الثانية: في سياق تعليل عدم تكليف الله المؤمنين بإخراج كل أموالهم في سبيل الله، حيث كلفهم بإخراج بعض أموالهم، ولو كلفهم بإخراج كل أموالهم فسوف يبخلون، وبذلك تخرج وتظهر أضغان قلوبهم. قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [آية:٣٧].

لقد رحم الله المؤمنين فلم يكلفهم فوق طاقتهم، وبذلك لم يُخرج أضغان قلوبهم.

والأضغان جمع «ضغن». وهو الحقد، والأضغان هي الأحقاد.

وهذا معناه أن قلوب المنافقين مليئة بالأحقاد والأضغان، التي ينميها ويغذيها نفاقهم وكفرهم.

٨- لحن: وردت مرة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ [آية:٣٠].

والكلمة وردت في سياق تعريف المؤمنين على سمات وملامح المنافقين، فالمؤمنون يعرفون المنافقين عندما يلحنون في أقوالهم وكلماتهم. واللحن مصدر بمعنى الصرف.

ولحن القول: صرف الكلام عن معناه ودلالته المفهومة، وتحريف هذا الكلام، ليدل على غير معناه. واللحن في القول والتلاعب به، وتحريف دلالته، سمة مرذولة من سمات المنافقين، ووسيلة خبيثة من أساليبهم في الخطاب والحديث، التي كشفها القرآن، وعرّف المسلمين عليها.

٩- يُحْفِكُم: وردت في قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ [آية:٣٧].

إن الله لا يطلب من المؤمنين كل أموالهم للإنفاق على الجهاد، ولا «يُحفي» عليهم في إخراجها، لأنه يعلم أنه إن فعل ذلك وألحّ عليهم بالسؤال، وأحفى عليهم في إخراجها، فسوف يبخلون وتخرج أضغان وأمراض قلوبهم.

قال الإمام الراغب في «يُحْفِكُم»، واشتقاقها: «حَفي: الإحْفاءُ في السؤال: التنزُّعُ في الإلحاح في المطالبة، أو في البحث عن تعرُّف الحال. وعلى الوجه الأول نقول: أحْفَيْتُ السؤال، وأحْفَيْتُ فلاناً في السؤال. قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ وأصل ذلك من أحْفَيْتُ الدابة، أي: جعلتُها حافياً»[1].

فالإحفاء هو الإلحاح في الطلب. والله لم يَحْفِ في طلب التصدق من المسلمين حتى لا يبخلوا.

هذه الألفاظ التسعة المشتقة لم ترد في غير سورة محمد، فهي مما تفرَّدَت به السورة من بين جميع سور القرآن. والألفاظ التسعة هي:

تعساً. آسن. عسل. أمعاء. أشراط. أقفال. أضغان. لحن. يحفكم.

ومصادر هذه الكلمات هي: التَّعْسُ. الأسْنُ. العَسْلُ. المعْيُ. الشَّرَط. القَفْلُ. الضِّغْنُ. اللحْنُ. الحَفْيُ.

---

(١) المفردات للراغب: ٢٤٥.

واختصاص سورة محمد بتسعة جذور لتسعة ألفاظ قرآنية مزية تسجّل لهذه السورة.

ونضيف إلى ذلك ذكر بعض التعابير والتراكيب التي اختصّت بها السورة، والتي لم ترد في غيرها من السور على صورتها التركيبية، التي وردت عليها في هذه السورة، مع ورود جذورها وأصولها في السور الأخرى على تركيبة أخرى.

من هذه التعابير التي تفردت بها سورة محمد:

١- ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [آية:١].

٢- ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [آية:٢].

٣- ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [آية:٤].

٤- ﴿إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ [آية:٤].

٥- ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [آية:٤].

٦- ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [آية:٦].

٧- ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [آية:٨].

٨- ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [آية:١٠].

٩- ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [آية:١٠].

١٠- ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [آية:١٥].

١١- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [آية:١٥].

١٢- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [آية:١٥].

١٣- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [آية:١٥].

١٤- ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [آية:١٥].

١٥- ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [آية:١٧].

١٦- ﴿جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [آية:١٨].

١٧- ﴿جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [آية:١٨].

١٨- ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [آية:١٩].

١٩- ﴿سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ [آية:٢٠].

٢٠- ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [آية:٢٠].

٢١- ﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [آية:٢١].

٢٢- ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [آية:٢٢].

٢٣- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [آية:٢٦].

٢٤- ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [آية:٣٠].

٢٥- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [آية:٣٠].

٢٦- ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [آية:٣٣].

٢٧- ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ [آية:٣٥].

٢٨- ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [آية:٣٥].

٢٩- ﴿فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ [آية:٣٧].

٣٠- ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [آية:٣٨].

بهذا المقدار يكتمل ما قدّره الله لنا، من دراسة موضوعية لسورة محمد ﷺ ، حيث أصبحت السورة بهذه الدراسة ذات شخصية مستقلة، ووحدة موضوعية متكاملة.

وندعو الإخوة المتدبرين للقرآن إلى النظر في سورة أخرى، وتدبّرها ودراستها على هذا الأساس، ليقفوا على كنوز من كنوز القرآن التي لا تنفد، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

التفسير الموضوعي تفسير الحاضر والمستقبل، والبحث فيه ما زال في بداياته، وستظهر دراسات عديدة حوله، تكشف الكثير من معانيه وحقائقه.

ولا بد من «تأصيل البحث فيه»، والانطلاق في ذلك من منهجية علمية موضوعية، لها قواعد وضوابط وأسس، يلتزم بها الباحثون في موضوعات القرآن، لأنهم يتكلمون عن القرآن، كلام الله العظيم، ولا بد أن يكونوا حريصين على إحسان القول فيه، وحذرين من الخطأ فيه، أو البحث فيه وهم فاقدون لتلك المنهجية العلمية الموضوعية.

ولقد حاولنا في هذه الدراسة تقديم هذه المنهجية للباحثين والدارسين وطلبة العلم، ليقفوا عليها، ويصدروا عنها في نظراتهم الموضوعية القرآنية.

وجاءت هذه الدراسة على قسمين:

القسم الأول: الدراسة النظرية: وتكلمنا فيها عن الأسس العلمية المنهجية الموضوعية التي نطالب بها.

عرّفنا في هذه الدراسة النظرية التفسير الموضوعي، وبيّنا الصلة بينه وبين أنواع التفسير الأخرى، ثم ذكرنا أهمية التفسير الموضوعي، وأسباب ظهوره في هذا العصر، ومدى الحاجة المعاصرة له.

وتكلمنا فيها عن الأنواع الثلاثة للتفسير الموضوعي: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية. وعرّفنا كل نوع، وقررنا المنهج الموضوعي للبحث فيه، ثم عرضنا الخطوات المرحلية المتدرجة للسير في كل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة. وطالبنا الباحثين بالالتزام بالمنهج والطريقة المعروضة، لتكون دراساتهم علمية منهجية موضوعية.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية: أردنا منها تطبيق المنهج والطريقة والخطوات المقررة في الدراسة النظرية، على موضوعات القرآن، وتقديم نماذج وأمثلة منها للباحثين والدارسين، ليزدادوا إدراكاً للمنهج، والتزاماً بالطريقة.

أوردنا مثالاً على كل نوع من أنواع التفسير الموضوعي.

١- التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: قمنا فيه بجولة تفسيرية موضوعية مع مادة «جهل» واشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن.

٢- التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: كانت جولتنا التفسيرية الموضوعية فيه مع «الشورى في القرآن» باعتبارها موضوعاً مهماً من موضوعات القرآن.

٣- التفسير الموضوعي للسورة القرآنية: درسنا فيه سورة محمد ﷺ دراسة موضوعية.

ونقدم هذه الدراسة الموضوعية «التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق» للباحثين والدارسين وطلبة العلم، الذين يُقبلون على القرآن الكريم، ويتدبّرونه ويعيشون في ظلاله، راجين من الله التوفيق والسداد، والقبول والثواب.

ونعوذ بالله من فتنة القول والعمل، وسوء الفهم والتأويل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المـراجـع

نسجل فيما يلي أهم المراجع التي رجعنا إليها، والتي تمت الإشارة لها في هوامش الصفحات.

١- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس تحقيق عبدالسلام هارون، طبعة دار الفكر المصورة عن الطبعة المصرية.

٢- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، طبعة دار القلم.

٣- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة.

٤- لسان العرب لابن منظور الإفريقي، طبعة دار صادر، لبنان.

٥- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة.

٦- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية، تونس.

٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.

٨- صحيح البخاري، طبعة الدكتور مصطفى البغا.

٩- التفسير والتأويل في القرآن، للدكتور صلاح الخالدي، دار النفائس، عمان.

١٠- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، بيروت.

١١- المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبدالستار السعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.

١٢- المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر، دار المعارف، بيروت.

١٣- صحيح مسلم، طبعة محمد فؤاد عبدالباقي.
١٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، طبعة دار المعرفة.
١٥- التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، طبعة مصورة عن طبقة القاهرة.
١٦- الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، للدكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان.
١٧- الصبر في القرآن، للدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٨- تدبر سورة الفرقان، في وحدة موضوع لعبدالرحمن حبنكة، دار القلم، بيروت.
١٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار الفكر.
٢٠- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، تحقيق د. محمد ألتونجي، عالم الكتب، بيروت.
٢١- المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، أحمد حسن الزيات وآخرون.
٢٢- تفسر القرآن العظيم، لابن كثير، دار الخير، دمشق.
٢٣- مجمع الزوائد للهيثمي، مؤسسة الريان، القاهرة.
٢٤- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٥- التفسير الكبير للرازي، دار الكتب العلمية، طهران.
٢٦- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة.
٢٧- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، لعودة أبو عودة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
٢٨- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٩- جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، دار الفكر، دمشق.
٣٠- مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة.
٣١- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق إبراهيم الأبياري.

٣٢- صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، دار النفائس، عمان.

٣٣- المغازي للواقدي، تحقيق المستشرق مارسدن جونس، عالم الكتب.

٣٤- الشورى في الإسلام، إصدار المجمع الملكي، مؤسسة آل البيت، عمان.

٣٥- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي، طبعة حيدر آباد الدكن، الهند.

فهرس

الباب الثاني: الدراسة التطبيقية

الفصل الأول: النموذج الأول: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

الفصل الثالث: النموذج الثالث: تفسير موضوعي لسورة قرآنية:

سورة محمد ﷺ